سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ٩٤

تفسير جزء تبارك

وفوائده وأحكامه

استنبط فوائده وأحكامه

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك

كتب التفسير تلميذه

د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض

تفسير جزء تبارك

وفوائده وأحكامه

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العسكر، عبد المحسن عبد العزيز
تفسير جزء تبارك. /عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر- الرياض، ١٤٣٢هـ
٣٩٢ص؛ ١٧×٢٤سم .-(سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج؛ ٩٤)
ردمك: ٦ - ٢٨ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - جزء تبارك - تفسير أ - العنوان ب - السلسلة
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٢/١٤١٢

جميع حقوق الطبع محفوظة لدار المنهاج بالرياض

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية . الرياض
المركز الرئيسي - طريق الملك فهد - شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص ب: ٥١٩٢٩ - الرياض ١١٥٥٣
الفروع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقاً) ت: ٢٣٢٢٠٩٥
المدينة النبوية - طريق سلطانة - ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩
مكة المكرمة - الجميزة - الطريق النازل للحرم - ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، وصلّى الله وسلم على من لا نبيّ بعده.

أما بعد؛

فقد فوضت الأخ الشيخ الدكتور الفاضل عبد المحسن ابن عبد العزيز العسكر بنشر ما صدر عني من فتاوى وشروح وتعليقات، والإشراف على طبعها، مع العناية بتصحيحها، جزاه الله خيرًا، ووفّقه لكل خير، وصلّى الله وسلم على محمد.

أملاه

عبد الرحمن بن ناصر البراك

حرر في ١٧ صفر ١٤٣٢هـ

المقدمة

الحمد لله الذي جعل كتابه المبين هدى وبشرى للمؤمنين، وصلى الله وسلم على رسوله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد: فإن الله ﷻ خص هذه الأمة الخاتمة بأن أرسل إليها خير رسله، وأنزل عليها أفضل كتبه القرآن، وجعل هذا الكتاب العظيم الخالد مصدر عز وسؤدد للأمة إذا هي تمسكت به عقيدة وعملًا، وأخذت بهداياته، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] أي وإنه لشرف لك ولقومك.

ومن عظمة هذا القرآن بقاؤه على وجه الدهر غضًا مذ نزل من عند الله ﷻ، واستمرار مهابته وروعته في القلوب على كثرة ما يتلى، ومن آياته البينات استمراره معينًا ثرًا تستنبط منه الحكم والأحكام، ويعرف به الحلال والحرام، وتنتزع منه الهدايات والمواعظ.

يقول أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ) في وصفٍ للقرآن بديع: «إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع

الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورةً لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظرًا وعملًا، لا اقتصارًا على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطِّلْبة، ويجد نفسه من السابقين وفي الرعيل الأول»(١).

ولقد أكب علماء الشريعة ـ على اختلاف علومهم ـ على هذا الكتاب يبينون معانيه ويستنبطون أحكامه ويدونون علومه ويجلون وجوه إعجازه، كلٌّ بحسب ما أوتي من العلم والفهم، ولكلٍّ درجات مما عملوا، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]: «الحكمة: تفسير القرآن، فإنه قد قرأه البر والفاجر». وفي صحيح البخاري عن أبي جُحيفة قال: «سألت عليًّا رضي الله عنه: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهمًا يعطى رجل في كتابه، وما في الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»(٢).

---

(١) الموافقات (٤/ ١٤٤).

(٢) رواه البخاري (٢٨٨٢) وفي مواضع أخرى.

وقد كان من تيسير الله تعالى لراقم هذه الكلمات أن منَّ عليه بتفسير جزء تبارك في أحد بيوت الله في مدينة الرياض ـ حرسها الله ـ[(١)] لثلة مختارة من طلبة العلم النابهين، وكنت حريصًا على إفادتهم بالتوسع في الشرح والتحليل بذكر وجوه الإعراب، وما تنطوي عليه الآيات من وجوه البلاغة، بما يخدم المعاني ويوضح مقاصد القرآن، مستعينًا ـ بعد توفيق الله ـ بما كتبه أسلافنا الأقدمون رحمهم الله، فكنت أراجع أسفار التفسير وآخذ أحسن ما فيها، بيد أني رأيت حقًا للطلاب عليَّ أن آتيهم بالتليد والطريف، يقينًا مني أن كتاب الله لا تنفد معانيه وأسراره، وأن غرائبه وعجائبه متجددة على مر الليالي والأيام، ففي كل حين تُفهم منه أشياء لم تكن مفهومة من قبل، ولولا ذلك ما زبَر كاتب في التفسير ورقة بعد القرون الأولى، كما قرره إماما عصرهما في التفسير المحمدان الشنقيطي وابن عاشور بلَّ الله ثراهما[(٢)] [توفيا في سنة ١٣٩٣هـ]، ويؤيده حديث أبي جُحيفة السابق، لهذا كنت أفزع قبل كل درس إلى سماحة شيخنا العلامة الكبير المبرور أبي عبد الله عبد الرحمٰن بن ناصر البراك متعنا الله بوجوده، وأسبغ عليه سوابغ كرمه وجوده[(٣)]، وكان قد أعطاني من

(١) جامع الأميرة نورة بنت عبد الله في حي النخيل شمالي مدينة الرياض.

(٢) أضواء البيان (٣/ ١١٠)، والتحرير والتنوير (١/ ٢٩). وقال الفخر الرازي في تفسيره (٩/ ١٧٧): «ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجهًا في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، ولولا جواز ذلك لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في تفسير كلام الله مردودة باطلة، ومعلوم أن ذلك لا يقوله إلا مقلد خُلْف».

(٣) أحد كبار علماء المملكة، ولي التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود، =

وقته بغير حساب، فأتدبر معه التنزيل آية آية، وأتدارس معه خلاف المفسرين في أنحائه المتفرقة من المعاني، وعلمِ الأصلين، والفقه، والعربية، وغير ذلك، فيفصل رعاه الله بالرأي الأسد وفق ماتقتضيه الأدلة وسياقات القرآن وأقوال السلف وطبيعة اللغة، ثم أقيد عنه ـ برغبة مني ـ فوائد الآي وأحكامها، وكانت مجالس التفسير تلك مع سماحته ـ على ما تمليه ضرورة البحث من التنقير وطول المراجعة ـ من أحب المجالس إليه ـ أيده الله ـ وإليَّ أيضا، ولم لا تكون كذلك وكتاب الله سميرنا! وهو أغنى غَناءٍ واهبا متفضلا، كما يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ الآية [يونس: ٥٨]، ففضل الله ورحمته القرآنُ والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مَفرُوح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه»(١)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن»(٢)، وقال أيضًا: «فما أشدها من حسرة! وما

= واشتغل قليلًا بمنصب الإفتاء بأمر شيخه سماحة العلامة عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم استعفى، وله تلاميذ كثر ومؤلفات؛ منها: شرح بلوغ المرام وشرح العقيدة التدمرية والواسطية، وفتاوى كثيرة قيد الجمع، وله ترجمة في مقدمة شرحه للتدمرية، وفي الموقع الشبكي لسماحته أيده الله.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٤٣). (٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥١).

أعظمها من غبنة! على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه»[١]، وكلامهم في هذا كثير.

وبعد فراغي من تفسير هذا الجزء المبارك أشار عليَّ الفضلاء من إخواني بطبعه بعد جمعه، مؤملين أن ينفع الله به، فوافقت على هذا الرأي، لا سيما أن التفسير سيضم الفوائد التي أملاها شيخنا العلامة معزوة إليه، وهي فوائد نفيسة، حرية أن تكتب بالعسجد على صحائف من زبرجد، بل كأنما عناها الشاعر الحماسي بقوله:

ولكنها زادتْ على الحسن كلِّه كمالًا ومن طِيبٍ على كل طَيِّبِ

وفي تعميم نشرها إفادة للشيخ حفظه الله ولطلاب العلم ولعامة المسلمين.

فعنَّ لي حينئذ أن أنظر إلى ما لدى الطلاب مما كتبوه بأيديهم من التفسير ـ دون الفوائد فإنها مقيدة لديَّ ـ، فهذبته، وسلكت في تحريره طريق الاختصار غالبًا، لتتيسر قراءته، وينتفع به أكبر عدد من المسلمين، ولذا فقد أهملتُ ذكر الخلاف في الجملة، وتحاشيت التوسع في مسائل العربية إلا ما لا بد من ذكره مما يفصح عن المعنى ويَعضُد القول الراجح، وقد قال ابن عطية: «إعراب القرآن أصل في الشريعة؛ لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع»[٢]، وأبقيت ما لا يستغنى عنه من الوجوه البيانية في الآي؛ فإن علم البلاغة هو

(١) بدائع الفوائد (١/ ٣٣٨).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ١٤).

المطلع على إعجاز القرآن، كما قرره الزركشي[1] وأبو إسحاق الشاطبي[2] وغيرهما.

ثم إني قرأت هذ التفسير من أوله إلى آخره على شيخنا العلامة فثقَّفه، ونفحه بنفحات من علمه ورأيه، جزاه الله عني وعن العلم وأهله خيرًا.

وها أنذا أقدمه إلى القَرَأَة بعد أن أمضيت في عمله أربع سنين دأبًا، تدريسًا وتحريرًا، مع ما أنا آخذ به من أعمال من وراء ذلك. حامدًا الله تعالى على ما وفقني من إتمام التفسير من غير سابقة عائق ولا عائقة سابق، وأسأل الله بجوده العميم وفضله العظيم أن يجعله لي ولشيخي ولكل من كان سببًا في وجوده ونشره ومن قرأه؛ أن يجعله عملًا مبرورًا وأثرًا متقبلًا مشكورًا، وذخيرة صالحة وتجارة يوم المعاد رابحة، اللهم اجعله موجبًا للزلفى لديك يوم القدوم عليك، يا أرحم الراحمين. اللهم صلِّ على محمد وسلم.

وكتب
عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر
غرة جمادى الآخرة ١٤٣١هـ
الرياض العاصمة
حرسها الله تعالى

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣١١).

(٢) الموافقات (٤/ ١٤٦).

سُورَةُ المُلْكِ

صح في فضل هذه السورة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي: تبارك الذي بيده الملك)**(١).

وروى عبد الرزاق في مصنفه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في سورة الملك: «هي المانعة: تمنع من عذاب القبر»(٢).

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

التفسير:

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعالى وتعاظم وتقدس، و﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعل، من البركة وهي كثرة الخير، فمعناه كثرت خيراته وعظمت بركاته، والفعل تبارك

---

(١) رواه أحمد (٧٩٦٢ ـ بتحقيق أحمد شاكر)، وأبو داود (١٤٠٠)، والترمذي وحسنه (٢٨٩١)، وابن ماجه (٣٧٨٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٥) وقال: «صحيح الإسناد». وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) مصنف عبد الرزاق (٣/ ٣٧٩) (٦٠٢٥)، ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٤٠) (٨٦٥١).

لا يتصرف؛ فلا يأتي منه مضارع، ولا مصدر، ولا اسم فاعل، ولا غير ذلك، ولا يسند إلا إلى الله؛ لأنه يدل على البركة الذاتية، وفي افتتاح السورة بهذا التعظيم والتنزيه ما يسمى براعة استهلال؛ لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقرير كمال قدرته سبحانه وكمال علمه وتفرده بالملك، فهو الخالق الرزَّاق، وهو البصير والنصير، وهو على كل شيء قدير.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ المُلك ـ بالضم ـ: السلطان والقدرة ونفاذ الأمر، أي تبارك الذي له التصرف المطلق والتدبير الكامل في ملكوته الواسع، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يسٓ: ٨٣]، وهذا التفسير ليس تأويلًا لليد التي هي من صفاته سبحانه، بل تفسير لمعنى الجملة، وهذا كقولك: الدار بيدي.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فلا يخرج عن قدرته شيء، ولا يفوته شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ إخبار من الله عن نفسه وثناء منه سبحانه على نفسه المقدسة، وهو إرشاد وتعليم للعباد أن يثنوا على ربهم ويحمدوه، وهذا نظير قوله تعالى في الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن كل نقص وعيب، فيشمل تنزيهه عن الشركاء، والصاحبة، والولد، وعن مماثلة المخلوقات، وعن جميع العيوب والآفات.

٢ ـ إثبات كل كمال لله ﷻ؛ لأن نفي جميع النقائص يستلزم إثبات ضدها.

٣ ـ الدلالة على أن الله سبحانه ذو البركة التي لا نهاية لها.

٤ ـ إثبات اليد لله تبارك وتعالى، وقد أجمع أهل السُّنَّة على أن لله يدين، للنصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنَّة.

٥ ـ أن الملك كله لله ﷻ وحده.

٦ ـ عموم قدرة الله تعالى على كل شيء، وقدرتُه سبحانه تامة لا يعتريها عجز بوجه من الوجوه.

٧ ـ الرد على القدرية الذين يخرجون أفعال العباد عن قدرته وملكه تبارك وتعالى، فقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عام لا يُستثنى منه شيء.

٨ ـ وجوب إفراد الله ﷻ بالعبادة فإن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

❁ ❁ ❁

۞ ثم ذكر سبحانه بعض أحكام الملك وآثار القدرة العامة، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة للذي بيده الملك، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي أوجدهما؛ وقدَّر على العباد أن يميتهم ثم يحييهم ثم يميتهم ثم يحييهم، وقدَّم الموت؛ لأنه سابق على الحياة، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ

وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]، ولأنه أدعى إلى إحسان العمل؛ ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ للتعليل، أي ليختبركم؛ فيظهر مَن يكون مِن العباد أحسن عملًا، وحسن العمل يتحقق بالإخلاص، وبمتابعة النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال الفضيل بن عياض: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي أخلصه وأصوبه[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يعجزه شيء.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ الذي يستر الذنب ويتجاوز عنه، وقرن بين العزة والمغفرة كما قرن بين القدرة والعفو في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] للدلالة على أن مغفرته وعفوه سبحانه لا لعجز، بل مع كمال قدرته وعزته.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات صفة الخلق لله ﷻ، وهي صفة ذاتية باعتبار أن الله لم يزل موصوفًا بالخلق، وفعلية باعتبار أنه سبحانه يخلق ما يشاء متى شاء، فالخلق قديم النوع حادث الآحاد.

٢ ـ أن الموت مخلوق، ففي الآية رد على من زعم أن الموت عدم فلا يكون مخلوقًا.

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٥)، معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٣٦٩).

٣ ـ أن الله هو الذي يحيي ويميت.

٤ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله ﷻ، ففيها رد على من أنكر ذلك من الأشاعرة والكلابية.

٥ ـ بيان الحكمة من خلق الموت والحياة، وهي الابتلاء.

٦ ـ بيان الحكمة من الابتلاء بالموت والحياة، وهي ظهور الأحسن عملًا.

٧ ـ تعليل أفعال الله، لقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ففيها رد على نفاة الحكمة والتعليل في أفعاله ﷻ من الجهمية والأشاعرة، القائلين إن أفعال الله ﷻ ليست لحكمة بل لمجرد المشيئة.

٨ ـ أن مراد الرب من العباد حسن العمل.

٩ ـ أن العبرة بحسن العمل؛ لا بكثرته، ولا يكون العمل حسنًا إلا بالإخلاص والمتابعة، كما تقدم.

١٠ ـ أنه لا بد من العمل؛ فلا يكفي الإيمان وحده لدخول الجنة، ففي الآية رد على المرجئة.

١١ ـ تفاضل العباد، وذلك بحسب إحسان العمل.

١٢ ـ تفاضل الأعمال الصالحة، أَيْ إن بعضها أفضل من بعض، ولتفاضل الأعمال أسباب: كفضل الزمان والمكان، وجنس العمل ونوعه، وحال العامل.

١٣ ـ إثبات الحسن العقلي، ففيها رد على من أنكره من الأشاعرة.

١٤ ـ إثبات اسم العزيز لله تعالى، وما دل عليه من صفة العزة.

١٥ ـ إثبات اسم الغفور له سبحانه وما دل عليه من صفة المغفرة.

١٦ ـ أن مغفرته سبحانه عن عزة لا عن عجز وذلة، ففيها شاهد لقوله ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

* * *

۞ ثم ذكر صفة أخرى من صفات ربوبيته وشؤون ملكه، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

التفسير:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿طِبَاقًا﴾ صفة لسماوات، جمع (طبَق) كجَبَل وجبال، أي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، ولا يعلم سعتها إلا الله، وفي الخبر: «بين كل سماء وسماء خمس مئة عام»[(١)].

﴿مَّا تَرَىٰ﴾ الخطاب لغير معين، فهو لكل من يصلح للخطاب ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أيْ اختلاف واضطراب، بل هي ـ أي السماوات ـ في غاية القوة والإحكام. و﴿مِن﴾ لتأكيد النفي، ونفي الرؤية يراد به نفي التفاوت أصلًا، فالمعنى ما ترى في خلق الرحمٰن

---

(١) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (٢٦)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١٠٥)، والطبراني في الكبير (٩/٢٢٨) (٨٩٨٧)، عن ابن مسعود موقوفًا، وصحح إسناده الذهبي في العلو (٦٤)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٥٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٨٦): «رجاله رجال الصحيح».

تفاوتًا؛ لأنه لا تفاوت فيه أصلًا، على حد قول عمرو بن أحمر:

.... **ولا ترى الضبَّ بها يَنجحرْ**[(١)]

أي لا يُرى بها ضبّ أصلًا.

وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أصلها: ما ترى فيهن، فوضع الاسم الظاهر موضع الضمير تعظيمًا لخلق السماوات، وتنبيهًا على سبب سلامتهن، وهو أنها خلق الرحمٰن.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أيْ انظر مرة أخرى ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أيْ لا ترى فيهن فطورًا، أي شقوقًا وصدوعًا، جمع (فَطْر) كفَلْس وفلوس، فهي كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [قَ].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أيْ مرتين، والمراد بالتثنية التكثير، كقولهم: لبيك وسعديك، كأنه يقول: رُد بصرك المرة بعد المرة فلن تجد فيها عيبًا، ﴿يَنقَلِبْ﴾ جواب الطلب ﴿ٱرْجِعِ﴾ ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أيْ ذليلًا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل منقطع عمّا يطلبه من العيب في السماء، بل لا يجد فيها إلا القوة والجمال.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات صفة الخلق لله ﷻ.

٢ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله ﷻ.

٣ ـ أن الله جل وعلا خالق السماوات.

---

(١) ديوانه (٦٧) وصدره: لا تُفْزِعُ الأرنبَ أهوالُها.

٤ ـ أن السماوات محدثة وليست قديمة كما تقول الفلاسفة.

٥ ـ أن عدد السماوات سبع.

٦ ـ أنها طباق؛ بعضها فوق بعض، وقد دلت السنَّة على أنها منفصل بعضها عن بعض، خلافًا لما يدعيه قدماء الفلاسفة ومَن وافقهم من أنها متلاصقة، ومن الأدلة في ذلك حديث المعراج، وفيه أن جبريل عليه السلام كان يستفتح عند كل سماء[1]، وتقدم قول ابن مسعود: «بين كل سماء وسماء خمس مئة»[2].

٧ ـ إحكام خلق السماوات، كما يدل عليه نفي التفاوت عنها.

٨ ـ أن خلق السماوات متناسب في الحسن والإحكام، فلا عيب ولا اختلاف.

٩ ـ أن السماء ليس فيها شقوق ولا صدوع، وذلك لكمال إحكامها، فأما صعود الملائكة فيها ونزولهم منها فمن أبواب جعلها الله لذلك كيف شاء، ولا نعلم كيفيتها ولا عددها.

١٠ ـ الإرشاد إلى النظر بالبصر إلى السماء، بل تكرار ذلك للتفكر في زينتها وخلقها المحكم، وقد جاء الحث على النظر في السماء في غير آية: كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

(١) رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٢) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

١١ ـ أنه مهما تردد البصر ناظرًا إلى السماء ليجد عيبًا فلن يجد، بل يعود ذليلًا كليلًا.

١٢ ـ إثبات اسم الرحمٰن وصفة الرحمة لله ﷻ.

١٣ ـ أن خلق السماوات بما فيها من شمس وقمر ونجوم من آثار رحمته سبحانه.

١٤ ـ الرد على الجبرية، وذلك لأن الله أمر العبد بالنظر بعد النظر، فأثبت للعبد فعلًا وأن له مشيئة في أفعاله.

❁ ❁ ❁

۞ وبعد أن أخبر تعالى عن خلق السماوات السبع وإحكامها أخبر عن السماء الدنيا وأنه زينها بمصابيح فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

التفسير:

﴿وَلَقَدْ﴾ اللام موطئة للقسم و(قد) للتوكيد ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ التي تليكم ويراها الناس، وهي السماء الأولى من السماوات السبع، و﴿ٱلدُّنْيَا﴾ وصف من الدنو، وهو القرب، مؤنث الأدنى.

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمع مصباح، وهو ما يستضاء به، والمراد بها النجوم المضيئة، ونكّر (مصابيح) تفخيمًا لشأنها وتزيينِ السماء بها في ظلام الليل، فضوءها يثقب الظلام، كما قال سبحانه: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي النجوم، ﴿رُجُومًا﴾ جمع رَجْم، وهو في الأصل

مصدر والمراد به المفعول، أي ما يُرجم به الشياطين، أي يرجم بها شياطين الجن الذين يحاولون الدنو من السماء، لاستراق السمع، فيرجمون بشهب من تلك النجوم فتحرقهم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ المراد جنس النجوم، فإن منها ما لا يُرجم به، كما أن منها ما يُهتدى به، ومنها ما لا يهتدى به. وهذا الرجم والإحراق في الدنيا، وأما في الآخرة فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي هيّأنا ﴿لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي عذاب النار المُسعرة، أي الموقدة، يقال: سعر النار ـ كمَنَع ـ وأسعرها إذا ألهبها وأجَّجها، فهي سعير ومُسْعَرة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من حكمة خلق النجوم أنها زينة للسماء الدنيا.

٢ ـ أنها رجوم للشياطين حفظًا للسماء، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾ [فصلت: ١٢]، وقد دلّت آيات أخرى على أن من حكمة خلقها أيضًا: الاهتداء بها، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧]، ويحتمل أن يكون في التعبير عن النجوم بالمصابيح إشارة إلى هذه الحكمة، كما يُهتدى بالمصباح، فتجتمع الحكم الثلاث للنجوم في آية الملك هذه، والله أعلم.

٣ ـ أن النجوم في السماء الدنيا، وهي التي تلي الأرض، وقد

تكون ملتصقة بالسماء، وقد تكون دونها سابحة في الفضاء، وهذا أرجح، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء] أي يدورون.

٤ ـ أن النجوم إنما تكون زينة للسماء الدنيا في الليل، لقوله: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ فالمصباح إنما ينتفع به في الليل.

٥ ـ التنبيه إلى جمال السماء.

٦ ـ إثبات وجود الشياطين، والمراد بهم شياطين الجن الذين يسترقون السمع من السماء.

٧ ـ أن الشياطين ذوات قائمة بأنفسها، وليست هي قوى الشر في الإنسان، كما يزعم ذلك بعض الفلاسفة والمتكلمين.

٨ ـ إثبات عذاب النار، وأنه معد للشياطين ومن تبعهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران].

٩ ـ أن الشياطين مكلفون.

١٠ ـ أن النار موجودة الآن، لقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهو إخبار عن الماضي.

١١ ـ الرد على المعتزلة القائلين بأن النار والجنة لم تخلقا.

١٢ ـ التنبيه على عظمة الله؛ لأنه سبحانه ذكر نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة في ثلاث جمل، وهي: ﴿زَيَّنَّا﴾، و﴿جَعَلْنَا﴾، و﴿أَعْتَدْنَا﴾.

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر ما أعد للشياطين من العذاب في الآخرة أتبعه بما أعده للكفار من الجن والإنس فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾.

التفسير:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي جحدوا ربوبيته، وجحدوا حقه، وكذبوا رسله ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي عذاب النار، وسميت بذلك لجهومتها وبعد قعرها ـ نعوذ بالله منها ـ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع الذي يصيرون إليه، و(بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذم، وفاعله ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، أي وبئس المصير هي، أي جهنم.

وتقديم الخبر في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ يفيد القصر، وهو قصر إضافي فائدته تأكيد استحقاق الكفار لعذاب النار، وذلك لاختصاصهم بها من ثلاثة أوجه:

أولها: أن النار مخلوقة من أجلهم ومعدة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ۝١٣١﴾ [آل عمران].

الثاني: أن دخولهم النار حتم، لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [قٓ]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

الثالث: أنهم مخلدون في النار.

أما العصاة من المؤمنين فلم يرد في النصوص أن النار مخلوقة

لهم، وليس دخولهم النار حتمًا، بل هم تحت المشيئة، إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم، وإذا دخلوا النار لم يخلدوا بل يخرجون بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين.

وعلى ذلك فلا يكون في الآية ـ آية الملك هذه ـ حجة للمرجئة ولا للخوارج؛ لأن القصر فيها ليس حقيقيًا، بدليل نصوص الوعيد الواردة في تعذيب عصاة الموحدين.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تهديد الكافرين ووعيدهم بعذاب النار.

٢ ـ إثبات الربوبية العامة لله ﷻ لقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾، فجميع الخلق مربوبون له سبحانه داخلون تحت حكمه ومشيئته وتدبيره، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] وهذه الربوبية من مقتضاها: الملك، والقهر، والإنعام، والرزق.

٣ ـ الإشارة إلى أن النار مخلوقة ومعدة للكافرين، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران].

٤ ـ أن الكفر بالله من أبشع ما يكون من كفر المنعِم.

٥ ـ أن الكفر بالله أعظم أسباب العذاب.

٦ ـ إثبات الأسباب.

٧ ـ الرد على الجبرية الذين أنكروا الأسباب.

٨ ـ أن من أسماء النار جهنم.

٩ ـ أن جهنم أسوأ مصير ومرجع، لقوله ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فعلى العبد أن يأخذ حذره لئلا تكون جهنم مصيره، أجارنا الله من النار.

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر سبحانه أن مصير الكافرين النار ذكر صفتها وحالها عند إلقائهم فيها، فقال: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾ أي إذا ألقي الكفار في جهنم، أي طُرحوا فيها، وهذا أول العذاب، ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي صوتًا فظيعًا منكرًا، وأصل الشهيق في الحيوان والإنسان جذب النَفَس، وضده الزفير، وقد جاء وصف النار به أيضًا في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، ووصف النار بهذه الأوصاف يشعر بتلهف النار وتطلعها إلى الكفار وحنقها عليهم.

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي تغلي غليان القدر بما فيه ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي تتقطع وينفصل بعضها عن بعض، أصله (تتميز) فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي بسبب الغيظ على الكفار، والغيظ: شدة الغضب، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي جماعة من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم الموكلون بالنار جمع خازن، ويسمون الزبانية، فيسألونهم قائلين: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي في الدنيا، والمعنى: قد

جاءكم نذير، فهو استفهام تقرير وتوبيخ، و﴿نَذِيرٌ﴾ أيْ منذر، وهو الرسول الذي ينذركم هذا اليوم ويخوفكم هذا العذاب.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الكفار يدخلون النار بصفة الإلقاء، وهو الطرح، لقوله: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾، وجاء ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ٤٠]، فهم إما أن يلقوا من أول الأمر، وإما أن يقال لهم: ادخلوا، كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢] ثم يلقون فيها إلقاء، والله أعلم.

٢ ـ هوان الكفار وحقارتهم في الآخرة.

٣ ـ شناعة الكفر وسوء عاقبته.

٤ ـ تطلع النار لإلقاء الكفار فيها، وفرحها بذلك، كما يدل عليه قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾، ويشهد له قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾﴾ [قٓ].

٥ ـ شدة عذاب النار، لقوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أجارنا الله منها.

٦ ـ شدة حنق النار على الكفار، لقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾.

٧ ـ وصف النار بالغيظ والشهيق، وقد قيل: إن هذا حقيقة، وقيل: إنه مجاز عن شدة عذابها وفظاعتها، ولا مانع من إرادة الحقيقة، والله قادر على أن يجعل في الجمادات إدراكات تناسبها، كما ينطقها.

٨ ـ أن الكفار يدخلون النار أفواجًا وزمرًا، كلٌّ مع شكله، لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ ففيها شاهد لقوله سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: ٧١].

٩ ـ أن للنار خزنة: وهم الملائكة الموكلون بها وبتعذيب أهلها.

١٠ ـ استشهاد الكفار على أنفسهم في النار، لقوله: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾.

١١ ـ توبيخ الكفار وتقريعهم على كفرهم الذي أفضى بهم إلى العذاب الأليم.

١٢ ـ أن الحجة قد قامت على كل من يدخل النار.

١٣ ـ أنه لا عقاب قبل البعثة، لقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

❁ ❁ ❁

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

التفسير:

﴿قَالُواْ﴾ أي الكفار في النار ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب يقع بعد استفهام مسبوق بنفي فيدل على الإقرار بالمنفي، وقد صرحوا بذلك

في قولهم: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ انظر كيف جمعوا في الجواب بين الإجمال والتفصيل مما يدل على مزيد تحسرهم وندامتهم.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ النذير، وهو الرسول ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي من كتاب ولا غيره، وهذا كما قال الله عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم أيها الرسل ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي بُعد عظيم عن الحق، فرموا الرسل بما هم واقعون فيه دون الرسل، على حد المثل: رمتني بدائها وانسلت، وهذه سنَّة أهل الباطل يرمون أهل الحق بما هم أولى به.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي على جهة التوبيخ لأنفسهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي سماع تدبر وقبول وسماع من يطلب الحق، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عقل رشد وحسن تصرف ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي النار، فجمعوا بين نفي السمع والعقل عن أنفسهم معترفين بذلك نادمين، ولهذا قال: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي كفرهم وتكذيبهم للرسل، وهذا الاعتراف لا ينفعهم في ذلك الوقت، ولهذا قال: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي بعدًا لهم عن رحمة الله، و(سحقًا) منصوب على المصدر لفعل محذوف، وهذا من كلمات الدعاء والذم، ومثله جَدْعًا وعَقْرًا وتبًّا، وضده رَعْيًا وسَقْيًا، واللام في قوله: ﴿لِّأَصْحَٰبِ﴾ مؤكدة لبيان المراد بالمدعو عليهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أهل النار يسمعون ويتكلمون ويدركون، فهم سمعوا سؤال الخزنة ثم أجابوهم بـ ﴿بَلَىٰ﴾ وقال الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ

فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر]، وقال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ويتلاومون ويلعن بعضهم بعضًا، ولكن ليس هذا شأنهم دائمًا بل في حال وفي حال أخرى هم بخلاف ذلك، فلا يسمعون ولا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء]، فأهل النار لهم فيها أحوال وشؤون، نسأل الله السلامة.

٢ ـ أن نار الآخرة تخالف نار الدنيا، فنار الدنيا من دخلها تعطّل إدراكه وفقد إحساسه، أما نار الآخرة فيتكلم أهلها ـ في بعض أحوالهم ـ ويسمعون ويدركون ليحصل منهم التلاوم والندم والاعتراف بالكفر وتمني الرجعة، وليسمعوا التقريع والتوبيخ.

٣ ـ اعتراف الكفار يوم القيامة بتكذيبهم للرسل وتنقصهم إياهم وجحدهم لما جاءوا به.

٤ ـ سوء عاقبة تكذيب الرسل.

٥ ـ ندامة الكفار يوم القيامة وتحسرهم العظيم.

٦ ـ اعترافهم بالإعراض عن الحجج السمعية والعقلية وأنه الذي أوجب لهم هذا المصير.

٧ ـ أن الأدلة نوعان: سمعية، وعقلية، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾.

٨ ـ تقديم الأدلة السمعية على العقلية، ويؤخذ من تقديم السمع على العقل في الآية، ففيها:

٩ ـ الرد على من قدم العقل على السمع، كالمعتزلة ونحوهم.

١٠ ـ انتفاء عقل الرشد وحسن التصرف عن الكفار، فليس موجودًا عندهم، أما الذي عندهم فهو عقل الإدراك ـ عقل الأشياء وفهمها، أي القوة المدركة ـ الذي هو مناط التكليف، ويقابله الجنون، فبهذا العقل ـ عقل الإدراك ـ كُلِّفوا وقامت عليهم الحجة، لكنهم لم يستخدموا هذا العقل فيما ينفعهم، فلهذا لم يكن عندهم عقل الرشد وحسن التصرف.

١١ ـ أن الانقياد لحجج الله يعصم من العذاب، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

١٢ ـ أن الكفار هم أصحاب النار، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران]، والظاهر أن عصاة المؤمنين لا يقال عنهم إنهم من أصحاب النار، لما تقدم من أنهم تحت المشيئة؛ وأن دخولهم النار ليس حتمًا، وأنهم إن دخلوها فلا يخلدون.

١٣ ـ الرد على الجبرية لقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾.

١٤ ـ الدعاء من الله عليهم بالبعد.

١٥ ـ اشتمال النار على ألوان العذاب الجسدي والنفسي، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها بمنّه.

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر سبحانه الكفار وما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم، أتبعه بذكر المؤمنين وما أعد لهم من الثواب العظيم، وذكرهم بأخص صفاتهم وهو خشية ربهم بالغيب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

التفسير:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ تصدير الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾ لأهميته والعناية بمضمونه، وعُبر بالموصول لتضمن الصلة علة ما سيُذكر في الخبر، وهو قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ أي يخافونه سبحانه، والخشية نوع من الخوف لكن يصاحبها تعظيم للمخوف منه وعلم به، فهي أخص من الخوف.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الواو في ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ أي يخشون ربهم في خلواتهم وهم غائبون عن أعين الناس.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ المغفرة، التجاوز عن الذنب وستره، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ أي ثواب عظيم، وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والنظر إلى وجه الله الكريم.

وتنكير ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ و﴿وَأَجۡرٞ﴾ للتعظيم، وتقديم المغفرة على الأجر من تقديم التخلية على التحلية؛ لأن التجاوز عن الذنوب وسترها يتضمن النجاة من المرهوب وهو النار، والأجر، الذي هو الثواب، يتضمن الفوز بالمطلوب وهو الجنة، فتكون الآية دالة على

معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ونظائر ذلك في القرآن كثير.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ المقابلة بين فريق الكافرين الأشقياء والمؤمنين السعداء وبين جزاءيهما.

٢ ـ أن من منهج القرآن الجمع بين الوعد والوعيد؛ ترغيبًا وترهيبًا.

٣ ـ فضيلة خشية الله تعالى.

٤ ـ أن خشية الله ثمرة العلم والإيمان؛ لأنه جعل أهل الخشية في مقابل الذين كفروا بربهم، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن القيم: «الخوف علامة صحة الإيمان، وترحله من القلب علامة ترحل الإيمان منه»[(١)].

٥ ـ أن الخشية سبب للمغفرة والأجر الكبير.

٦ ـ الرد على نفاة الأسباب من الجبرية.

٧ ـ أن الخشية النافعة هي الخشية بالغيب؛ وهي التي تكون في الدنيا قبل المعاينة واليأس من الحياة.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٥).

٨ ـ فضل الإخلاص لله، والتعريض بالمرائين فإنهم لا يخشون الله وهم غائبون عن عيون المؤمنين.

٩ ـ أن أصل العمل عمل القلب وهو الخشية.

١٠ ـ أن خشية الله قوام أمر العبد في دينه، وجماعُ الخير؛ لأنها الباعث على فعل المأمورات وترك المنهيات.

١١ ـ إثبات الربوبية الخاصة، لقوله: ﴿رَبَّهُم﴾.

١٢ ـ الرد على الاتحادية أهل وحدة الوجود، لقوله: ﴿رَبَّهُم﴾ فهنا إثبات رب ومربوب، فالأول خالق والثاني مخلوق، وذلك يدل على التباين بينهما.

١٣ ـ أن ثواب أهل الإيمان والخشية النجاة من العذاب، وهو الحاصل بالمغفرة، والفوزُ بالأجر الكبير، وهو الجنة، وهذا ما أمر الله به عباده أن يسارعوا إليه بقوله سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

١٤ ـ التنبيه على أن خوفهم وإن بلغ مرتبة الكمال فإنه لا يخلو عن تقصير وذنب؛ فلا يغتر العبد.

١٥ ـ الرد على الجبرية؛ لأنهم لو كانوا مجبرين ما وعدهم بالجزاء على أعمالهم والمغفرة لذنوبهم.

١٦ ـ فيها الدليل على تسمية ثواب أهل الإيمان والعمل الصالح أجرًا، وهو في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾ [فصلت]، ولا يلزم من ذلك أن يكون عوضًا كأجر الأجير؛ لأن العمل الصالح وثوابه كله فضل

من الله، ثم إنه لا نسبة بين الثواب والعمل، فالعمل يسير والأجر كبير.

❁ ❁ ❁

❁ **ولما ذكر الله سبحانه شأن الكافرين والمؤمنين خاطب جميع المكلفين من خلقه، فقال** ﷻ: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ﴾ أي أخفوه ﴿أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي أعلنوه، خيرًا كان أو شرًا فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه، فصيغة الأمر مستعملة في التسوية، أي إن السر والجهر سواء عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وتقديم الإسرار على الجهر لأنه مظنة الخفاء، فإذا كان لا يخفى عليه تعالى فالجهر أولى، وهما في علمه سواء، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الرب جل وعلا ﴿عَلِيمٌۢ﴾ أي بالغ العلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي صاحبة الصدور، وهي القلوب، أي إنه سبحانه عليم بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى عليه شيء من أسرارها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسباب خشية الله الإيمان بعلم الله، ويؤخذ هذا من إتباع الآية السابقة بهذه الآية.

٢ ـ علم الله بخفايا الصدور؛ من الاعتقاد، والنيات، والأحوال، والأعمال.

٣ ـ علم الله بالسر والجهر في الأقوال، بل وسماعه لها، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف]، وقال ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الأنبياء]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه]، وقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يسٓ].

٤ ـ استواء السر والجهر في علم الله تعالى.

٥ ـ إثبات عموم علم الله تعالى بالكليات والجزئيات.

٦ ـ الرد على الفلاسفة الذين أنكروا علم الله بالجزئيات.

٧ ـ الرد على القدرية القائلين بأن الله لا يعلم الأمر إلا بعد وقوعه.

٨ ـ تحدي البشر بأن كل ما يضمرونه معلوم لله تعالى، فلا تخفى عليه خافية.

٩ ـ التذكير بالجزاء على الأقوال بذكر علم الله ﷻ.

١٠ ـ الإشارة إلى إصلاح الباطن، وقد قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»(١).

(١) رواه البخاري (٥٢، ١٩٤٦)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

١١ ـ إثبات أفعال العباد وأن لهم مشيئة، لقوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾.

١٢ ـ الرد على الجبرية.

* * *

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

هذا فيه الدليل العقلي على علمه تعالى بالسر والجهر، وهو أنه تعالى خالق العباد، وخلقُه لهم يستلزم علمه بهم قبل خلقهم وبعده.

التفسير:

قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾ ضمير يعود إلى الباري سبحانه، و﴿مَنْ﴾ مفعول به، اختار هذا الإعراب أبو حيان[(١)] وجماعة من المحققين، كما يقول السمين الحلبي[(٢)].

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَا﴾ للإنكار، أي إنكار عدم العلم، والمعنى: كيف لا يعلم الله خلقه وأحوالهم وسرهم وجهرهم؟ ﴿وَهُوَ﴾ أي والحال أنه ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن وما لطف ودق من كل شيء، والبَرُّ بعباده؛ الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من حيث لا يعلمون، فتضمن اللطيف معنى الخبير ومعنى الرؤوف.

و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم ببواطن الأمور، والخُبْر أخص من العلم، قال أبو هلال: «الفرق بين العلم والخُبر أن الخُبر هو العلم بكنه

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٠٠).

(٢) الدر المصون (١٠/ ٣٨٧).

المعلومات على حقائقها، ففيه معنى زائد على العلم»[١].

الفوائد:

١ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى، وهي من الصفات الذاتية.

٢ ـ إثبات صفة الخلق له سبحانه، وهي صفة ذاتية فعلية.

٣ ـ أن الخلق يدل على العلم؛ لأن خلق الشيء يستلزم العلم به، ولا خلق إلا بعلم، وهذا من الاستدلال بالملزوم (الخلق) على اللازم (العلم).

٤ ـ الرد على الفلاسفة الذين أنكروا علم الله بالجزئيات.

٥ ـ اعتبار الأدلة العقلية.

٦ ـ خلق الله لأفعال العباد، ففيها:

٧ ـ الرد على القدرية.

٨ ـ إثبات صفة الحياة لله، والقدرة، والإرادة؛ لأنه لا يخلق إلا الحي القادر المريد.

٩ ـ إثبات اسم اللطيف لله تعالى، وما دل عليه من الصفة، وما يترتب عليه من لطفه بعباده وإحسانه إليهم.

١٠ ـ إثبات اسم الخبير لله ﷻ، وما دل عليه من الصفة، وما يترتب عليه من علمه بخفايا أحوال الخلق.

❁ ❁ ❁

(١) الفروق (٧٤).

۞ ولما ذكر سبحانه أنه اللطيف الخبير ذكر شيئًا من أنواع لطفه بعباده، وهو جعله الأرض ذلولًا ومجالًا يتقلبون في جوانبها، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

۞ التفسير:

﴿هُوَ﴾ أي الله ﷻ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ أي صيَّر ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي سهلة منقادة، من الذِّل ـ بكسر الذال ـ وهو اللين، فذلول فَعُول بمعنى مفعول، أي مذللة، ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ الفاء للتفريع، فهي لتفريع الأمر على الجعل المذكور، فما قبلها علة لما بعدها، أي امشوا فإن الله قد ذللها لكم، والأمر للإباحة والامتنان، ومناكبها: نواحيها، جمع مَنْكِب وِزانُ: مَجْلِس.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ الأمر للإباحة والامتنان، وعبر بالأكل لأنه أهم وجوه الانتفاع، و﴿مِن﴾ للتبعيض، والرزق: كل ما يُنتفع به، وإضافة الرزق إلى الله من إضافة المخلوق إلى خالقه، والمملوك إلى مالكه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي البعث والمعاد، وهو مصدر (نشَر)، من باب قعد، إذا حيي بعد الموت، وضُمن معنى الرجوع، ولذلك عُدي بـ (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وتقديم الجار والمجرور (إليه) رعاية للفواصل، ولإرادة

القصر، أي النشور إلى الله وحده لا إلى غيره، ومناسبة ذكر النشور: هو ذكر خلق الأرض والحياة عليها، وفي ذلك التذكير بالموت والعود في الأرض، ثم يكون البعث منها، والله أعلم.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ الامتنان من الله بتسخير الأرض مركبًا وانتفاعًا، كما سماها في آيات أخر: بساطًا، وفراشًا، ومهادًا، وقرارًا.

٢ ـ ومن تذليلها جعلها لينة طيعة قابلة للحرث، وحفر الآبار وإجراء العيون، وفتح المسالك والطرق، ودفن الأموات فيها وفضلات البشر.

٣ ـ الإذن بالسير في الأرض في نواحيها؛ سهلها وجبلها تحصيلًا للمنافع.

٤ ـ الأخذ بالأسباب في تحصيل الرزق.

٥ ـ الأمر بالكسب وتحصيل الرزق وألا يكون الإنسان عالة على غيره.

٦ ـ أن السير في الأرض من أعظم أسباب تحصيل الرزق.

٧ ـ أن ما في الأرض من الثمار هو من رزق الله الذي خلقه لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٨ ـ الإشارة إلى توحيد الربوبية.

٩ ـ أن الحياة على هذه الأرض مؤقتة إلى أجل مسمى، فهي منقطعة، وجه ذلك أن الله قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ بعد الأمر بالمشي في الأرض والأكل من الرزق.

١٠ ـ التذكير بالمنتهى وهو البعث والنشور بعد الموت.

١١ ـ إثبات البعث والمعاد.

١٢ ـ الإرشاد إلى الاستعانة برزق الله على ما به النجاة في يوم النشور، وهو عبادته سبحانه وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسله صلى الله عليهم وسلم.

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر سبحانه أنه ذلل الأرض وجعلها طيّعة للناس في مسالكها واستخراج خيراتها خاطب الكفار موبّخًا لهم ومهددًا بأن يخسف بهم الأرض ويرسل عليهم حاصبًا من السماء، فقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتهديد، أي هل أمنتم أيها الكفار المكذبون ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله ﷻ، والسماء بمعنى العلو، و﴿فِى﴾ على بابها، ويحتمل أن المراد جنس السماوات، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي يغيبكم فيها كما فعل بقارون؛ بسبب كفركم، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ أي الأرض حين الخسف، والفاء تفريع على الخسف، ﴿تَمُورُ﴾ أي تضطرب اضطرابًا شديدًا بكم حتى تهلكوا.

وقوله: ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ مصدر مؤول في محل نصب بدل اشتمال من ﴿مَّن﴾ أي أأمنتم خسفه الأرض بكم.

﴿أَمْ أَمِنتُم﴾ ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة المتضمنة معنى (بل) و(الهمزة)، فهي للإضراب والانتقال من التهديد بالخسف إلى التهديد بإرسال حاصب ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهي الريح الشديدة التي تحمل الحجارة فتحصبهم بها كما وقع لعاد[1]، أو يمطَروا حجارة من السماء كما وقع لقوم لوط[2]، وتنكير (حاصب) للتعظيم والتهويل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أيها الكفار عن قريب ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري، فنذير مصدر بمعنى الإنذار، مثل النكير بمعنى الإنكار، وحذفت الياء للفواصل، والمعنى: ستعلمون كيف يكون إنذاري فظاعة وشدة إذا عاينتم العذاب، ولا ينفعكم العلم حينئذ، فقد فات أوان التذكر والإيمان.

وقدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب؛ لأن الخسف من أحوال الأرض وقد مر الامتنان بها قريبًا.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات العلو لله تعالى.

٢ ـ أن علو الله على خلقه مركوز في الفطر، وأن المشركين يعلمون أن الله في السماء.

---

(١) قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠] وهم عاد.

(٢) قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر].

٣ ـ أن من أنواع العذاب خسف الأرض، وإرسال الريح الحاصبة.

٤ ـ التذكير بمور الأرض في مقابل الامتنان بتذليلها.

٥ ـ أن من أسباب الإصرار على الكفر والمعاصي الأمن من عذاب الله، ففيه:

٦ ـ تحريم الأمن من عذاب الله.

٧ ـ الإشارة إلى أن من نعم الله استقرار الأرض، وأن اضطرابها من أنواع العقاب.

٨ ـ أن ما يحدث من خسف وإعصار ورياح حاصبة فبمشيئة الله وتدبيره، فهو الذي يخسف الأرض ويرسل الحاصب إذا شاء.

٩ ـ علم المكذبين عند نزول العقاب بسوء عاقبة التكذيب بإنذار الله.

❁ ❁ ❁

۞ ولما وبّخ سبحانه الكفار وهددهم ذكر سنّته في المكذبين، وفيه تأكيد لما سبق من التهديد في الآيتين قبل، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨﴾.

التفسير:

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو للاستئناف واللام موطئة للقسم، و(قد) للتوكيد ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل كفار مكة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم من المكذبين الذين حلّت بهم المثلات،

وأخبار هؤلاء معلومة عند العرب، وعدل إلى الغيبة في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ عن الخطاب كما قال في: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ [الملك: ١٦] للإعراض عنهم وتحقيرهم.

﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء للتفريع ﴿كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف كان إنكاري عليهم بإنزال العذاب بهم، والاستفهام للتقرير والتهويل والتعجيب، والمعنى: كان على غاية الهول والفظاعة، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر]، وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط، أي في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾.

وقرأ ورش بإثبات الياء في (نذير) و(نكير) في حال الوصل، ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، وحذفها الجمهور في الحالين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تحذير الكافرين الموجودين وتذكيرهم بما كان من العقوبات لأسلافهم.

٢ ـ أن عقاب الله للمكذبين سنَّة ماضية من سنن الله.

٣ ـ أن عقوبات الله للمكذبين إنكار من الله عليهم، ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

٤ ـ تسلية النبي ﷺ بذكر ما جرى من الأمم الماضية مع أنبيائهم.

٥ ـ التعجيب والتهويل بتلك العقوبات.

٦ ـ إثبات صفة العَجَب لله سبحانه.

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر تعالى ما تقدم من الوعيد ذكر البرهان على كمال قدرته، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ١٩﴾.

التفسير:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ مذهب الجمهور في مثل هذا التركيب أن همزة الاستفهام مقدمة من تأخير، وقد كان موقعها بعد حرف العطف، أي (وألم يروا) لكن قدمت الهمزة لاستحقاق الاستفهام للصدارة، وقيل: لا تقديم ولا تأخير، ولكن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة تقدر بما يناسب المقام[1]، فيقال هنا: أغفلوا ولم يروا، ولا أثر لهذا الاختلاف في المعنى؛ لأن العطف والاستفهام متعلقان بالجملة بعدهما على كلا القولين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي الكفار المكذبون، و﴿يَرَوْا﴾ من (رأى) العلمية وضمن معنى ينظرون، فعدي الفعل بـ (إلى) فيشمل اللفظ المعنيين: الرؤية البصرية والعلمية، أي أولم يروا بأبصارهم ويتفكروا بقلوبهم، والاستفهام للتقرير والتوبيخ، ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ جمع طائر، مثل صحب وصاحب ﴿فَوْقَهُمْ﴾ أي في الجو ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير، أي باسطاتٍ أجنحتهن، جمع صافَّة ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ القبض عكس البسط، أي ويضممنها إلى جنوبهن، ولما كان الغالب في الطير بسطَ الجناح عبَّر

---

(١) وهذا مذهب الزمخشري ذكره في مواضع من الكشاف، وسلك في المفصل مسلك الجمهور، وتفصيل هذا في كتاب دراسات لأسلوب القرآن ق١ ج٢ ص٦١٠ لمحمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله.

بالاسم، فكأنه هو الثابت، وأما القبض فطارئ ولذا عبَّر عنه بالفعل.

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ أي في الجو فلا يسقطن ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ وهذا من آثار رحمته وعجيب قدرته، مع أن الطائر جسم كثيف من شأنه السقوط، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ أي كامل العلم بظواهر الأشياء وبواطنها، والمعنى: أو لم يستدلوا بثبوت الطير في الهواء على مبلغ قدرته تعالى على إنزال العذاب بهم.

❁ الفوائد والأحكام:

١ - توبيخ الكفار على إعراضهم عن النظر في الآيات الكونية.

٢ - أن النظر في الآيات الكونية طريق إلى التفكر فيها.

٣ - أن من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته وربوبيته الطيرَ في السماء صافة أو قابضة، ومثل ذلك طيران الطائرات فكل ذلك بأسباب خلقية وأخرى كسبية، وكلها من الله.

٤ - أنه لا ممسك للطير في السماء إلا الله؛ لأنه الخالق للأسباب التي يقدر بها الطير على الطيران والسبح في الهواء.

٥ - الرد على المعتزلة في زعمهم استقلال الحيوان بفعله عن قدرة الله ومشيئته، لقوله: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾، فما أفعال الحيوان إلا أسباب خلقها الله ولو شاء لسلبها.

٦ - إثبات اسم الرحمٰن والرد على المشركين الذين أنكروه، كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: ٣٠].

٧ ـ إثبات بصره تعالى بالأشياء، وهو العلم بتدبير الأمور بحكمة بالغة.

❁ ❁ ❁

❁ ولما ذكر سبحانه سنَّته في المكذبين وشدة بأسه في أخذه، وذكر بعض الدلائل على كمال قدرته وكمال بصره في تدبير الأمور انتقل إلى خطاب الكفار مهددًا ومنكرًا عليهم أن تكون لهم قوة تمنعهم من بأس الله، وأن يكون لهم سبب يجلبون به ما منعهم الله من رزقه، فقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

التفسير:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا﴾ (أم) هي المنقطعة المقدرة بـ (بل) دون الهمزة وذلك لمجيء (من) الاستفهامية بعدها؛ إذ لا يدخل الاستفهام على مثله، وكتبت في المصحف ﴿أَمَّنْ﴾ بميم واحدة مشددة بعد الهمزة، وهما ميم (أم) وميم (مَنْ)، و(مَنْ) مبتدأ و(هذا) خبره، (الذي ينصركم) بدل من (هذا) والاستفهام معناه التهديد والتبكيت والإنكار، أي بل من هذا الذي في زعمكم ـ أيها الكفار ـ، وفي اسم الإشارة (هذا) تحقير للمشار إليه، ﴿جُندٌ لَّكُمْ﴾ أي عسكر وأعوان، والجند لفظه مفرد ومعناه جمع وقد روعي فيه جانب اللفظ، فقال: ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي من غير الرحمٰن إن أراد بكم سوءًا من الخسف والحصب وغيرهما، أي لا جند لكم

ينصركم، وفي مراعاة اللفظ تنبيه على عدم النصير بالكلية.

ثم انتقل السياق من الخطاب إلى الغيبة؛ تحقيرًا لهم وكشفًا لحالهم، فقال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿إِنِ﴾ نافية، فالمعنى: ما الكافرون إلا في غرور، و(ال) للاستغراق، وفيه إظهار في موضع إضمار لإفادة العموم، ولتعليل وصفهم بالغرور، وذمهم بالكفر.

والغرور: الخداع والضلال، فالكفار قد غرهم الشيطان وخدعهم وغرتهم الحياة الدنيا، وحرف ﴿فِى﴾ يفيد إحاطة الغرور بهم وانغماسهم فيه، لذلك فهم يتوهمون أن لهم قوةً تمنعهم من بأس الله.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ هذا انتقال إلى تبكيت وإنكار آخر ﴿أَمَّنْ هَٰذَا﴾ ﴿أَمَّنْ﴾ أصلها (أم) و(من)، و(أم) هي المنقطعة، أي بل من هذا الذي يرزقكم ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي الله جل وعلا ﴿رِزْقَهُۥ﴾ عنكم بإمساك المطر وسَلْب أسباب القوة، والمعنى: لا رازق لكم غيره، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

ولكنهم لم يذعنوا لهذا الأمر الجلي بل أصروا على كفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي تمادوا وأصروا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي تكبر وطغيان ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي شرود عن الحق والإيمان.

وقوله: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ انتقال من وصفهم بالغرور في اعتمادهم على قوتهم في مقام النصر، إلى وصفهم بالتمادي في العتو والنفور.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أنه لا ناصر من دون الله.

٢ ـ أن ما لدى الكفار من قوة وجند لا يُغني عنهم شيئًا.

٣ ـ تحقير ما يتعلق به الكفار من قوة وأسباب.

٤ ـ أن الاعتماد على الأسباب غرور.

٥ ـ أن الكفار مغرورون بما أوتوا من قوة وأسباب مادية.

٦ ـ إثبات اسم الرحمٰن وما تضمن من صفة الرحمة.

٧ ـ الرد على من أنكره من المشركين.

٨ ـ أنه لا رازق لمن أمسك الله عنه الرزق.

٩ ـ الدلالة على أن الله هو الرازق.

١٠ ـ أن الأسباب لا تجدي شيئًا إلا بمشيئة الله، ومنها أسباب الرزق.

١١ ـ وجوب التوكل على الله في النصر والرزق.

١٢ ـ في الآيتين أن أهم مطالب الخلق في هذه الحياة النصر والرزق، فبالرزق تحصل المنافع، وبالنصر تندفع المضار، ولهذا نفاهما الله عن آلهة المشركين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ [يس]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف].

١٣ ـ وصف الكافرين بالإصرار في حال استكبار وشدة نفور عن الحق مع ما رأوا من الآيات.

١٤ ـ أن من البواعث على الكفر الكبر والإعراض، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

❁ ❁ ❁

❁ ولما وصف الكفار بالغرور والتمادي في العتو والنفور ضرب لهم وللمؤمنين المستقيمين على هدى الله مثلًا يوضح ما بين الفريقين من التباين، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

❁ التفسير:

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة مقدمة من تأخير، وهي للتسوية، والاستفهام فيها للإنكار، والفاء استئنافية، أي فأمَن ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي ساقطًا على وجهه، من أكب إذا سقط، والمعنى: يمشي ووجهه إلى أسفل، لا يدري أين يذهب ولا يأمن العثار والسقوط، أهذا ﴿أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي﴾، ﴿أَمَّن﴾ أصلها (أم) (من)، و(أم) هي المتصلة، ﴿سَوِيًّا﴾ أي معتدلًا رافعًا رأسه يبصر الطريق آمنًا من العثار.

﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي طريق ممهد قويم، وهو كناية عن الإسلام، وقوله: ﴿أَهْدَىٰ﴾ أفعل تفضيل من الهداية على غير بابه؛ لأن الذي يمشي مكبًا لا حظ له من الهدى.

ففي هذا المثل شبه الكافر بالذي يمشي مكبًا على وجهه لا يهتدي في سيره، وشبه المؤمن بالذي يمشي معتدلًا على صراط مستقيم، والاستفهام في الآية للإنكار الذي معناه النفي، والمعنى: ليس الذي يمشي مكبًا على وجهه أهدى من الذي يمشي سويًا على صراط مستقيم، وهذا وإن ضربه الله مثلًا للفريقين في الدنيا فإنهم يكونون كذلك في الآخرة، فالكافر يحشر مكبًا على وجهه إلى النار، والمؤمن يحشر سويًا على صراط مستقيم يفضي به إلى الجنة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تشبيه الكافر في ضلاله بالذي يمشي مكبًا على وجهه.

٢ ـ تشبيه المؤمن في هدايته بالذي يمشي سويًا ـ أي معتدلًا ـ على طريق مستقيم.

٣ ـ أن الكفر والإيمان لا يستويان فضلًا عن الرجحان.

٤ ـ أن الإيمان هدى والكفر ضلال.

٥ ـ أن إيثار الكفر مناقض للعقل.

٦ ـ أن الإيمان بربوبية الله تعالى وأن بيده النصر والرزق هو موجَب العقل.

٧ ـ الإنكار على من يؤثر الضلال على الهدى.

٨ ـ سوء عاقبة الكفر.

٩ ـ إيضاح المعاني بضرب الأمثال.

١٠ ـ إثبات القياس بإلحاق النظير بنظيره، وأن موجَب العقل التفريق بين المختلفات.

۞ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

هذا عود إلى التذكير بربوبيته تعالى ونعمه على عباده وفي ضمن ذلك ذم وتوبيخ للكافرين على كفرهم بنعمه.

التفسير:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي ﴿هُوَ﴾ أي الله جل وعلا ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي أوجدكم بعد العدم، وأنشأكم في الأطوار المختلفة ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا به ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتبصروا بها ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي القلوب، لتعقلوا بها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر منصوب، أي تشكرون شكرًا قليلًا و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة، ولا يجوز أن تكون ﴿مَّا﴾ مصدرية؛ لأنه كان يلزم رفع (قليل) حتى ينعقد منهما مبتدأ وخبر، ولا يجوز أن تكون نافية لتقدم ما في خبرها عليها.

والمعنى: قلما تشكرون ربكم على نعمه، بالإيمان به وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، فإن القلة هنا بمعنى العدم، أي لا تشكرون أصلًا، وهذا معروف في كلامهم، يقولون: هذه الأرض قلَّما تنبت، أي لا تنبت، قال ذو الرُّمة:

أُنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليلٍ بها الأصوات إلا بُغامُها[1]

يعني أنه لا صوت في تلك الفلاة غير بغام راحلته، ومنه قوله سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] أي لا

---

(١) ديوانه (٢/ ١٠٠٤).

يؤمنون أصلًا، وقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، قال قتادة: لاتبعتم الشيطان كلكم[١]، وهكذا قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠] أي لا تشكرون أصلًا، والجملة مستأنفة لبيان عدم شكرهم.

۞ الفوائد والأحكام:

من فوائد تصدير الآية بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾:

١ ـ أن الله سبحانه يتكلم.

٢ ـ أن الله يأمر.

٣ ـ أن الرسول ﷺ مأمور.

٤ ـ أن هذا القرآن كلام الله.

٥ ـ أن الرسول ﷺ مبلغ، وفي ذلك إعلام المخاطبين بأنه لم يأت بهذا الكلام ابتداءً من عنده بل هو مبلغ لكلام مرسِلِه، وهم قوم مربوبون.

٦ ـ وجوب التبليغ.

٧ ـ التنبيه على أهمية مضمون الجملة.

٨ ـ تشريف المأمور بتوجيه الخطاب له.

٩ ـ الرد على الجبرية فإن العبد لو كان مجبرًا لما توجه إليه الأمر.

---

(١) رواه عبد الرزاق في التفسير (١/ ١٦٦)، ومن طريقه ابن جرير (٧/ ٢٦٢) وإسناده صحيح.

١٠ ـ أن من ربوبيته تعالى خلقه للبشرية.

١١ ـ أن خلقه تعالى للبشرية كان بالتدريج شيئًا فشيئًا، كما يفيده لفظ الإنشاء، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح] أي طورًا بعد طور. وتفصيل ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧].

١٢ ـ الأمر بالتذكير بربوبيته تعالى.

١٣ ـ الامتنان من الله على عباده بهذه النعم الثلاث: السمع، والبصر، والفؤاد.

١٤ ـ أن هذه النعم الثلاث أجل النعم العامة فهي أعظم وسائل المعرفة.

١٥ ـ فضل السمع على البصر، وذلك لتقديمه عليه، وقيل: إن البصر أفضل، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن السمع أفضل من وجه، والبصر أفضل من وجه، فالسمع أعم وأشمل والبصر أتم وأكمل(١).

١٦ ـ الدلالة على الارتباط بين هذه النعم الثلاث؛ فالسمع والبصر يؤديان العلوم إلى العقل، والعقل يميز بينها، فلا غنى للعقل عنهما، ولا فائدة فيهما دون العقل.

---

(١) منهاج السنّة (٧/ ٣٢٥)، والرد على المنطقيين (٩٦)، وعنه ابن القيم في بدائع الفوائد (٤/ ١١٠٧) وعزا شيخ الإسلام تفضيل البصر إلى الجمهور وعكسه إلى ابن قتيبة.

١٧ ـ أن جعل هذه النعم للإنسان من أنواع الابتلاء؛ ليتبين من يشكر ومن يكفر.

١٨ ـ أن الكافرين لا يشكرون نعم الله من السمع والبصر والعقل وغيرها.

١٩ ـ التوبيخ على الكفر بنعم الله.

٢٠ ـ أن الشكر محبوب لله؛ لأنه ذم على تركه، وبيَّن أنه أعطى هذه النعم لغاية هي الشكر، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

* * *

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

التفسير:

﴿قُلْ﴾ أعاد الفعل تأكيدًا لمضمون ما يقال ﴿هُوَ﴾ أي الله جل وعلا ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقكم، وبثكم، وكثَّركم بالتناسل، وفي (ذرأ) معنى خلق وكثّر، ولو لم يكونوا كثيرين لفنوا مع الأيام، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي إلى الله تعالى وحده ﴿تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وهي خلْقُهم وكثرتهم ونشرهم في الأرض، كما قال سبحانه: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

٢ ـ التنبيه إلى قدرته على بعثهم وجمعهم.

٣ ـ الإشارة إلى الاستدلال بالخلق على البعث، وجه ذلك أنه قابل الحشر بالذرأ.

٤ ـ إثبات المعاد.

٥ ـ الرد على الفلاسفة في جحدهم لمعاد الأجساد؛ لأن إطلاق الحشر ـ وهو الجمع ـ يقتضي جمع ما تفرق من أجزائهم وما تفرق من أجيالهم.

٦ ـ إثبات الجزاء على الأعمال؛ لأنه الغاية من الحشر.

* * *

۞ ولما ذكر سبحانه أن إليه الحشر والمعاد ذكر مقالة الكافرين والمنكرين لذلك، فقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

التفسير:

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي الموعود به، وهو يوم القيامة، وسؤالهم هذا سؤال تكذيب وتهكم، ولهذا قالوا: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين في الإخبار عن وقوع يوم القيامة فبينوا لنا وقته.

﴿قُلْ﴾ أيها النبي لهؤلاء ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي العلم بوقته تعيينًا لا يعلمه إلا الله ولا يطلع عليه غيره، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي منذر بوقوع هذا الوعيد، والإنذار: هو الإخبار بمخوف،

﴿مُّبِينٌ﴾ أي بيّن النِّذارة، من (أبان) اللازم الذي هو بمعنى (بان)، والمعنى: قل لهم لا علم لي بوقت القيامة، وغاية ما عندي أن أنذركم به، وليس علي إلا البلاغ.

الفوائد والأحكام:

١ ـ استبعاد الكفار للبعث والنشور.

٢ ـ تهكمهم بالنبي ﷺ والمؤمنين بالسؤال عن موعد القيامة.

٣ ـ أن الكفار يحاورون في ذلك النبي ﷺ والمؤمنين، لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ﴾.

٤ ـ الرد على المكذبين بتفويض علم القيامة إلى الله.

٥ ـ أنه لا يعلم متى القيامة إلا الله.

٦ ـ الرد على من زعم أن النبي ﷺ يعلم الغيب.

٧ ـ إثبات البشرية للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٨ ـ أن الرسول ﷺ لا يعلم إلا ما علَّمه ربه.

٩ ـ أن وظيفة الرسول مع المكذبين الإنذار.

١٠ ـ أن من مقاصد الرسالة النذارة.

١١ ـ ظهور الصدق في دعوة الأنبياء؛ لقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾.

* * *

ثم أخبر تعالى عن حال الكفار في يوم القيامة حين يرون العذاب؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

التفسير:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء هي الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جملة محذوفة، أي فقد أتاهم الموعود به فرأوه، فلما رأوه، وضمير المفعول يعود إلى العذاب الذي يتضمنه الوعد، أي فلما رأى الكفار بأبصارهم العذاب الذي وعدوا به، ﴿زُلْفَةً﴾ أي قريبًا منهم، وهو اسم مصدر من زَلِف ـ كتعب ـ أي قرب ودنا، وهذا من التعبير بالمصدر عن اسم الفاعل للمبالغة والتأكيد، كقولهم: رجل عدل ورضا، وهو منصوب على الحال.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ساءَ وجوهَهم العذاب فاسودت وبدت عليها الكآبة والذلة، وخص الوجوه بالذكر؛ لأن الانفعالات النفسية من حزن وكمد وقلق إنما تظهر عليها.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظهار في موضع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل المساءة به، ﴿وَقِيلَ﴾ أي قال لهم الله أو الملائكة توبيخًا لهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي العذاب الذي تشاهدونه هو ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تطلبونه في الدنيا استهزاء، من الدعاء بمعنى الطلب، وعُدي بالباء؛ لأنه ضمن معنى (تستعجلون)، أي تطلبونه وتستعجلون به، ويؤيده قراءة يعقوب (تَدْعون) بتخفيف الدال، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات]. والتعبير بالماضي في ﴿رَأَوْهُ﴾ و﴿سِيٓـَٔتْ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ لتحقق وقوع ذلك، كقوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تأكيد تحقق القيامة وعذاب الكافرين.

٢ ـ تغير وجوه الكفار عند معاينة العذاب قريبًا منهم وذلك باسودادها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

٣ ـ توبيخ الكفار عندما يرون العذاب بأنهم كانوا يستعجلونه ويطلبون مجيئه تكذيبًا به واستهزاء.

٤ ـ أن عذاب الآخرة يشتمل على العذاب النفسي والجسدي، نعوذ بالله منه.

٥ ـ أن سبب السوء والعذاب هو الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

٦ ـ نجاة المؤمنين يوم القيامة، فإنهم بخلاف ذلك، فوجوههم مبيضّة مسفرة، كما فصل الله ذلك في سورة آل عمران وعبس.

۞ ۞ ۞

۞ وبعد أن أخبر تعالى عن سوء مصير الكافرين في الآخرة، أمر الله نبيه أن يخبر مشركي قومه أنه لا مجير لهم من عذاب الله، سواء أهلك الله نبيه ومن معه من المؤمنين، أو رحمهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أي

بالعذاب أو بالموت ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي فلم يعذبنا وأخّر آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم، وهذا جواب الشرط (إن)، والاستفهام إنكاري، أي فلا مجير لهم من العذاب، والمعنى: نحن مع إيماننا خائفون؛ نخاف عذاب الله ونرجو رحمته، فمن يمنعكم من عذابه وأنتم كافرون!

وقوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار، وأصله: فمن يجيركم، ومن فوائد ذلك ذمهم بالكفر، وبيان سبب عدم الإنجاء، وحث لهم على طلب الخلاص بالإيمان.

۞ الفوائد والأحكام:

في تصدير الآية بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ فوائد كثيرة تقدمت.

ومن الفوائد في الآية:

١ ـ أن الرسول ﷺ والمؤمنين أهل لرحمة الله ولا يأمنون عذاب الله، فهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه.

٢ ـ أن حياة المؤمنين رحمة بهم؛ إذ يتزودون من فعل الصالحات.

٣ ـ أن الكفار لا ترجى لهم رحمة، فعذابهم متحتم.

٤ ـ أنه لا عاصم للكفار من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [آل عمران].

٥ ـ أن عذاب الله للكافرين مؤلم شديد الإيلام.

٦ ـ أن عذاب الله عظيم كما يدل عليه التنكير في ﴿عَذَابٍ﴾.

٧ ـ أن الكفر سبب عذاب الله.

٨ ـ تهديد الكافرين بالعذاب.

❁ ❁ ❁

۞ ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر عن ربه بأنه الرحمٰن الذي آمن به هو ومن معه من المؤمنين، وتوكلوا عليه، فهم أهل رحمته، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

۞ التفسير:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي ذو الرحمة الواسعة لجميع الخلائق، والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ [الملك: ٢٨].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبره، و﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ خبر ثان، ويحتمل أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ، و﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ خبره.

﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي لا على غيره، والتوكل: هو الاعتماد على الله في جميع الأمور، وهو من تحقيق توحيد الربوبية، ومن أعظم الأسباب في حصول المطلوب ودفع المرهوب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ التعريض بالكفرة حيث لم

يؤمنوا بالله، وتوكلوا على غيره، ولهذا قال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الفاء للتفريع أو الفصيحة، أَيْ إذا كنا آمنا به ولم تؤمنوا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أي عن قريب ﴿مَنْ هُوَ﴾ أنحن أم أنتم ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي بيّن، والمعنى: فستعلمون من الضال منا؛ نحن أم أنتم، ومن المهتدي، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة، وهذا من الكلام المنصف المسكت للخصم المشاغب(١).

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات اسم الرحمٰن وصفة الرحمة لله ﷻ.

٢ ـ الرد على المشركين الذين أنكروا هذا الاسم، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

٣ ـ إظهار الإيمان ومواجهة الكفار به، لقوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾،

---

(١) الكلام المنصف، أو المنصف من الكلام، لم يذكره من البلاغيين سوى السكاكي في المفتاح (١١٨)، ولم يعرِّفه، وعرَّفه شيخنا أبو عبد الله عبد الرحمٰن البراك فقال: «هو ما يتضمن التنزل مع الخصم بعدم تعيين المحق من المبطل لظهور الأمر، حملًا له على الإقرار» قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا من الإنصاف في الخطاب الذي كل من يسمعه من ولي أو عدو قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، كما قال العادل الذي ظهر عدله للظالم الذي ظهر ظلمه: الظالم إما أنا، وإما أنت لا للشك في الأمر الظاهر، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم، وهو أنت لا أنا». ا.هـ. من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/ ١٥٥).

وهذا كقوله سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].

٤ ـ أن من صفات المؤمنين التوكل على الله.

٥ ـ أن التوكل من ثمرات الإيمان.

٦ ـ الجمع بين الإيمان المتضمن لعبادة الله والتوكل، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

٧ ـ أن الإيمان والتوكل سبب لرحمة الله والوقاية من عذابه، لقوله: ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ [الملك: ٢٨].

٨ ـ تهديد الكافرين بانكشاف الحقائق عند النصر ويوم القيامة.

٩ ـ أن الكفار في دينهم في ضلال بيِّن.

١٠ ـ الدلالة على تفاوت الضلال، لقوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

١١ ـ التنزل مع الكفار في مجادلتهم؛ بعدم القطع بضلالهم، وعدم مواجهتهم بالحكم مع التعريض بذلك، لقوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

* * *

۞ ثم خُتمت السورة بإثبات كمال قدرته تعالى وعجز الخلق كما بدئت بذكر القدرة، فقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ۝٣٠﴾.

التفسير:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي أخبروني ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ أي غائرًا في

جوف الأرض بحيث لا تصلون إليه ولا تناله أسبابكم؛ فلا تستطيعون إخراجه، والإخبار بالمصدر للمبالغة، والأصل: غائرًا، من غار يغور، وأضاف الماء إليهم؛ لأنه عمدة معايشهم، وإنما يتضررون بغور الماء الخاص بهم.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي جارٍ ظاهر على وجه الأرض، من مَعَن الماءُ إذا جرى وتسلسل، فمعين فعيل بمعنى فاعل، والاستفهام للإنكار والنفي، أي لا يأتيكم به إلا الله، فهو القادر وحده سبحانه، فكيف تكفرون نعمه، وتشركون معه غيره في عبادته، وتنكرون بعثكم بعد موتكم؟!

۞ الفوائد والأحكام:

تقدمت الفوائد في ﴿قُلْ﴾، وفي الآية من الفوائد:

١ ـ أن الله هو المالك لمادة رزق العباد (الماء)، فهو الذي ينشىء السحاب، ويسوقه، وينزل الغيث حيث شاء، وهو الذي يخزنه في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون].

٢ ـ أن غور الماء بقدرة الله ومشيئته، وعودته بقدرته ومشيئته.

٣ ـ عجز العباد عن جلب الماء من باطن الأرض إذا ذهب الله به، مهما كان لديهم من الأسباب.

٤ ـ التأكيد على فقر العباد إلى الله في رزقهم وأسبابه، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]، وقوله ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ﴾ [فاطر: ٢].

٥ ـ الاحتجاج على الكفار بما يقرون به من ربوبيته تعالى.

٦ ـ إقرار الكفار بتوحيد الربوبية؛ لأن قوله: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾ تقرير، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٧ ـ الدلالة على اعتبار الدليل العقلي واشتمال القرآن عليه.

٨ ـ التناسب بين آخر السورة وأولها، وهذا من وجوه الإعجاز.

سورة القلم

قال الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

التفسير:

﴿نٓ﴾ اسم حرف من الحروف الهجائية، ليس له معنى في ذاته، كغيره من حروف الهجاء، ولكن اختلف فيه وفي أمثاله من فواتح السور، وتعرف بالحروف المقطعة، مثل: ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ ونحوها، ومن أحسن ما قيل فيها أنها إشارة إلى إعجاز القرآن، فإنه مؤلف من هذه الحروف التي يعرفونها ويتألف منها كلامهم، ومع ذلك لا يقدرون على أن يأتوا بسورة من مثله، وهم أئمة البيان وأمراء البلاغة.

﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الواو حرف قسم، و﴿ٱلْقَلَمِ﴾ مقسم به، وهو الآلة، وهو هنا اسم جنس فيشمل كل قلم يكتب به في السماء والأرض، وأفضل الأقلام القلم الذي كُتبت به المقادير، والقلم الذي يكتب به الوحي.

ويحتمل أن يكون المراد بالقلم الكتابة نفسها، فيكون من التعبير بالآلة عن الفعل، ومنه ما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في علامات الساعة، وذكر منها: «ظهور القلم»[1] أي الكتابة.

ولا مانع من حمل اللفظ على المعنيين، فيكون قسمًا بالقلم وبالكتابة.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو حرف عطف أو قسم، و﴿وَمَا﴾ اسم موصول، أي والذي يسطرون، أي يكتبونه، ويرجّح أن (ما) موصولة لا مصدرية تفسير القلم بالكتابة، فإنه يلزم من كونها مصدريةً تكرارٌ. والواو في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ يعود إلى مفهوم من القلم، وهم الكتبة.

فصار المقسم به ثلاثة أشياء: القلم والكتابة والمكتوب، وهذا قسم عظيم، فأما المقسم عليه فقوله سبحانه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

﴿مَآ أَنتَ﴾ الخطاب خاص بالنبي ﷺ ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي بسبب إنعام الله عليك بالنبوة والرسالة والوحي، وهذه أعظم نعمة، ﴿بِمَجْنُونٍ﴾، أي لست كذلك كما يقول الكفار، والباء لتأكيد النفي. وقد حكى الله عن الكفار أنهم يصفونه ﷺ بالجنون، كما جاء في هذه السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ [القلم]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر].

(١) رواه أحمد (٦/ ٤١٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٤٧).

وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الجار والمجرور متعلقان بالنفي المفهوم من (ما)، والمعنى: انتفى عنك الجنون بسبب نعمة ربك.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ الواو حرف عطف، ﴿لَأَجْرًا﴾ أي ثوابًا عظيمًا عند الله على ما بلّغت من رسالة الله، وما صبرت على أذى قومك البالغ. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع بل هو دائم مستمر، فلم يقتصر على نفي الجنون عنه، بل منحه أفضل جزاء وبشّره بأحسن بشارة، ثم أثنى عليه بأكرم الصفات، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا نهاية الكمال الإنساني، وما بلغ النبي ﷺ هذا المبلغ من الخلق العظيم إلا لتخلقه بالقرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلقه عليه الصلاة والسلام، فقالت: «كان خلقه القرآن»[١]، وقد أخبر ﷺ أنه جاء داعيًا للأخلاق الكريمة، فقال عليه الصلاة والسلام: (**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**)[٢].

وإذا كان المقسم به ثلاثة أشياء، فإن جواب القسم وهو المقسم عليه ثلاثة أيضًا، وهي: نفي الجنون عنه، وثبوت الأجر له، وكونه كامل الخلق ﷺ، وتقديم نفي الجنون عنه عليه الصلاة والسلام من باب التخلية قبل التحلية.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إعجاز القرآن، فإنه مكوَّن من جنس الحروف التي يتألف

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٤/ ٥١٣) (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٠٧) والسلسلة الصحيحة (٤٥).

منها سائر الكلام، وقد عجز العرب أن يأتوا بسورة مثله.

٢ ـ إقسام الله بما شاء من المخلوقات، حيث أقسم هنا بالقلم وبالكتابة والمكتوب، وأما العباد فلا يجوز لهم القسم إلا بالله، قال ﷺ: **(من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)**(١).

٣ ـ الدلالة على شرف القلم والكتابة، وأن الكتابة من أعظم نعم الله وآياته؛ لما بها من حفظ الدين وضبط العلوم، ولكونها من وسائل التفاهم بين البشر، وقد قيل: القلم أحد اللسانين.

٤ ـ تنزيه الرسول ﷺ عمّا رماه به المشركون من الجنون.

٥ ـ الرد على المشركين في رميهم له عليه الصلاة والسلام بالجنون.

٦ ـ تسلية الله لنبيه وتثبيته له ﷺ.

٧ ـ الامتنان من الله على نبيه بما أنعم عليه من النبوة والرسالة التي عصمه الله بها من الجنون الذي نعته به الكفار.

٨ ـ إثبات الربوبية الخاصة، لقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾.

٩ ـ بشارة النبي ﷺ بالأجر العظيم الذي لا انقطاع له، لقوله: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

١٠ ـ ثناء الله على نبيه بالخلق العظيم.

١١ ـ تمكن النبي ﷺ من الأخلاق الكريمة، لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٣٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

١٢ ـ أن الأخلاق الحسنة لا تجامع الجنون، وكلما كان الإنسان أحسن أخلاقًا كان أبعد عن الجنون.

١٣ ـ أن جماع الأخلاق الفاضلة في الاستقامة على دين الله والتزام شرعه، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قال: «دين عظيم»[1].

❁ ❁ ❁

❁ **ثم قال تعالى:** ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن محذوف، والتقدير: إذا كان الأمر ما ذُكر: من تنزيهك عن الجنون، ووعدك بالثواب، والشهادة لك بالخلق العظيم، وثبوت كذبهم عليك؛ ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ أي فستعلم أيها النبي قريبًا ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ أي الكفار المكذبون المفترون القائلون فيك مقالة السوء، سيعلم الجميع عاقبة الأمر، بظهورك عليهم وانتشار الإسلام، وذلك في الدنيا، وأما في الآخرة فبتميز الحق من الباطل، فحينئذ ستبصرون جميعًا ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي الفتنة، والمراد الجنون، فهو اسم مفعول يراد به المصدر، كقولهم: الميسور والمعقول بمعنى اليسر والعقل، ومن قولهم: خذ من ميسوره ودع معسوره.

---

(١) رواه ابن جرير (٢٣/ ١٥٠)، وإسناده صحيح.

قال الراعي النميري:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحمًا ولا لفؤاده معقولا[(١)]

أي عقلًا.

والباء للظرفية في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي في أيكم الجنون، أهو في المهتدي الراشد ذي الخلق العظيم أم في المكذبين الأفاكين؟! وهذا تنزُّل في الخطاب، وإلا فَهُم أهل الخبال والسفه! فهي كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر].

وعلى هذا فقوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقدم، وهي في محل نصب مفعول: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، والإبصار مضمن معنى العلم، فإن من أبصر العواقب علم المحق من المبطل.

ولما كان ما سبق متضمنًا الوعد للنبي ﷺ والوعيد للمكذبين، أعقبه بالتعليل المنبئ أن هذا الحكم صادر عن كمال العلم بأحوال العباد، مع التنويه بربوبيته تعالى لعبده ورسوله، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي بهدى الله، وهم المؤمنون المستجيبون لدعوة الرسول ﷺ، وذكر العلم ينبئ بحكمة الله في وضعه العقاب والثواب موضعهما.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ البشارة والتسلية للنبي ﷺ.

---

(١) ديوان الراعي (٢٣٦)، وفي شرح المفصل لابن يعيش (٦/ ٥٢)، أن مجيء المصدر على وزن اسم المفعول جائز عند الجمهور خلافًا لسيبويه.

٢ ـ الوعيد والتهديد للمكذبين.

٣ ـ أن المكذبين الطاعنين في النبي ﷺ هم أولى بما وصفوا به النبي ﷺ من الجنون.

٤ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن وصدق أخباره الغيبية؛ حيث أبصر الجميع ظهور النبي ﷺ على أعدائه، وانتشار دينه وعلو سلطانه وارتفاع ذكره في العالمين.

٥ ـ إبهام الحكم والعاقبة على طريقة التنزل مع المخالف، وذلك في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٧ ـ كمال علمه سبحانه بأحوال عباده.

٨ ـ الرد على الجبرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ فأسند الضلال إلى العبد.

٩ ـ أن الناس فريقان: مهتد وضال، وجاء ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥].

١٠ ـ أن الحكم بالهدى والضلال إلى الله تعالى.

١١ ـ إثبات الجزاء الأخروي؛ لأن من لازم العلم ـ ومن الحكمة أيضًا ـ أن يجازى المهتدي بالثواب والضال بالعقاب.

❁ ❁ ❁

۞ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦﴾.

التفسير:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ الفاء للتفريع، وهي التي يكون الكلام السابق عليها علة للاحق، أي المتأخر عنها ومقتضيًا له، وهو كل ما تقدم مما فيه تزكية الرسول ﷺ والثناء عليه وذم المكذبين له، والمعنى: كما أنعمنا عليك بالنبوة والرسالة ووعدناك بالأجر وأثنينا عليك بالخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ الذين كذبوك وردوا ما جئت به من الحق والهدى، لا تطعهم فيما يدعونك إليه من ترك الدعوة إلى الله ومسالمتهم وإقرارهم على شركهم بل خالفهم، ودم على ترك طاعتهم ودم على المجاهرة بالإنكار عليهم. ولقد كان للكفار أمنية عظيمة أن يطيعهم النبي ﷺ فيها، وهي أن يسكت عنهم؛ فلا ينكر دينهم وشركهم، فيقابلونه بمثل ذلك، ولهذا قال: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ أي أحبوا وتمنوا ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ (لو) مصدرية، أي تمنوا لو تلاينهم وتصانعهم بترك ما أنت عليه أو بعضه مما لا يرضونه فيفعلون معك مثل ذلك، فتلين لهم ويلينون لك، وأصل المداهنة: الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي.

وقوله: ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ الفاء للعطف وفيها معنى السببية، فإدهانه سبب لإدهانهم، فيكون الفعل (يدهنون) داخلًا في حيّز (لو) فهو من المتمنَّى، فالمتمنَّى شيئان: إدهانه وإدهانهم.

ولما نهاه عن طاعة المكذبين عمومًا، نهاه عن طاعة بعض أنواعهم ممن ازداد كفره بالصفات الذميمة، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي كثير الحلف في الحق والباطل، فليس في قلبه تعظيم لله وأسمائه، وكثرة الحلف مظنة الكذب وهي شأن الكذابين، ﴿مَّهِينٍ﴾ من المهانة، أي خسيس النفس دنيء الهمة، وإن لم يكن محتقرًا في قومه، وقوله: ﴿مَّهِينٍ﴾ صفة موضحة لـ ﴿حَلَّافٍ﴾ فكل حلاف مهين.

وابتدئ بصفة الحلاف للدلالة على استخفاف المذكور بالله وأسمائه وصفاته، فما بعدها من الصفات متفرع عنها ﴿هَمَّازٍ﴾ أي كثير الهمز والعيب للناس، ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ دائم المشي بالنميمة، فالنميم مصدر (نمّ) كالنميمة، وهي السعاية والإفساد بين الناس.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي شديد البخل بالمال والخير، ويحول بين الناس وبين ما يريدون فعله من الخير، فهو يمنع نفسه ويمنع غيره، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي لحدود الله؛ فيتجاوز المباح إلى الممنوع، ومعتد على الخلق بالظلم، فجمع بين التعدي لحدود الخالق والاعتداء على الخلق ﴿أَثِيمٍ﴾ أي كثير الإثم بفعل المحرمات، ﴿عُتُلٍّ﴾ أي غليظ جاف فظ القلب، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ هذا ترق في الذم، أي زيادة على ذلك، يعني ما تقدم من أوصافه القبيحة، فهو ﴿زَنِيمٍ﴾ أي دعيٌّ في قومه لا أب له يعرف، ولكنه ملتحق بالقوم وليس منهم، كالزَّنَمة الزائدة: وهي اللحمة المتدلية في حلق المعز أو أذنها، ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لأجل أن أنعمنا عليه بالمال والبنين يكفر ويجحد ويتكبر، بدل أن يشكر! فقوله: ﴿أَن كَانَ...﴾ متعلق بعامل دل عليه

قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي القرآن ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي حكايات الغابرين، فلا يوثق بها ولا يعول عليها في شيء، فلا تكون من عند الله بزعمه. والأساطير مفردها أسطورة.

ومن كانت هذه أفعاله وأقواله فهو حري أن يعذب أعظم العذاب، ويهان أبلغ الإهانة، ولذا قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ أي سنجعل له في الآخرة علامة وسِمَة من النار على وجهه يعرف بها ويفتضح بها إهانة له وتحقيرًا، قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمٰن: ٤١]، وقوله: ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي على أنفه.

وإذا كان أشرف ما في الإنسان وجهه، فإن أشرف ما في الوجه الأنف؛ لأنه موضع الأنَفة والعزة والكبر، يقال في المدح: فلان أشمُّ الأنف، وعند الدعاء عليه: رغم أنفه، أي أُلصق بالرَّغام: وهو التراب، فإذا وسم على أنفه كان ذلك أبلغ في إهانته وإذلاله.

ولم يثبت خبر في ذكر اسم صاحب هذه الأخلاق الذميمة، ولا ورد فيها سبب نزول صحيح، وتناقل المفسرون أسماء طائفة من الكفار، والأقرب ـ والله أعلم ـ أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، فإن فيها صفات مطابقة للصفات التي وردت في سورة المدثر، وقد ثبت نزولها في الوليد، قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

أخرج عبد الرزاق في التفسير[1] والحاكم في المستدرك[2] والبيهقي في دلائل النبوة[3] بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن النبي ﷺ عَبْدٌ لله تعالى فهو ينهاه ويأمره.

٢ ـ النهي عن طاعة الكفار فيما يطالبون به من ترك التوحيد وترك الدعوة.

٣ ـ أن من شكر الله على الإيمان والهداية الثباتَ على التوحيد والدعوة إليه.

٤ ـ التنبيه إلى عداوة الكفار وسوء مرادهم بالنبي ﷺ والمؤمنين.

٥ ـ رغبة الكفار في التقارب بالملاينة والتنازل عن المواجهة بالإنكار، وذلك بسكوت كلٍّ عن الآخر، وذلك موجود حتى يومنا هذا، وهو ما يُدعى له الآن باسم التقريب بين الأديان وحوار الحضارات ونحو ذلك من العبارات، وقد انخدع بها بعض الأغرار من المسلمين، ومنهم من صار داعية لها.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/٣٢٨).
(٢) المستدرك (٢/٥٠٦).
(٣) دلائل النبوة (٢/١٩٨).

٦ ـ تحذير النبي والمؤمنين من تحقيق هذه الرغبة أو الانخداع بها، فقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ خبر مفاده التحذير من تحقيق ما يودون.

٧ ـ إثبات علم الله بأحوال القلوب وأعمالها، لقوله: ﴿وَدُّواْ﴾، ففيها شاهد لقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [القصص].

٨ ـ وجوب الصدع بالحق ولو أغضب المبطلين، كما قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فإنه إذا كان منهيًا عن الإدهان فهو مأمور بالصدع بالحق.

٩ ـ التحذير من طاعة الموصوف بهذه الصفات، وهو الحلاف المهين.

١٠ ـ تقبيح هذه الصفات: الحلاف، الهماز، المشاء بالنميمة، المناع للخير، المعتدي، الأثيم، العُتل.

١١ ـ النهي عن كثرة الحلف، وأقبح ما يكون إذا كان كذبًا.

١٢ ـ الدلالة على تحقير الحلاف الكذاب.

١٣ ـ تحريم الهمز واللمز والنميمة.

١٤ ـ ذم الجموع المنوع.

١٥ ـ ذم البخل بالمال والمعروف، والصد عن الإحسان.

١٦ ـ تحريم الاعتداء على حدود الله، والتعدي على عباد الله.

١٧ ـ أن من الأخلاق الذميمة غلظ الطبع، والتكبر عن الحق.

١٨ ـ أن كثرة الفعل القبيح يزداد بها الفاعل قبحًا وذمًا، لقوله: ﴿حَلَّافٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾ ﴿مَّشَّآءٍ﴾ ﴿مَّنَّاعٍ﴾ فهذه صيغ مبالغة فتفيد زيادة الذم.

١٩ ـ أن النسب شرف، ومن المذمة أن يكون الإنسان دعيًا لا نسب له، كولد الزنى.

٢٠ ـ قبح الاغترار بالمال والبنين، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون].

٢١ ـ أن المال والولد سبب للأشر والبطر عند بعض الناس.

٢٢ ـ أن من القبح بمكان مقابلة النعمة والإحسان بالإساءة والعصيان.

٢٣ ـ أن الكفر والتكذيب مع الإنعام يجتمع فيه الكفر بالله والكفر بنعمه.

٢٤ ـ فيها بيان موقف بعض الكفار من القرآن: وهو زعمهم أنها حكايات الأوائل التي لا يوثق بها ولا يعول عليها.

٢٥ ـ أن من الكفار من تجتمع فيه خصال الشر.

٢٦ ـ أن من اجتمعت فيه هذه الخصال فهو من شر الناس.

٢٧ ـ الوعيد بوسم هذا الكافر على أنفه ووجهه، بما يذله ويفضحه يوم القيامة، جزاءً على استكباره وتكذيبه بآيات الله.

٢٨ ـ فيها معنى أن الجزاء من جنس العمل، وذلك بمعاقبته بضد مقصوده، وهو الإذلال والإهانة لما تكبر وكذب.

٢٩ ـ أن من كان على صفات هذا الكافر فهو حقيق بمثل هذا الجزاء البالغ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٣٠ ـ إثبات العذاب في الآخرة، وهذا من ضروريات الدين ومن المتفق عليه بين المسلمين.

* * *

ولما ذكر سبحانه خبر الذي أوتي النعم وبطر ومنع الخير، وذكر سوء عاقبته، عقّب بذكر قصة أصحاب الجنة الذين قابلوا نعمة الله عليهم بها بمنع حق المساكين فيها، واحتيالهم لذلك، فعاقبهم الله بنقيض قصدهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

التفسير:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي اختبرناهم بالنعم من الأموال والبنين وغيرها، وضمير النصب يعود على المكذبين ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أي بلوناهم بلاءً، و(ما) مصدرية، أي كبلائنا أصحابَ الجنة، والجنة في اللغة: البستان الكثير الأشجار، وسمي

جنة؛ لأنه يُجِن ما بداخله، أي يخفيه، ﴿إِذْ﴾ أي حين ﴿أَقْسَمُواْ﴾ أي حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ الصرم: قطع الثمار وجذها، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي وقت الصباح، وأرادوا بذلك أن يسبقوا المساكين إلى الجنة لئلا يعطوهم حقهم فيها من الصدقة، وهو الذي أوجبه الله تعالى، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ في أيمانهم، أي لم يقولوا: إن شاء الله، والمعنى أنهم عازمون على الفعل، فمضمون الآيات الإخبار عن قبح فعالهم وقوة تصميمهم، وذلك باعتمادهم على أنفسهم والغفلة عن الله، فلذلك أقسموا دون استثناء على ما عزموا عليه، والتعبير بالمضارع، ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾ لاستحضار حالتهم العجيبة في تصميمهم وبخلهم، فكان عاقبة ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أصابتها آفة سماوية عظيمة فأبادتها وأتلفتها، ولم يُسَمَّ جنس هذا الطائف؛ لأنه لا يتعلق غرض بتعيينه، وإنما العبرة والآية بما حصل من ذلك الطائف من تلف ثمار الجنة، قيل: إنها نار نزلت عليها فأحرقتها، والله أعلم.

﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ (مِنْ) ابتدائية، أي آت من الله، فتدل على أن هذا الطائف آفة سماوية بأمر الله، والخطاب للنبي ولكل من يصلح خطابه، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي والحال أنهم نائمون، فقد حلت بهم العقوبة على غرة، ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ أي الجنة، والفاء عاطفة للترتيب والتعقيب، والمعنى أنها صارت في الحال ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي كالليل البهيم لاحتراقها وشدة سوادها.

هذا ما صارت إليه الجنة، وأما هم:

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ أي نادى بعضهم بعضًا بتحريض واندفاع وقت

الصباح، والفاء عاطفة، وهذه الجملة معطوفة على ﴿أَقْسَمُوا...﴾ وما بينهما اعتراض لبيان ما نزل بتلك الجنة، وأن الطائف قد سبقهم إليها، ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ هذه الجملة تفسير لـ (تنادوا)، والمعنى: بكروا لحصد زروعكم وجذ ثماركم، وتعدية ﴿ٱغْدُوا۟﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمنه معنى الإقبال أو الاستيلاء، وإلا فهو يتعدى بـ (إلى)، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي مريدين صرمه.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾ الفاء عاطفة، أي ذهبوا حالًا ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فيما بينهم، والجملة حالية، أي يتناجون حال خروجهم إلى الجنة بصوت خافت لئلا يسمعهم أحد من المساكين فيتبعهم، وتواصوا فيما بينهم: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ (أن) مفسِّرة و(لا) ناهية، والجملة تفسير لقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فهو متضمن معنى القول دون حروفه، والضمير المنصوب (الهاء) في ﴿يَدْخُلَنَّهَا﴾ للجنة.

وانظر كيف أسندوا الفعل إلى المسكين، ولم يقولوا: لا تدخلوا مسكينًا، وذلك ـ والله أعلم ـ لأن المراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينه منه، كأنهم قالوا فيما بينهم: لا تمكنوه من الدخول.

﴿وَغَدَوْا۟﴾ أي انطلقوا وقت الغداة، أي قبل طلوع الشمس ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ فسِّر الحرد: بالقوة، والقصد، والمنع، والغضب، والآية تحتمل هذه المعاني جميعها، بل هو الصحيح، إعمالًا للقرآن بكل ما تحتمله ألفاظه عند عدم التعارض، فهم خرجوا مبكرين، ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي على قصد، وهم في قوة وغضب على الفقراء، مصممين

على منعهم حقهم. وقوله: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ حال من الواو في ﴿وَغَدَوْا﴾، و﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال ثانية. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي الجنة محترقة ﴿قَالُوٓا﴾ على البديهة ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي تائهون، فليست هذه جنتنا فقد ضللنا الطريق، ثم لما تحققوا أنها جنتهم أضربوا عن قولهم هذا، وقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي جوزينا فحُرمنا، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي خيرهم وأعدلهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ تقرير وتوبيخ، ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلّا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي تقولون: سبحان الله وتذكرون الله، فتتوبون من عزمكم السيّء فعاد إليهم رشدهم حينئذ، وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي تنزيهًا لربنا عن الظلم فيما فعل بجنتنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي بل نحن الظالمون، فما وقع فبسبب ظلمنا نحن، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا على ما كان منهم، ولذا قالوا جميعًا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ أي يا هلاكنا، وهذا نداء يراد به التحسر، ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي مجاوزين الحد في مخالفة أمر الله ومنع الفقراء حقهم، ثم إنهم لجأوا إلى الله بالدعاء، فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ أي في الدنيا، هذا هو الظاهر، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي لا إلى غيره، فتقديم الجار والمجرور يفيد القصر، وقولهم: ﴿رَٰغِبُونَ﴾ أي في العفو طالبون الخير.

وبعد أن ذكر الله خبرهم وما حل بهم من العقوبة قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم، و﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، أي مثلُ هذا العذابِ الذي عذب الله به أصحاب الجنة في الدنيا ـ عذابُ الله لمن عصاه، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الواو للاستئناف، و(عذاب) مبتدأ، وخبره (أكبر) أي أشد وأعظم كيفية وكمية من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا

﴿يَعْلَمُونَ﴾ (لو) شرطية، وجواب الشرط محذوف يدل عليه السياق، أي لو كانوا يعلمون ما عصوا أمر الله.

الفوائد والأحكام:

١ ـ اشتمال القرآن على القصص وضرب الأمثال بها للاعتبار.

٢ ـ أن من سنَّة الله ابتلاء العباد بالنعم والمصائب.

٣ ـ أن الجنة وما يكون فيها من ثمر من أعظم نعم الله التي تستوجب الشكر، وهي مما يبتلي الله بها بعض عباده، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ...﴾ [الكهف: ٣٢]، الآيات.

٤ ـ أن للمساكين حقًا في الثمار والزروع، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٥ ـ ذم البخل بالواجب، وسوء عاقبته.

٦ ـ وجوب الاستثناء فيما يعد الإنسان بفعله، أي قول: إن شاء الله، لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟يْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف].

٧ ـ أن ترك الاستثناء من أسباب الحرمان، ويدل على هذا أيضًا حديث أبي هريرة مرفوعًا: «قال سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل: «إن شاء الله» فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد

بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»[١].

٨ ـ أن وجود الاستثناء سبب للظفر بالمطلوب وإدراك الحاجة، كما قال النبي ﷺ في سليمان عليه السلام: **(لو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان دَرَكًا في حاجته)**[٢].

٩ ـ وجوب الخوف من بأس الله، والحذر من أسبابه.

١٠ ـ أن بأس الله يأتي على غرة، والإنسان نائم أو سادر في غفلته، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

١١ ـ أن ما ينزل بالعباد من عقوبات هو بتدبير وتقدير من رب العباد.

١٢ ـ إثبات الربوبية الخاصة لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٣ ـ تخصيص الرسول ﷺ بالامتنان عليه.

١٤ ـ أن الله أتلف ثمار جنتهم حتى كأن لم يكن بها ثمر.

١٥ ـ الدلالة على مكر الله بأصحاب الجنة؛ حيث أتلف الله جنتهم من غير أن يشعروا بشيء من ذلك، ولذا قاموا في الصباح مسرعين مستخفين.

١٦ ـ شدة بخلهم وكراهتهم للمساكين.

١٧ ـ عزمهم على حرمان المساكين.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٦٣)، واللفظ له، ومسلم (١٦٥٤).

(٢) البخاري (٦٣٤١)، ومسلم (١٦٥٤).

١٨ ـ أن العزم الجازم ينزل منزلة الفعل في الخير والشر.

١٩ ـ أن صاحب القصد السيء يعاقب بنقيض قصده شرعًا وقدرًا.

٢٠ ـ قبح التمالؤ على الباطل.

٢١ ـ شدة وقع الفوت على من اشتد طمعه واستكمل قوته على المطلوب.

٢٢ ـ الذهول عند الفجأة بفوت المحبوب، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾.

٢٣ ـ الاعتراف بالذنب بعد الصحو من الذهول.

٢٤ ـ سوء عاقبة الإعراض عن النصيحة.

٢٥ ـ فضيلة ذلك الرجل الناصح.

٢٦ ـ أن من أسباب التفاضل بين الناس العلم والدعوة.

٢٧ ـ أن التسبيح والذكر يمنع صاحبه من التمادي في العصيان، ويعصم من العقاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات].

٢٨ ـ أن أصحاب الجنة اعترفوا بذنبهم وسبحوا ربهم.

٢٩ ـ أن منع حقوق العباد ظلم.

٣٠ ـ أن المعصية من جماعة سبب للتلاوم، أي يلوم بعضهم بعضًا.

٣١ ـ أن ما فعلوه من التصميم والتدبير لحرمان المساكين طغيان منهم.

٣٢ ـ أن ندمهم أوجب حسن ظنهم بالله ﷻ، ورغبتهم إليه أن يعوضهم خيرًا من جنتهم.

٣٣ ـ أن أصحاب الجنة مسلمون، فقولهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ فيه إقرار بتوحيد الربوبية، وقولهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ فيه إقرار بتوحيد الألوهية.

٣٤ ـ أن من عذاب الله وعقوباته إتلاف المال.

٣٥ ـ أن ما عاقب الله به أصحاب الجنة هو سنَّة الله فيمن عصاه وبخل بما أوجب الله عليه، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال].

٣٦ ـ تحريم الحيل التي يُتوصل بها إلى استحلال محرم أو إسقاط واجب، وأنه لا يحل بها ـ أي بالحيل ـ الحرام، ولا يسقط بها الواجب.

٣٧ ـ إثبات القياس، وهو أن حكم الشيء حكم نظيره، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾.

٣٨ ـ أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا، وجاء التصريح بأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة في قوله ﷺ للمتلاعنَين: (**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**)[1].

٣٩ ـ أنه لا تلازم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فقد

(١) رواه مسلم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يعذب العبد في الدنيا ويعفى عنه في الآخرة، وقد يعذب في الآخرة دون الدنيا، وقد يُجمع له العذابان في الدنيا والآخرة، نعوذ بالله من أسباب سخطه وعقابه.

٤٠ ـ أن من خيرة الله للعبد أن يعاقبه في الدنيا لينجو من عذاب الآخرة، ويشهد لذلك قوله ﷺ: **(إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)**(١)، ولكن لا يجوز للعبد أن يسأل ذلك، بل يسأل الله العفو والعافية.

٤١ ـ الدلالة على فضل العلم.

٤٢ ـ أن العلم بالوعد والوعيد سبب لتقوى الله خوفًا ورجاء، لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، هذا في الوعيد، أما الوعد فلقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل].

❁ ❁ ❁

❁ ولما ذكر الله سبحانه ما أعد للمكذبين والطاغين من النكال والعذاب في الدنيا والآخرة، أعقبه بذكر ما أعد لأهل التقوى من الجنات في الآخرة، وهذا من تصريف الآيات والوعد والوعيد، وفي ذكر الوعد بعد الوعيد والوعيد بعد الوعد ما يمنع من عذاب الله، والقنوط من رحمته، ليسير العبد إلى ربه بين الخوف والرجاء، فقال

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٨٧)، والترمذي (٢٣٩٦)، واللفظ له، قال الهيثمي: «رجال أحمد رجال الصحيح»، مجمع الزوائد (١٠/ ١٩١).

سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ
﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ
أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ المتقون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله، والتقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب مناهيه، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة، وشبه الجملة حال من ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إن للمتقين حال كونهم عند ربهم جنات النعيم، وهذه العندية عندية الوعد والضمان، ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: الجنات ذات النعيم، من إضافة الموصوف إلى الصفة، والجنات جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله لعباده المتقين في الآخرة، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والنعيم: اسم لكل ما يُتنعم به من مأكل ومشرب وغير ذلك.

وأضيفت الجنات إلى النعيم؛ لأنه ليس فيها إلا النعيم الخالص الذي لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا، فساكنها منعم في بدنه ومنعم في قلبه، قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

وتقديم المسند ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على المسند إليه ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فيه اهتمام بشأن المتقين ليسبق ذكرُ صفتهم العظيمة ذكرَ جزائها، وفيه أيضًا تشويق إلى المتأخر.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على محذوف، والتقدير: أنسوي في الحكم بين الأضداد فنجعل المسلمين كالمجرمين، أي في الجزاء والعاقبة الحسنة، لا يكون هذا، فإن ذلك يستلزم تسوية المسلمين بالمجرمين، وكان الكفار يزعمون أن لهم حسن العاقبة وأن لهم الجنة، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢] فأكذبهم الله وقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل: ٦٢]، ويقول قائلهم ـ فيما أخبر الله عنه ـ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ رد لقولهم، فالاستفهام إنكاري تكذيبي، ويسمى أيضًا: إبطاليًا، فهو إنكار لقولهم الباطل وتكذيب لدعواهم، أي لا يليق بحكمتنا أن نسوي في الجزاء بين المؤمن التقي والكافر الشقي.

ثم وجه إليهم الخطاب تقريعًا وتوبيخًا، فقال: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيُّ شيء حصل لكم؟ وما الذي دهاكم؟ فهو إنكار وتوبيخ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الجائر الفاسد الذي يسوي الشيء بنقيضه، والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ للتعجب والتعجيب والتوبيخ، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (أم) هي المنقطعة، وهي للإضراب الانتقالي لا الإبطالي، وتقدر بـ (بل) والهمزة، أي بل ألكم ﴿كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ المعنى: هل عندكم كتاب منزل من السماء فأنتم تقرأونه وتجدون فيه ما تتخيرون، وما تشتهيه أنفسكم من الأحكام؟ والاستفهام المقدر بالهمزة للإنكار والتوبيخ.

وجملة ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ في موقع المفعول لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾ لكن كسرت همزة ﴿إِنَّ﴾ لمجيء اللام في خبرها، وقوله: ﴿تَخَيَّرُونَ﴾ أصله: تتخيرون، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي بل ألكم، وهذا إضراب وانتقال من إنكار إلى إنكار، و(الأيمان) هي العهود والمواثيق، سميت أيمانًا؛ لأنها تؤكد بالأيمان، أو لأنها ملزمة كالأيمان، وقوله: ﴿عَلَيْنَا﴾ صفة أولى لـ (أيمان)، وقوله: ﴿بَلِغَةٌ﴾ أي مؤكدة، وهذه صفة ثانية، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي دائمة إلى يوم القيامة، فهي مؤبدة، وهذه صفة ثالثة.

وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي إن لكم الذي تحكمون به لأنفسكم، والمعنى: هل أعطيناكم عهودًا مؤكدة بالأيمان لإثبات حقكم المزعوم، وهو أن لكم الجنة؟

ثم توجه الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ ﴿سَلْهُمْ﴾ أي سلهم لإقامة الحجة عليهم وتكذيبهم ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ أي كفيل وضامن، أي سلهم من المتعهد بأن لهم ما يشاءون؟

والإشارة بـ (ذلك) وهي للبعيد، للدلالة على بعد حكمهم عن العدل والصواب واستهجانه؛ لمناقضته العقل وموجَب الحكمة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ (أم) هي المنقطعة، أي سلهم: ألهم شركاء يشاركون الله في حكمه وتدبيره.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن شرط مقدر،

أي إن كان لهم شركاء ﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾، والأمر في قوله: ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾ للتهكم والتعجيز، ولذا قال: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، والتقدير: إن كانوا صادقين في زعمهم أن لهم شركاء فليأتوا بشركائهم. وبهذا الإنكار والتوبيخ بهذه الاستفهامات يتبين بطلان حكمهم، وأنه لا مستند لهم من كتاب ولا عهد ولا ضمين ولا شريك يملك ذلك، فثبت كذبهم من جميع الوجوه.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من عادة القرآن إتباع الوعيد بالوعد، والإنذار بالتبشير.

٢ ـ الدلالة على فضل التقوى وأنها سبب الفوز بالجنة.

٣ ـ إثبات الجنة.

٤ ـ كمال نعيم الجنة، وذلك لتعريف النعيم بـ (أل)، وهذا يدل على الكمال والإطلاق.

٥ ـ أن الجنة نعيم كلها، مبرأة من كل الآفات والعيوب والمنغصات.

٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة، لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٧ ـ الإشارة إلى أن للمجرمين عذاب النار في الآخرة، وذلك لمجيء قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

٨ ـ أن حكمة الله تعالى تأبى أن يسوّي بين المسلمين

والمجرمين، والمصلحين والمفسدين، والمتقين والفجار، بإكرام الجميع أو ترك مجازاة الجميع، مما يستلزمه عدم البعث.

٩ ـ الرد على الكفار في ادعائهم أن لهم الحسنى والجنة.

١٠ ـ الدلالة على وقوع البعث؛ لأن عدمه يستلزم ما هو ممتنع، وهو التسوية التي نفاها الله، وما يستلزم الممتنع ممتنع، وقد جاء نفي التسوية في ثلاثة مواضع: كقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [صٓ]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١].

١١ ـ إثبات الجزاء الأخروي لكل فريق من المسلمين والكافرين.

١٢ ـ توبيخ المنكرين للبعث على حكمهم الذي لا مستند لهم به، لقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

١٣ ـ إثبات صفة العَجَب لله تعالى، لقوله: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، وهي صفة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع.

١٤ ـ نفي أن يكون للكفار في دعواهم مستند من كتاب الله، وهذا نفي للدليل النقلي، والذي قبله نفي للدليل العقلي، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ...﴾ فليس لهم دليل من العقل ولا من النقل.

١٥ ـ أن ما كان من الحجج مدروسًا ومقروءًا فهو أقوى.

١٦ ـ أنه لا عهد للكفار على الله فيما حكموا به لأنفسهم، لقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾.

١٧ ـ أن الله لا يخلف وعده، ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

١٨ ـ أن الوفاء بالعهد واجب، ولا يجب على الله إلا ما أوجبه سبحانه على نفسه.

١٩ ـ أن تكرار اليمين يوجب توكيدها، لقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٢٠ ـ أن الأيمان والعهود المطلقة تقتضي التأبيد إذا خلت عن نية التوقيت والتقييد.

٢١ ـ أنه لا أحد منهم ـ أي الكفار ـ يدعي أنه ضامن لما ادعوه لأنفسهم.

٢٢ ـ صحة عقد الكفالة والضمان، لقوله ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾.

٢٣ ـ توبيخ المشركين على شركهم.

٢٤ ـ تعجيزهم أن يأتوا بشركاء لله على الحقيقة، وأنهم غير صادقين.

٢٥ ـ الإرشاد إلى محاجة المشركين وقطع جميع ما يمكن أن يتعلقوا به، وفي ذلك إقامة للحجة عليهم.

* * *

۞ ولما ذكر الله تعالى ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات في الآخرة، وأبطل زعم المشركين في ادعاء الجنة وأن لهم ما يتخيرون،

أتبع ذلك بمشهد من مشاهد القيامة، وما يكون فيه للكفار والمكذبين والمنافقين من الخطوب والأهوال، وما يدركهم من الخزي العظيم، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الظرف ﴿يَوْمَ﴾ معمول لعامل تقديره: اذكر لهم ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي يُكشف عن الشدة، وذلك في يوم القيامة، قال ابن عباس ﷺ: «﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ هو الأمر الشديد المقطع من الهول يوم القيامة»[١].

فمعنى الآية: اذكر لهم ـ أي للمكذبين المشركين ـ ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة وما فيه من الهول حيث ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ للجبار جل وعلا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

فالواو ـ على هذا القول ـ للكفار، والسياق يؤيده، حيث إن الآيات السابقة في شأن الكفار، وعلى ذلك فيكون الكشف عن الساق كناية عن الشدة، كما يقال: كشفت الحرب عن ساق، وشمّرت الحرب عن ساقها، قال حاتم:

أخو الحرب إن عضّت به الحربُ عَضَّها وإن شمّرت عن ساقها الحربُ شَمَّرا[٢]

---

(١) رواه ابن جرير (٢٣/١٨٨)، وإسناده صحيح، وقال الحافظ ابن حجر: «وأسنده البيهقي إلى ابن عباس بسندين، كل منهما حسن» فتح الباري (١٣/ ٤٣٧).

(٢) ديوانه (٤٠).

هذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما في الآية، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التفسير، كما يقول ابن جرير، وارتضاه ابن جرير أيضًا(١).

وذهب طائفة من العلماء إلى تفسير الآية بحديث أبي سعيد الطويل المتفق عليه عن النبي ﷺ قال: **(يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا)**(٢).

وعلى هذا فتكون الساق في الآية هي ساق الرحمٰن عز وجل، وجاءت منكرة للتفخيم والتعظيم(٣).

وعلى هذا القول في تفسير الآية تكون الواو في ﴿يُدْعَوْنَ﴾ للمنافقين، فإنه قد جاء في الحديث نفسه أنه ينادي منادٍ: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فلا يبقى حينئذ إلا المؤمنون والمنافقون، فيكشِف الله عن ساقه فيسجد المؤمنون، ويعجز المنافقون عن السجود(٤)، ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾،

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٨٦).

(٢) البخاري (٧٠٠١) واللفظ له، ومسلم (١٨٣).

(٣) كما يقول ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٣).

(٤) لشيخنا الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر البراك كلام متين في الآية أنقله للفائدة، قال حفظه الله: «قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ...﴾ الآيتين، أي يوم يَكشف الله عن ساق، والساق قيل: هي الشدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة] على الصحيح في تفسير تلك الآية، والكشف عن الشدة ليس هو كشفَ الشدة؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الزخرف: ٥٠].

بل المراد ـ والله أعلم ـ كشف الغطاء عن الشدة فيعظم الهول ويشتد الخوف =

= فتكون الآية من نوع ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل: ٤٤] ـ أي أزالت الغطاء عنهما؛ كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي يُدعى الكفار والمشركون، فتعود الواو في قوله: ﴿يُدْعَوْنَ﴾ إلى المشركين في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ وبهذا يتحقق الارتباط بين الآيات، ويشبه هذه الآية في لفظها ومعناها ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ في حديث طويل وفيه: (ينادي مناد: **ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون...**) إلى قوله: (**حتى يبقى من كان يعبد الله من برّ وفاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم، وإنا سمعنا مناديًا ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا، قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا**). (رواه البخاري ٧٠٠١، ومسلم ١٨٣).

ولهذا ذهب طائفة من مفسري أهل السُّنَّة إلى تفسير هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ بما جاء في الحديث، وقالوا: إن الساق في الآية هو الساق في الحديث، وهو ساق الله تعالى، وعليه فتكون الآية من آيات الصفات، وخير ما فُسِّر به القرآن: القرآن وسنَّة الرسول ﷺ.

ومن هؤلاء المفسرين مَنْ جمع بين المعنيين الساق بمعنى الشدة والساق الذي هو صفة الله، فقال: إنها تكون شدة وأهوال يوم القيامة، فإذا جاء الرب للفصل بين عباده كشف عن ساقه، ودُعي أهل الموقف للسجود فيسجد المؤمنون، ولا يستطيع الكفار والمنافقون السجود.

ومعنى هذا أن ما ذُكر في الحديث من كشف الله عن ساقه وسجود المؤمنين له، وتعذر ذلك على المنافقين هو المشار إليه في الآية.

وعلى ذلك، فالكشف عن الساق والسجود، إنما يكون مرة واحدة.

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ بعد إمعان النظر في الآية والحديث، أن ذلك يكون مرتين: =

....

= **الأولى**: مع عموم أهل الموقف من المؤمنين، والكافرين، والمنافقين.
الثانية: مع المؤمنين، والمنافقين.
يدل لذلك من الحديث أمور:
أحدها: قوله: (**فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة**)، فهذا صريح في أنهم رأوه قبل ذلك.
الثاني: قوله: (**هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق**)، فإن ظاهر ذلك أن الله كشف لهم عن ساقه في المرة الأولى.
الثالث: قوله: (**فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة**)، وهذا يتضمن فرقًا بين الآية والحديث من وجهين:
أولهما: أن المؤمنين يسجدون لكشف الله عن ساقه دون أن يؤمروا.
الثاني: أن الذين يعجزون عن السجود كانوا يسجدون في الدنيا رياءً وسمعة، وهم المنافقون، وأما الآية ففيها أن الناس يُدعون إلى السجود، أي يؤمرون بالسجود، وأن الذين لا يستطيعون السجود هم المشركون، ويشهد لهذا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن المنذر وابن جرير وغيرهما في قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ قال: «هم الكفار كانوا يدعون في الدنيا وهم آمنون، فاليوم يدعون وهم خائفون». (الدر المنثور ٨/ ٢٥٥، جامع البيان ٢٣/ ١٩٧).
وروى ابن جرير عن إبراهيم في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: «يوم يكشف عن ساق، ولا يبقى مؤمن إلا سجد، وتيبس ظهر الكافر فيكون عظمًا واحدًا». (جامع البيان ٢٣/ ١٨٧).
فقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أي يدعون إلى السجود فلا يسجدون وهم سالمون، أي لا علة بهم، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات]، وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر].
ومما تقدم يتبين أن السلف من الصحابة، والتابعين اختلفوا في المراد بالساق في هذه الآية؛ فمن فسَّر الآية بالحديث قال: المراد بالساق ساقه سبحانه، فعلى قوله تكون الآية من آيات الصفات، ومن لم يفسرها بالحديث، قال: الكشف عن الساق كناية عن شدة الأمر. فلا تكون الآية ـ إذن ـ من آيات =

والخشوع: السكون، وهو كناية عن ذلهم وحسرتهم وخوفهم يومئذ.

ولما كان ذلهم عظيمًا في ذلك اليوم قال: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم، و(رَهِق) من باب تعِب، ﴿وَقَدْ كَانُوا﴾ أي في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي إلى الصلاة بشرطها، وهو التوحيد، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه من أهم أركانها كما يعبر عنها بالركوع، ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أي مما بهم الآن بل كانوا أصحاء قادرين، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات].

ولم يذكر الداعي في الآيتين؛ لأنه مما لا يتعلق بذكره غرض، وإنما العبرة بذكر الدعاء نفسه وبيان حالهم عنده.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ وقوع الشدة يوم القيامة، على ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ ـ تهديد المشركين بذلك.

٣ ـ إثبات الساق لله عز وجل، وهذا على قول من فسّر الآية بالحديث.

= الصفات، وقد تقدم لك الجمع بين الآية والحديث، وأن الكشف عن الساق والسجود يكون مرتين.

وأما المفسرون من أهل الكلام الذين لا يثبتون الصفات الخبرية، فإنهم لا يختلفون في أن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ كناية عن الشدة والكرب.

وأما الحديث، فإنهم يتأولونه على خلاف ظاهره، فلا يدل عندهم على إثبات الساق لله تعالى، وهذا النفي والتأويل مبني على أصل باطل، وهو أن إثبات هذه الصفات يستلزم التشبيه، وهذا هو ما نفت به الجهمية جميع الأسماء والصفات، وهو مذهب باطل يمتنع أن يقوم عليه دليل صحيح، والله أعلم).

انتهى كلامه حفظه الله، إملاءً منه عليَّ.

٤ ـ وقوع التكليف في الآخرة، ففيها الرد على من قال: إن الآخرة ليست دار تكليف بل دار جزاء، ونقول أيضًا: إنه ليس كالتكليف الذي في الدنيا، وهو ما يترتب عليه جزاء بالثواب على الفعل أو بالعقاب على الترك، ولكنه تكليف بالمعنى الأعم.

٥ ـ إثبات البعث والجزاء.

٦ ـ أن الكافرين يدعون إلى السجود يوم القيامة.

٧ ـ عجز الكافرين عن السجود جزاءً على امتناعهم عن السجود في الدنيا، وفي ذلك معنى أن الجزاء من جنس العمل.

٨ ـ أن الكفار يسمعون في الآخرة، ولكنه في بعض الأحوال، وفي أحوال أخرى لا يسمعون، كما قال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

٩ ـ ذل الكافرين في ذلك اليوم جزاء على استكبارهم عن الحق في الدنيا.

١٠ ـ أنهم عوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، وهو الذل والمهانة مكان التكبر والإباء، وهذا له نظائر، فمنه ما ورد من أن المتكبرين يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يعلوهم كل شيء من الصغار[1].

١١ ـ أن مناط التكليف الاستطاعة، لقوله: ﴿وَهُمْ سَـٰلِمُونَ﴾.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، وقال: «حسن صحيح»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وإسناده حسن.

١٢ ـ أنهم لا عذر لهم في ترك السجود في الدنيا، لقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

١٣ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

* * *

۞ ولما ذكر الله شيئًا من أحوال الكفار في يوم القيامة مهددًا لهم، أعقبه بتهديدهم بما سيفعله بهم في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿فَذَرْنِى﴾ الفاء هي الفصيحة، أي إذا كانت أحوالهم كذلك ﴿فَذَرْنِى﴾.

قوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن، والحديث في الأصل من أسماء الكلام، والإشارة إلى القرآن بـ (هذا) تفخيم لشأنه.

والمعنى: اتركني وهذا المكذب بالقرآن وخل بيني وبينه، أنا أكفيكه، ففعل الأمر للتهديد، وكثيرًا ما يستعمل هذا الفعل للتهديد، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر]، وقول فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦].

والواو في قوله ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ للمعية، و(مَنْ) في محل نصب

مفعول معه، أي اتركني وإياه، ولا يصح جعل الواو عاطفة؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون المعنى: اتركني واتركه، وهذا يخرج الكلام عن المعنى المراد، وهو التهديد.

ولما كان التهديد في قوله: ﴿فَذَرْنِي﴾ مجملًا جاء بما يبينه ويعينه، فقال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي نوالي عليهم النعم ليتمادوا في غيهم ويعظم إثمهم، وأصل الاستدراج أن تَنزل بالمرء درجة درجة إلى حيث تريد به، وقوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي من جهة المكان الذي لا يعلمون إتيانهم منه، واستدراجهم من قبله. كما يقال: لا يدري من أين أُتي. وجاء الضمير في ﴿يُكَذِّبُ﴾ مفردًا مراعاة للفظ (مَنْ)، وجمع في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ مراعاة لمعناها، أي معنى (مَنْ).

قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأؤخرهم، مضارع أملى، مشتق من الملا، وهو الزمان.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي قوي شديد، والكيد هو التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم، فهو بمعنى المكر، وإن كان لكل منهما دلالة.

ويلحظ أن الفاعل الضمير جاء على الإفراد في قوله ﴿فَذَرْنِي﴾ و﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، وجاء على الجمع في قوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، ولعل السبب ـ والله أعلم ـ أن التهديد والإملاء إنما يكون من الله وحده دون توسط الملائكة، وأما الاستدراج فقد يكون بفعل الملائكة بأمر الله تعالى.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا...﴾ هذه الآية والتي تليها مرتبطتان بقوله تعالى ـ فيما سبق ـ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ لكن فُصل بين هذه الآيات بآيات تضمنت تهديدًا ووعيدًا، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ (أم) هي المنقطعة المقدرة بـ (بل) والهمزة، أي بل أتسألهم أجرًا، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي هل تسألهم أجرًا ومالًا عظيمًا على دعوتك إياهم إلى التوحيد، فهم من هذه الغرامة المالية ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي مكلفون حملًا ثقيلًا فلا يؤمنوا؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي بل أعندهم الغيب، والمراد علم الغيب، فهو على حذف مضاف، ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون عنه ما يحكمون به لأنفسهم من الفضل واستحقاق الثواب، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي ليس عندهم شيء من ذلك.

وتقديم الخبر ﴿عِندَهُمُ﴾ على المبتدأ ﴿الْغَيْبُ﴾ وهو معرفة لإفادة الاختصاص، أي فهم يعلمون الغيب دون الله.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ تهديد الله للمكذبين بالقرآن.

٢ ـ تسلية النبي ﷺ بنصرته والانتقام من أعدائه الكفار.

٣ ـ تسمية القرآن حديثًا، أي محدثًا، كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقد جاء هذا في مواضع من القرآن.

٤ ـ غفلة الكفار عمّا يراد بهم.

٥ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله ﷻ.

٦ ـ وصف الله بالكيد.

٧ ـ شدة كيد الله.

٨ ـ أنه لا عذر للمكذبين في عدم الإيمان والاستجابة لدعوة النبي ﷺ.

٩ ـ أن الرسول لا يسأل أموالًا على الدعوة، بل هذا ديدن الرسل جميعًا، وقد جاء التصريح بذلك في آيات كثيرة من القرآن وهذا من أدلة صدقهم عليهم الصلاة والسلام.

١٠ ـ أن سؤال الناس أموالهم من عوائق قبول الدعوة؛ لأن الناس ينفرون عمّن يسألهم أموالهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [محمد].

١١ ـ تحريم أخذ الأجرة على الموعظة وتبليغ الدين.

١٢ ـ أن التعفف عن سؤال الأموال صفة مدح في فطرة الناس.

١٣ ـ أن النفوس مجبولة على حب المال والبخل به.

١٤ ـ أن القوم لو كانوا سئلوا مالًا لأمكن أن يكون لهم عذر في الإعراض، ولكنهم لم يُسألوا ذلك.

١٥ ـ أن من عوائق المكذبين الاغترار بالعلم، لقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

١٦ ـ نفي علم الغيب عن المكذبين، بل هو منفي عن الخلق كافة.

١٧ ـ أنه لو حصل لهم علم الغيب دون خبر الرسل لأمكن أن يُعذروا، ولكنهم لا يعلمون.

* * *

۞ ولما ذكر عناد المشركين ودعواهم الباطلة وإصرارهم على التكذيب ـ مع أنه لا حجة معهم صحيحة ولا عذر إلا العناد ـ مما عساه أن يوجب للداعي الضجر والسآمة من الدعوة واستعجال العقوبة = أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بالصبر على هذا القدَر وعلى هذا التكليف، فقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط مقدر، أي إذا كانت أحوالهم كذلك ﴿فَٱصْبِرْ﴾، واللام بمعنى (على)، فإن الفعل (صبر) يتعدى بـ (على)، كقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [صٓ: ١٧].

والحكم في الآية يشمل الكوني والشرعي؛ فأما الكوني فهو واقع فيما يحصل للرسول ﷺ من أذى المشركين وتكذيبهم.

وأما الشرعي فواقع في تكليفه ﷺ بالدعوة، وهو يستتبع مشاقَّ

وتكاليف، وكل منهما مطلوب فيه الصبر، والمراد بالأمر بالصبر: الاستمرار والدوام وتجديد الصبر على ما يجدُّ من مقتضياته الكونية والشرعية، فإنه ﷺ لم يزل صابرًا على حكم ربه.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام، وأضافه إلى الحوت لأنه التقمه، وأضيف في القرآن أيضًا إلى النون، وهو الحوت في قوله سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وسمي باسمه الصريح في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصافات]، ولعل هذا من باب التنويع في الأسلوب، والتفنن في العبارة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مغموم، و﴿إِذْ﴾ متعلق بمحذوف حال من (صاحب)، والتقدير: لا تكن كصاحب الحوت كائنًا حين نادى وهو مكظوم، ويدل على المحذوف أن الذوات لا يتعلق بها الظرف ﴿إِذْ﴾، فالمعنى: لا تكن كصاحب الحوت حين نادى بعد أن ترك قومه، وذلك قبل أن يتوب الله عليه، ويشبه هذا قول النبي ﷺ: (**يا عبد الله لا تكن مثل فلان**)(١).

ونداء يونس استغاثته بالله لإنقاذه من الكربة في بطن الحوت، وجاء تفسير هذا النداء في قوله سبحانه: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وكان يونس عليه السلام قد استبطأ إيمان قومه، كما استبطأ نزول العذاب بهم فخرج مغاضبًا فركب البحر، ولما ماجت بهم أمواجه

---

(١) البخاري (١١٠١)، ومسلم (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

اقترع أصحاب السفينة فوقع السهم عليه، فألقوه في البحر فالتقمه الحوت، فطفق يسبِّح الله ويذكره ويستغيثه حتى أدركته من الله الرحمة، ولولا ذلك، وما كان عليه قبل ذلك من ذكر الله وتسبيحه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات] ولكن تداركه رحمة الله بسبب ذلك، ولذا قال هنا: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

﴿لَّوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود، وهو مضمن معنى الشرط ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ فعل ماض، والفاعل ﴿نِعْمَةٌ﴾، ولم يؤنث الفعل لوجود الفاصل بينهما وهو (الهاء) ضمير المفعول، ولأن الفاعل مجازي، وقوله ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي رحمة من ربه، وجواب ﴿لَّوْلَآ﴾ قوله: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي لطرح بالعراء، وهي الأرض القفر المهلكة التي لا نبات فيها ولا بناء.

﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي بمغاضبته وفراره، والجملة في محل نصب حال.

واعلم أن المنفي هو الذم لا نبذه بالعراء، فقد صرّح به في الصافات في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات].

فمعنى الآية هنا: لولا نعمة ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم لكنه نبذ وهو غير مذموم.

وأما الجملة الشرطية في سورة الصافات وهي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] فإنها تضمنت أن خروجه من بطن الحوت، وامتناع لبثه إلى البعث هو كونه من المسبحين.

ولقد منّ الله على نبيه يونس بنعم أخر سوى إخراجه من بطن الحوت ورفع الذم عنه، فقال سبحانه: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اختاره لرسالته مرة أخرى بعد أن وفقه للتوبة وقبلها منه.

﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من جملتهم، وهذا التعبير أدل على إثبات الصلاح له مما لو قيل: فجعله صالحًا؛ لأن هذا التعبير يدل على صلاح في النفس، وعلى مصاحبته لأهل الصلاح وعلى مشاركتهم في المصير.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب الصبر على الأذى في الدعوة وتكذيب المكذبين.

٢ ـ وجوب الصبر على القيام بأعباء الدعوة وحقوق العبودية.

٣ ـ أن طريق الدعوة محفوف بالمشاق.

٤ ـ إثبات حكم الله الكوني والشرعي؛ فالكوني مثل ما يصيبه من أذى المشركين، والشرعي مثل ما يُكَلَّفه من واجبات في الدين، والفرق بينهما هو الفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية.

وعلى هذا فالحكم الكوني لا بد من وقوع مقتضاه، وهو متعلق بجميع الكائنات، فكل واقع فبحكم الله الكوني مما هو محبوب لله أو غير محبوب.

وأما الحكم الشرعي فلا يلزم وقوع مقتضاه، وهو متعلق بما يحبه الله من أفعال العباد من الإيمان والطاعة.

وعلى هذا فما وقع من الإيمان والطاعة فبحكم الله الكوني والشرعي، وما وقع من الكفر والمعاصي فبالحكم الكوني، وينفرد الحكم الشرعي بما لم يقع من الإيمان والطاعة.

ومن أدلة الحكم الكوني قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ [يونس: ١٠٩]، ومن أدلة الحكم الشرعي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

٥ ـ إثبات الربوبية الخاصة، لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

٦ ـ أن القدوة بالأنبياء فيما وافق الحق، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٧ ـ الدلالة على تفاضل الأنبياء، وقد أمر الله نبيه بالقدوة بأولي العزم، ونهاه عن القدوة بذي النون عليه السلام.

٨ ـ جواز التلقيب ببعض ما يلابسه الإنسان إذا كان لا يكره ذلك.

٩ ـ جواز إضافة الفعل إلى السبب مضافًا إلى الله، لقوله: ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.

١٠ ـ إثبات الأسباب والرد على منكريها من الجبرية ونحوهم.

١١ ـ فضل الله على عبده يونس عليه السلام بإجابة دعائه والعفو عنه واجتبائه.

١٢ ـ أنه نبذ بالعراء غير مذموم بل مجتبى صالحًا.

١٣ ـ أن الله يمن على من يشاء بكرامته وإنعامه.

١٤ ـ أن من تاب مما يؤاخذ العبد عليه لا يلحقه ذم ولا عقاب، ولا يجوز ذمه ولا لومه.

١٥ ـ خلق الله لأفعال العباد، لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ففيها الرد على المعتزلة القائلين بأن العبد خالق لفعله.

❁ ❁ ❁

❁ ثم أخبر سبحانه عن حال الكفار حين يسمعون القرآن فقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

التفسير:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ هذا عطف على قوله: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ [القلم: ٤٤] وهو رجوع إلى الحديث عن الكفار ببيان عداوتهم للرسول ﷺ وحرصهم على مضرته.

قوله: ﴿وَإِن يَكَادُ﴾ (إن) هي المخففة من الثقيلة، بدليل وجود اللام الفارقة في قوله: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾، وسميت بذلك لأنها تفرق بين (إن) المخففة وبين (إن) النافية، واسمها ضمير الشأن محذوف، أي (وإنه يكاد) أي يقرب، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ أي يزيلونك عن مكانك، يقال: زَلَقه وأَزْلَقه إذا نحاه وأبعده، وهما لغتان بمعنى واحد، وقرأ نافع وأبو جعفر: (يَزْلُقونك)، ﴿بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي يهلكونك بإصابة العين لشدة حنقهم عليك وحسدهم لك، والباء للتعدية، ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي حين سمعوا القرآن، وقد حفظ الله نبيه ﷺ من كيدهم، وكانوا في الجاهلية يعرفون العين، حكى الفراء قال: كان أحدهم إذا أراد

أن يعتان المال ـ أي يصيبه بالعين ـ تجوَّع ثلاثًا، ثم يتعرض لذلك المال فيقول: تالله ما لا أكثر ولا أحسن ـ يعني ما رأيت أكثر ولا أحسن ـ فتسقط منه الأباعر(١). وقال ﷺ: **(العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين)**(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار حسدًا له ﷺ ومقتًا وتنفيرًا عنه ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي لقراءته القرآن، يعنون أن ما سمعوه قولُ مجنون، فأكذبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من الجن والإنس، وسماه ذكرًا؛ لأنه يذكِّر العالمين بربهم وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وهذا من التعبير عن اسم الفاعل بالمصدر مبالغة.

وختمت السورة بمثل ما بدئت به من تنزيهه عمّا رماه الكفار به من الجنون في قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ شدة حسد الكفار للنبي ﷺ وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

٢ ـ إثبات العين وأنها سبب قد يؤثر في المحسود.

---

(١) معاني القرآن (٣/ ١٧٩).

(٢) رواه مسلم (٢١٨٧)، عن أبي هريرة ﷺ وأوله «العين حق» في صحيح البخاري (٥٤٠٨، ٥٦٠٠).

٣ ـ أنهم لم يصيبوا النبي ﷺ بالعين وإن حسدوه، لمجيء (كاد).

٤ ـ إعجابهم بالقرآن؛ لأن الحسد لا يكون إلا على نعمة وحظ.

٥ ـ تسمية القرآن ذكرًا.

٦ ـ جحد الكفار لنبوته ﷺ مع علمهم بصدقه، ومبالغتهم في ذلك حتى رموه بالجنون مؤكدين ذلك مبالغة في الحط من قدره ﷺ.

٧ ـ الرد على الجاحدين والمفترين على النبي ﷺ بعد تكذيبهم في أول السورة.

٨ ـ أن من حكمة إنزال القرآن تذكيرَ العباد بالعلوم النافعة والشرائع القويمة.

٩ ـ عموم رسالة النبي ﷺ للعالمين.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

هذه السورة مكية كجمهور سور المفصل، وسميت بالحاقة لوقوع هذه الكلمة في فاتحتها. وصح عن ابن عباس أن الحاقة من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله وحذَّره عباده[1]، فيكون من الأعلام التي شاعت على سبيل الغلبة، وهو وإن كان أصله وصفًا فهو وصف وعلم، كالواقعة والغاشية.

والحاقة اسم له وقع على القلوب يدل على تحقق القيامة ووقوعها لا محالة، وهو اسم فاعل، واشتقاقه من حقَّ الشيءُ إذا ثبت ووجب، فهي ـ أي القيامة ـ واجبة الوقوع ثابتة المجيئ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

التفسير:

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ مبتدأ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مبتدأ ثان وخبره، والجملة خبر

(١) جامع البيان للطبري (٢٣/ ٢٠٦).

للمبتدأ الأول، أي أيُّ شيء هي، والاستفهام للتعظيم والتهويل، وتكرار المبتدأ الأول هنا بلفظه مغن عن الضمير الرابط لجملة الخبر بالمبتدأ، ولا يكون ذلك إلا في مواضع التعظيم، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ تعظيم بعد تعظيم وتهويل بعد تهويل، أي أيُّ شيء أعلمك ما هي، والخطاب لكل من يصلح للخطاب، فهو لغير معين، أي إنك لا تعلم كُنهها ولا تقدُر قدرها، ومهما قدرت فهي أعظم من ذلك، وقد أُبهم الجواب، والمعنى: إنها شيء عظيم وخطب بالغ، وهذا أسلوب معروف في كلامهم يقصدون به تهويل أمر الشيء المتحدث عنه كأنه بعيد عن متناول العقول.

وفي قوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة التعظيم والتهويل، والأصل: ما هي، وما أدراك ما هي. فهنا خمسة أمور اشتملت عليها هذه الآيات لتعظيم أمر القيامة:

١ ـ لفظ الحاقة.

٢ ـ ذكر هذا اللفظ ثلاث مرات.

٣ ـ الاستفهام في قوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾.

٤ ـ الاستفهام في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾.

٥ ـ الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾.

وبعد أن عظم أمرها ذكر طرفًا من أخبار المكذبين بها وما أنزله بهم من العقوبات العاجلة فهلكوا ليعتبر بذلك كفار مكة وغيرهم، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ ثمود هم قوم

صالح عليه السلام، وكانوا يسكنون الحِجْر بين الشام والحجاز، وعاد هم قوم هود عليه السلام، وكانوا يسكنون الأحقاف من بلاد اليمن، وقوله: ﴿بِالْقَارِعَةِ﴾ أي بالقيامة، وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وفي هذا وضع الظاهر موضع المضمر حيث لم يقل: (بها)، وفي ذلك ذكر لها باسم ووصف آخر، وخص ثمود وعادًا بالذكر لأنهما من أشهر الأمم المكذبة عند أهل مكة ولقرب مساكنهم منهم، وقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ﴿فَأَمَّا﴾ الفاء للتفريع و(أما) حرف شرط وتفصيل ﴿فَأُهْلِكُوا﴾ أي أهلكهم الله ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي بالصيحة الطاغية، وسميت بذلك لأنها جاوزت الحد في الشدة، وقد سماها الله (صاعقة) في مواضع من كتابه، كما في سورة فصلت في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت]، و«صَيحةً» كما في سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ وذكر سبحانه أنهم أخذتهم ﴿الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] أي الزلزلة؛ لأن الرجفة مسبَّبة عن الصيحة، قال عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف].

والباء في قوله: ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ هي الداخلة على الآلة فهي مثلها في قولك: كتبت بالقلم وقطعت بالسكين، وقول بعض المفسرين إنها باء الاستعانة غير سديد؛ لأن الاستعانة إنما تناسب المخلوق. ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (أما) مثل التي قبلها، ﴿صَرْصَرٍ﴾ أي باردة ذات صوت شنيع، ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي مجاوزة الحد في العصف والهبوب فتدمر كل ما تأتي عليه، وتنكير ريح يفيد التفخيم، وهذه

الريح هي الدَّبور قال ﷺ: **(نُصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور)**(١)، والصَّبا هي الريح التي تأتي من الشرق، والدَّبُور التي تأتي من الغرب.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي سلَّطها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي متتابعات، لا تفتر ولا تنقطع، و(حسوم) جمع حاسم، أي دائم، مثل شاهد وشهود، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر]، وإفراد اليوم في هذه الآية لإرادة الجنس. ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ الخطاب في قوله: ﴿فَتَرَى﴾ لغير معين، أي فترى أيها الرائي، و﴿ٱلْقَوْمَ﴾ هنا يشمل الرجال والنساء، والضمير المجرور في ﴿فِيهَا﴾ يعود إما إلى البلاد أو إلى الأيام والليالي، والأول أولى؛ لأن المعنى يقتضيه، و﴿صَرْعَىٰ﴾ جمع صريع، وهو الملقى على الأرض ميتًا، قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي جذوع نخل ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي نخرة فارغة، وقال عنهم في سورة القمر: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي منقلع من أصله، قيل: كانت الريح تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادًا خربة بلا رؤوس، فشبهوا بجذوع النخل الخاوية، وفي تشبيههم بجذوع النخل إشارة إلى أنهم طوال عراض الأجساد، كما وصفهم الله على لسان نبيهم هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء]، وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي من نفس باقية أو من جماعة باقية،

---

(١) البخاري (٩٨٨)، ومواضع أخرى، ومسلم (٩٠٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والاستفهام للنفي، أي لا ترى منهم أحدًا بل هلكوا عن آخرهم. والذي اطرد به الأسلوب القرآني غالبًا تقديم عاد على ثمود في الذكر، وقدمت ثمود هنا ـ والله أعلم ـ لأن خبر ثمود سيق موجزًا، وفُصِّل خبر عاد فناسب تأخيره ليتصل به التفصيل.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الحاقة من أسماء يوم القيامة.

٢ ـ التخويف بالقيامة وأهوالها.

٣ ـ أن القيامة متحققة ولا بد.

٤ ـ أن القيامة ذات هول عظيم تحار فيه الألباب.

٥ ـ أن الاستفهام يأتي للتهويل.

٦ ـ جهل الإنسان بحقيقة الآخرة وأهوالها.

٧ ـ ذم الله لعاد وثمود لتكذيبهم بالقيامة وهي القارعة.

٨ ـ أن القارعة من أسماء القيامة.

٩ ـ أن القيامة تقرع القلوب والأسماع بما فيها من قلاقل وصيحات.

١٠ ـ أن ثمود أهلكها الله بالطاغية، وهي الصيحة، وقد حدث عنها رجفة، أي زلزلة، كما تقدم.

١١ ـ أن الله أهلك ثمود عن آخرهم إلا صالحًا عليه السلام وأتباعه المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود].

١٢ ـ أن الله أهلك عادًا بالريح.

١٣ ـ أن عادًا أشد عقوبة من ثمود؛ لأن ثمود أهلكوا بالصيحة فهلكوا في الحال، أما هؤلاء فقد سخرت عليهم الريح الباردة الشديدة ثمانية أيام.

١٤ ـ أن نزول العذاب بعاد كان في صباح أول الأيام الثمانية، وهذه سنَّة الله في إهلاك المكذبين، كما أخبر عن قوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر]، وثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر]، والحكمة ـ والله أعلم ـ أن الصباح وقت بعث من النوم وفرح بالحياة والنشور، ووقع العذاب أشد ما يكون حينئذ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

١٥ ـ الدلالة على أن اليوم في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر] أنه ليس يومًا واحدًا بل أيامًا، واليوم يعبر به عن وقت الحدث، كقولهم: يوم حنين ويوم خيبر.

١٦ ـ تتابع أيام العذاب ولياليه دون انقطاع على قوم عاد، لقوله: ﴿حُسُومًا﴾ أي متتابعة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر].

١٧ ـ تبشيع صورة قوم عاد بعد هلاكهم حيث صاروا صرعى مجندلين كالنخل الميت المجتث.

١٨ ـ إخزاؤهم ـ أي قوم عاد ـ في الحياة الدنيا قبل الآخرة لطغيانهم وتكبرهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ

أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت].

١٩ ـ الإشارة إلى طولهم وكبر أجسادهم حيث شُبهوا بالنخل.

٢٠ ـ أن الله أهلك عادًا جميعًا إلا هودًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين، لقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾.

* * *

ثم ذكر من بقي من الأمم المكذبة بالحاقة وما حل بهم، فقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾ أي ومَن تقدمه مِن الأمم الكافرة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي قرى قوم لوط، والمراد أهلها، جمع المؤتفكة، أي المنقلبة، وكانت قراهم قد ائتفكت بهم، أي انقلبت، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي جاءوا بالفَعلات الخاطئة التي من جملتها التكذيب بالبعث والقيامة، والخاطئة اسم فاعل من خَطِئ بوزن علم ومصدره الخِطء، قال بعض اللغويين: الخاطئ مَن يفعل الخَطأ عن عمد وتصميم، خلافًا لأخطأ فإنه الذي يفعل الخَطأ لا عن عمد، واسم الفاعل منه مخطئ، ومصدره الخَطَأ بالتحريك، وهذا هو الأكثر في استعمال القرآن وقد يستعمل الخَطَأ بمعنى الخِطء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]

على قراءة ابن ذكوان وأبي جعفر (خَطَأً)، وإسناد الخِطء إلى الفعلات مجاز عقلي حيث أضيف الوصف إلى سببه، والخاطئ حقيقة هو فاعل الخطء. واكتفى بذكر فرعون لأنه زعيمهم، وإلا فقومه داخلون معه في التكذيب.

قوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي عصت كل أمة رسولها، والمراد بالرسول الجنس فيصدق على الواحد والاثنين والجماعة، كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [صٓ].

﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ أي أهلكهم الله ﷻ، ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ (الأخذة) واحدة الأخذ، والتنكير للتعظيم، و(رابية) اسم فاعل من ربا الشيء يربو إذا زاد، والمعنى: أخذهم الله أخذة عظيمة زائدة في الشدة لازدياد كفرهم وقبائحهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

ثم أشار إلى طرف من قصة نوح عليه السلام وقومه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي كثر وجاوز حده في الارتفاع فعلا فوق الجبال بسبب طغيان قوم نوح وإصرارهم على الكفر ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي حملنا آباءكم وهم نوح وبنوه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات]، وأضاف الحمل إلى نفسه سبحانه؛ لأنه الآمر به والخالق لأسبابه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود].

قوله: ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي في السفينة، والمراد سفينة نوح عليه السلام،

وكان أول من صنعها في الأرض، والجارية أصله وصف ثم شاع حتى صار بمنزلة الاسم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمٰن: ٢٤] وقد غاير القرآن في الإخبار عن هذه القصة فعبر بضمير التكلم لما فيها من الامتنان على المؤمنين بإنقاذهم من الهلاك، ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي جنس السفينة وقصة إغراق الكافرين وإنجاء المؤمنين، ﴿تَذْكِرَةً﴾ أي مذكرة بالله وكمال قدرته وحكمته وقوة قهره وسعة رحمته، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي وتحفظها أذن من شأنها أن تحفظ عن الله ما يجب حفظه من الآيات البينات، ووراءها عقل يفكر ويتدبر، وتوحيد (أذن) وتنكيرها للدلالة على قلة من يعي.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ عظم ذنب فرعون ومعصيته، ومن قبله من المكذبين للرسل، وقوم لوط.

٢ ـ شدة أخذ الله لهم وأن عقوبتهم رابية على عقوبة غيرهم من سائر المكذبين.

٣ ـ مناسبة عظم العقوبة لعظم المعصية.

٤ ـ الدلالة على أن هذه الأمم تشبه عادًا وثمود في التكذيب والمصير.

٥ ـ أن سنَّة الله في المكذبين هي الإهلاك والتدمير.

٦ ـ أن الرسول يأتي بمعنى الرسل.

٧ ـ إثبات الربوبية العامة، لقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٨ ـ أن معصية الرسول معصية لله.

٩ ـ أن من مقتضيات الربوبية إرسال الرسل.

١٠ ـ أن الرسول لا يأمر إلا بما يأمر به ربه.

١١ ـ تنوع عذاب الله للمكذبين بالريح والصيحة والغرق، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

١٢ ـ الإشارة إلى ما هلك به قوم نوح، وهو الطوفان الذي علا على الجبال.

١٣ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله ﷻ.

١٤ ـ الامتنان على العباد بصناعة السفن.

١٥ ـ أن السفن مذكرة بالسفينة التي صنعها نوح ﷺ.

١٦ ـ الامتنان على الذرية بالإنعام على الآباء، لقوله: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي حملنا آباءكم.

١٧ ـ أن الذي ينتفع بالآيات هو من يقصد الاستماع رغبة في الانتفاع.

* * *

۞ ولما أخبر سبحانه عن القيامة وتحققها وتحقق وقوعها، وأخبر عما فعله بالمكذبين بها من العقوبات، أتبع ذلك بذكر بعض أحداثها وأهوالها، وأول ذلك النفخ في الصور ودك الأرض والجبال،

ثم البعث والنشور، والعرض، ونشر الدواوين، والجزاء على الأعمال، فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾.

التفسير:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الفاء للتفريع، فما بعدها من الأحداث مفرع عما قبلها من ذكر التهويل بالحاقة، و(الصور): قرن، كما في الحديث[(١)]، والنافخ مَلَك، وأجمع العلماء على أنه إسرافيل كما يقول القرطبي[(٢)]، وجاءت بذلك أخبار ولكنها لا تصح في أفرادها، ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى التي يكون عندها خراب الدنيا وتغير العوالم، فترجف الأرض والجبال، ويعقب هذه النفخة الفزع والصعق، فيفزع من في السماوات والأرض ويصعقون إلا من شاء الله، وقد سماها الله صيحة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ [صٓ]، وتنكير النفخة يدل على عظمتها، ووصفها بواحدة تأكيد لإفادة الوحدة.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي قلعت من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي فُتِّتا وصارتا كثيبًا مهيلًا، والدَّك أبلغ من

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، والترمذي (٢٤٣٠)، وقال: «حديث حسن»، وأبو داود (٤٧٤٢)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٠)، عند تفسيره آية الأنعام (٧٣)، وهي قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾.

الدق، والتعبير بالماضي في (نُفِخَ) وَ(حُمِلَتْ) و(دُكَّتَا) لتحقق وقوع ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة، وهذا جواب (إذا) الشرطية الظرفية، أي إذا كان هذا النفخ في الصور وحمل الأرض والجبال ودكهما، إذا كان هذا فهو يوم وقوع الواقعة، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي ضعيفة بعد أن كانت شديدة، كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ [النبأ]، وهذا الانشقاق لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان].

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ الملك، أي جنس الملك، أي الملائكة. ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي أرجاء السماء، أي جوانبها ونواحيها، جمع رجًا ـ منونًا ـ بوزن فتى، وأكثر مجيء هذا اللفظ مجموعًا.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أي فوق أهل الموقف ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ثمانية من الملائكة، والعرش في أصل اللغة سرير الملك، وعرش الرحمٰن سرير عظيم لا يعلم قدره وكيفيته إلا الله، وهو أعلى المخلوقات وأوسعها، موصوف بالمجد والكرم والعظمة، وهو فوق السماوات كالقبة، وهو ذو قوائم وله حملة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الصور.

٢ ـ إثبات النفخة الأولى، وهي أول أمر القيامة كما تقدم.

٣ ـ أنها نفخة عظيمة.

٤ ـ تحقق وقوع النفخ في الصور، ويؤيده حديث (**كيف أنعم**

وقد التقم صاحب القرن القرن، وحَنَى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ)[1] الحديث.

٥ ـ كمال قدرته سبحانه، فبنفخة واحدة يصعق أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، وبنفخة واحدة يخرج الأموات من قبورهم إلى وجه الأرض، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

٦ ـ أن الأرض والجبال تُحمل على ما شاء الله، ويحملها من شاء الله، فتُدك الأرض والجبال حتى تكون قاعًا صفصفًا، لا مرتفعات ولا منخفضات، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه].

٧ ـ تغيير صورة الأرض عما هي عليه في الدنيا، وهو التبديل المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم].

٨ ـ أن من أسماء القيامة الواقعة، كالحاقة، والغاشية، والقارعة وغيرها.

٩ ـ أن السماء تشقق يوم القيامة وتكون ضعيفة بعد أن كانت شديدة، وهذا الانشقاق ذكر في مواضع بلفظ (الانفطار)، وبلفظ (فرجت).

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٧، ٧٣)، والترمذي (٣٢٤٣)، وابن ماجه (٤٢٧٣)، عن أبي سعيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٩).

١٠ ـ إثبات الملائكة.

١١ ـ أن السماء حين انشقاقها تكون الملائكة موكلة بنواحي السماء، ولعل ذلك لإحاطة الملائكة بأهل الموقف؛ من بعُد ومن قرُب.

١٢ ـ إثبات عرش الرحمٰن.

١٣ ـ شرف العرش، وذلك لإضافته إلى الرب جل وعلا.

١٤ ـ أن للعرش حملة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر].

١٥ ـ أن حملة العرش يوم القيامة ثمانية من الملائكة.

١٦ ـ الرد على من أوَّل العرش بالملك من المعتزلة وغيرهم، لقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾.

١٧ ـ أن العرش يكون فوق أهل الموقف.

١٨ ـ إثبات العلو لله تعالى.

* * *

۞ ثم ذكر ما يكون في ذلك اليوم من حساب المكلفين وانقسامهم إلى فريقين شقي وسعيد، وذكر حالهم ومآلهم، فقال ﷻ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى

ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

التفسير:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي على الله ﷻ للحساب والجزاء، والخطاب لجميع المكلفين، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨].

وتكرار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للدلالة على هول الموقف، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي لا تخفى عليه خفاياكم وأسراركم، و﴿خَافِيَةٌ﴾ نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، أي لا يخفى عليه سبحانه يومئذ منكم أي شيء، كما قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق]، والجملة حال، أي تعرضون غيرَ خافية عليه سرائركم.

ثم فصَّل ما يؤول إليه أمر العباد بعد العرض، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهو المؤمن، وبدأ به تشويقًا لحاله وتنويهًا بحسن مآله، والكتاب صحيفة الأعمال، ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ وهذا كناية عن سروره ونجاته، و﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر، أي خذوا، والميم فيه للجمع، ومفعوله محذوف تقديره: هاؤم كتابي.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أي أيقنت ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي جزائي في الآخرة فاستعددت له بالعمل، والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ و﴿حِسَابِيَهْ﴾ للسكت، وفائدتها ظهور فتحة الياء وحصول الفاصلة، وهي ثابتة وصلًا ووقفًا تبعًا للمصحف الإمام، ﴿فَهُوَ﴾ أي هذا المؤمن ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي هنيئة مَرضيَّة كاملة، وأسند الرضا إلى العيشة إشارة إلى رضا صاحبها على الوجه الأبلغ، وهذا مجاز عقلي.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي عالية المكان والقدر، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة، والقطوف جمع قِطف بمعنى مقطوف، وهو ما يُجتنى من الثمار، والمعنى أن ثمار الجنة قريبة لمتناولها، وفي قوله: ﴿عَالِيَةٍ﴾ و ﴿دَانِيَةٌ﴾ نوع مطابقة، وفي قوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ احتراس مما قد يُتوهم من أن قطوفها عالية.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي يقال لهم على سبيل الإكرام والإنعام: كلوا واشربوا ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلًا وشربًا هنيئًا، فهو صفة لمصدر محذوف، والهنيء: هو ما لا تنغيص فيه ولا كدر ولا أذى، ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ الباء للسببية، أي بسبب الذي قدمتم من الصالحات ﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي في أيام الدنيا؛ لأنها خلت أي ذهبت.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ وهو الكافر بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فجعل علة إعطائه كتابه بشماله عدم إيمانه، وأخره في الذكر مقتًا له وذمًا لحاله، ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي لما رأى فيه من قبائح الأعمال، فهو يتمنى أنه لم يعط كتابه ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي ليتني لم أعلم ما حسابي ولم أقف عليه، لما رأى من

سوء العاقبة، ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ أي حالتي السيئة الآن، وهي مفهومة من سياق الكلام، ﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ أي القاطعة لأمري فأموت وأكون ترابًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ أي لم يغن عني مالي ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي ذهبت عني حجتي، وهذا قول أكثر المفسرين[١]، وقيل: ذهب عني ملكي وقوتي، والهاء في الآيتين للسكت.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ هذا أمر من الله للزبانية أن تأخذه فتغله، أي تضع الغُل في عنقه، ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي أدخلوه النار، يصلى حرها ويقاسي شدائدها ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي أدخلوه فيها، وتنكير ﴿سِلۡسِلَةٖ﴾ للتعظيم وأنها لا كالسلاسل، ودلت ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين على التراخي الزمني المفيد طول المهلة في العذاب - نسأل الله السلامة - ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي لا يأمر بالصدقة، وبدلالة الفحوى لا يحض نفسه عليها، والطعام هنا اسم مصدر بمعنى الإطعام، وقد جمع هذا الشقي بين الكفر بالله ﷻ والبخل بالنعمة، ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ أي قريب يحميه من العذاب، و(حميم) اسم (ليس) وخبرها الجار والمجرور (له)، و(ههنا) حال من حميم. ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ أي الغُسالة، والمراد به هنا صديد أهل النار، كما ثبت ذلك عن ابن عباس[٢]، والطعام هنا هو ما يؤكل نفسه، ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾

---

(١) قاله البغوي في معالم التنزيل (٤/ ٣٨٩).

(٢) جامع البيان (١٣/ ٢٤٠).

أي الكفار الذين يقدمون على الجرائم والخطايا العظام عمدًا.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات عرض العباد على الله ﷻ.

٢ ـ كشف خفايا الصدور وإظهارها يوم القيامة.

٣ ـ تيئيس الكفار أن يكتموا الله شيئًا يوم القيامة مما كانوا يخفونه في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ [العاديات]، وليس للتقييد بيومئذ مفهوم، فإن الله لا تخفى عليه خافية، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٤ ـ إثبات العلم لله تعالى.

٥ ـ الدلالة على إحصاء أعمال كل مكلف في كتاب.

٦ ـ أن أخذ الكتاب ليس إلى صاحبه وإنما يعطى هذا بيمينه وهذا بشماله.

٧ ـ إخراج هذا الكتاب يوم القيامة.

٨ ـ أن الناس فريقان؛ فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله.

٩ ـ أن أخذ الكتاب باليمين علامة السعادة، وأخذه بالشمال علامة الشقاء.

١٠ ـ فضل اليمين وأنها تختص بالشؤون الطيبة المحبوبة، وأن الشمال للأمور المستكرهة.

١١ ـ سرور المؤمن واستبشاره بما في كتابه.

١٢ ـ أن الإيمان بالبعث سبب السعادة.

١٣ ـ أن من أنواع الحساب عرض الأعمال في الكتاب، أي على العبد. ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

١٤ ـ ذكر ثواب السعداء

١٥ ـ أن المؤمن يكون في الآخرة في حياة طيبة وعيشة هنيئة، فلا منغصات ولا مكدرات، ففيه شاهد لقوله ﷺ: (**ينادي مناد إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدًا**)(١).

١٦ ـ كمال ثواب الله لأوليائه وحسنه وسلامته من جميع المنغصات.

١٧ ـ رضى المؤمن بكرامة الله له.

١٨ ـ إثبات الجنة وأنها دار المتقين، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

١٩ ـ أن الجنة في العلو.

٢٠ ـ أن الجنة فيها أشجار ذات قطوف، أي ثمر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٣)، من حديث أبي سعيد الخدري.

٢١ ـ قرب القطوف من أهل الجنة.

٢٢ ـ امتنان الله على أوليائه بما خلق لهم في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب.

٢٣ ـ أمنهم من منغصات الأكل والشرب.

٢٤ ـ أن الأعمال سبب للثواب وليست ثمنًا له، لقوله: ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ فالباء للسببية كما تقدم، وبهذا يحصل الجمع بين هذه الآية وما أشبهها وبين قوله ﷺ: **(لا يدخل أحدكم الجنة بعمله)** قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: **(ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة)**[1]، فالباء هنا للعوض.

٢٥ ـ إثبات الأسباب.

٢٦ ـ أن الجنة وما فيها جزاءٌ للمؤمنين على أعمالهم وشكر من ربهم، لقوله: ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾.

٢٧ ـ الإشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، فكما صبروا على الأعمال الصالحة وكفوا نفوسهم عما حرم الله أثابهم بالعيش الرغيد والراحة والهناء، فتشهد للمقولة المشهورة: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. فأهل الجنة صبروا عن شهواتهم فأعاضهم الله خيرًا مما تركوا.

٢٨ ـ أن الكافر يؤتى كتابه بشماله.

٢٩ ـ أن أخذ الكتاب بالشمال علامة الشقاء.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٥٦)، عن أبي هريرة ﷺ وأصله في الصحيحين.

٣٠ ـ أن الكافر يحاسب، لا محاسبة الموازنة بين السيئات والحسنات، بل يوقف على عمله ويقرر به، ثم يجزى عليه.

٣١ ـ حسرة الشقي وندمه على ما أسلف.

٣٢ ـ أنه يجد في كتابه ما يسوؤه وما يعلم سوء عاقبته.

٣٣ ـ أنه لم ير خيرًا في كتابه.

٣٤ ـ أنه عند ذلك يتمنى الموت.

٣٥ ـ علمه في ذلك اليوم أنه كان مغرورًا بماله؛ إذ لم يغن عنه في ذلك اليوم شيئًا.

٣٦ ـ انقطاع حجته، وهي المراد بالسلطان، وقيل: المراد به الملك والقوة، كما تقدم.

٣٧ ـ أنه يؤمر بأخذه ويوضع الغل في عنقه ويلقى في الجحيم.

٣٨ ـ أن من أنواع العذاب أنه يسلك في سلسلة طويلة.

٣٩ ـ إهانة الكافر يوم القيامة.

٤٠ ـ أن عذاب أهل النار أنواع.

٤١ ـ إثبات (العظيم) اسمًا لله، وإثبات العظمة بكل معانيها له ﷻ.

❁ ❁ ❁

۞ ولما كانت السورة من أولها في ذكر أحداث غيبية ماضية من أخبار الأمم، ومستقبلة مما يكون يوم القيامة؛ من قيام الساعة وعرض العباد على الله، ونهاية مصيرهم، وكان ذلك مما لا مجال إلى العلم به

إلا عن طريق الوحي الذي بلغه النبي ﷺ، وكانت تلك الأحداث مما لا يبصره الناس في حاضرهم، أقسم تعالى على صدق القرآن وأنه حق، فقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

التفسير:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ الفاء للتفريع حيث فُرِّع على ما تقدم إثباتُ إنزال القرآن من الله الذي هو طريق الإخبار بذلك كله.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي أقسم، و(لا) حرف نفي زائد لتأكيد القسم، هذا أصح ما قيل فيه، وهذا معروف من كلامهم، قال امرؤ القيس:

لا ـ وأبيكِ ـ ابنةَ العامريِّ لا يدعي القومُ أني أفِرّْ[1]

ومن زيادة (لا) في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه] أي أن تتبعن، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف] أي أن تسجد، وهكذا قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي أقسم، فزيادة (لا) للتأكيد.

(أقسم) القسم والحلف واليمين بمعنى واحد، وهو تأكيد الكلام بذكر معظَّم حقيقة أو اعتقادًا على وجه مخصوص، حقيقة؛ كالحلف بالله ﷻ، واعتقادًا؛ كالحلف باللات ونحوها عند المشركين.

---

(١) ديوانه (١٥٤)

والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل (أقسم) أو (أحلف) معديًا بالباء إلى المقسم به، ولما كثر القسم في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة، وبالتاء في لفظ الجلالة خاصة، كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وفي هذه الآية الكريمة ذكر فعل القسم معدى بالباء، فقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا هو المقسم به، و(ما) اسم موصول يفيد العموم، فقد أقسم سبحانه بكل شيء مما نرى من الشهادة، وما لا نرى من الغيب، فقد عم هذا القسم جميع الأشياء على الشمول؛ لأنها لا تخرج عن مبصَر وغير مبصَر، فشمل الغيب والشهادة والخالق والمخلوقين، ومن هنا قيل: إن هذا أجمع قسم في القرآن[1].

ثم صرح بالمقسم عليه، أي جواب القسم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن، وهو مفهوم من السياق، ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي محمد ﷺ، وأضاف القول إلى الرسول ﷺ؛ لأنه المبلغ له، فهي إضافة تبليغ لا ابتداء، كما يدل عليه لفظ رسول، وهو الرسول من البشر محمد ﷺ.

وفي سورة التكوير أضافه إلى الرسول من الملائكة جبريل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير]؛ لأنه الذي نزل به، وبلَّغه للرسول من البشر.

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (١٠٩)، لغة القرآن الكريم (٢٦٦)، د.عبد الجليل عبد الرحمن.

وأضافه سبحانه إلى نفسه في غير ما آية؛ لأنه تعالى الذي تكلم به ابتداء، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي في غاية الكرم؛ من زكاء النفس وطيب الأخلاق وشرف المَحْتِد ﷺ.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ثلاثة مؤكدات (إن)، واللام، واسمية الجملة، والقسم نفسه تأكيد.

وتضمنت الآيات الإقسام من الله جل وعلا على رسالة نبيه ﷺ وصحة ما جاء به. ثم نفى سبحانه أن يكون القرآن قول شاعر أو قول كاهن، فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ الباء لتأكيد النفي، ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي تؤمنون إيمانًا قليلًا لا ينفع، فقوله: ﴿شَاعِرٍ﴾ صفة لمصدر محذوف و(ما) مزيدة للتأكيد، وهذا تأكيد لقلة الإيمان والمؤمنين فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧] وقال سبحانه: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ الكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، أو يخبر عمّا في الضمير مستعينًا بالشياطين، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون تذكرًا قليلًا، و(ما) مزيدة لتأكيد قلة التذكر والمتذكرين فيهم.

وعجبًا لهؤلاء! كيف عَمُوا أو تعاموا عن الفرق ما بين القرآن وبين الشعر وأقوال الكهان. وفي هذا النفي تكذيب للمشركين وتوبيخ

لهم على قولهم في القرآن إنه قول شاعر أو قول كاهن، وفي نفي ذلك تأكيد أنه قول رسول كريم بريء من أحوال أهل الكذب من الشعراء والكهان.

ولما نزه سبحانه القرآن أن يكون شعرًا أو كهانة صرح بحقيقته فقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي هو تنزيل، وهذا مصدر وقع موقع اسم المفعول مبالغة في إثبات نزوله، فهو تنزيل بمعنى مُنزَل، ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي ابتداؤه وإنشاؤه من الله جل وعلا، فـ ﴿مِّن﴾ هنا ابتدائية، و﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ كل ما سوى الله ﷻ.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من كلام الله تعالى القَسَم.

٢ ـ الرد على الأشاعرة القائلين بأن كلام الله معنى واحد، أي لا تعدد فيه، بل التعدد فيما هو عبارة عنه.

٣ ـ أنه سبحانه يقسم بما شاء.

٤ ـ عظم شأن هذا القسم لتعلقه بكل شيء من عالم الغيب والشهادة.

٥ ـ التنبيه إلى عظم جميع ما خلق الله؛ لأن الإقسام بالشيء فيه دلالة على عظم شأنه.

٦ ـ أن القرآن ليس من كلام الرسول ﷺ إنشاءً وابتداءً، بل كلام من أرسله.

٧ ـ الدلالة على أن من جاء بالقرآن رسول من عند الله، وهو محمد ﷺ.

٨ ـ الثناء على الرسول ﷺ بالكرم، وهو اجتماع الصفات الفاضلة فيه، وحسن الظاهر والباطن، وهذا يتضمن نفي الكذب والجنون عنه.

٩ ـ تنزيه القرآن عن أن يكون شعرًا أو كهانة.

١٠ ـ أنه لا يجوز التعبير في شأن القرآن بالمصطلحات المستعملة في فن الشعر والغناء؛ كالموسيقى والنغم والإيقاع والقافية.

١١ ـ أن الشعر والكهانة لا يجامعان النبوة.

١٢ ـ ذم الكهانة مطلقًا.

١٣ ـ ذم الشعر والشعراء إلا من استثنى الله من الشعراء، قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

١٤ ـ ذم الله لهم بقلة الإيمان وقلة التذكر.

١٥ ـ قد يحصل التذكر من بعضهم أحيانًا، فيدرك براءة الرسول ﷺ مما نسبوه إليه، ثم قد يؤمن، وهذا قليل، وقد لا يؤمن، وهذا الأكثر.

١٦ ـ أن القرآن منزل من الله تعالى.

١٧ ـ أن ابتداء نزول القرآن من الله.

١٨ ـ إثبات علو الله تعالى؛ لأن التنزيل إنما يكون من جهة العلو.

١٩ ـ افتقار العالمين كلهم إلى الله ﷻ، فإنه لا قيام للمربوب إلا بالرب، فإن الرب هو المربي القائم على غيره.

٢٠ ـ أن تنزيل القرآن لهداية الخلق من مقتضيات ربوبيته تعالى؛ لأن من معاني الرب (المنعم).

٢١ ـ الرد على الاتحادية أهل وحدة الوجود، فإنه سبحانه فرق بين الرب والمربوب في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والاتحادية ليس عندهم إلا واحد، فالرب هو العالم والعالم هو الرب.

* * *

ثم ذكر سبحانه برهانًا آخر على صدق الرسول ﷺ وعلى ما جاء به من الوحي، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

التفسير:

﴿وَلَوْ﴾ (لو) شرطية غير جازمة، ﴿تَقَوَّلَ﴾ فعل الشرط، والجواب ﴿لَأَخَذْنَا﴾، أي ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ الرسول ﷺ لأخذنا منه باليمين، والتقول: أن ينسب إلى الغير ما لم يقله، ويدل على ذلك بناء صيغة (التفعُّل)، فهي تدل على التكلف.

﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أي لو افترى علينا ونسب إلينا بعض الأقاويل، جمع أقوال، وهو جمع قول، ومثله بيت يجمع على أبيات، وهذا

يجمع على أبابيت، وجمع الجمع سماعي لا قياسي، والأقاويل صيغة غلب استعمالها في الأقوال الكاذبة التي لا أصل لها، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي لأمسكنا بيمينه، أي بيده اليمنى دون إمهال، وهذا كناية عن القدرة عليه ومعاجلته بالعقاب، وقريب منه قولهم: أمسكت بتلابيبه، وخص اليمين ـ والله أعلم ـ لأنها أقوى اليدين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ الوتين: عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه، ويعرف الآن بأنه الشريان الرئيس الذي يغذي جسم الإنسان بالدم النقي الخارج من القلب، يجمع على وُتُن وأوتنة. وقوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ كناية عن الإماتة والإهلاك، ووجه الدلالة من هذا الوعيد على صدق الرسول ﷺ أنه تعالى يمتنع عليه أن يقر من يكذب عليه بل يأخذه فضلًا عن أن ينصره، فإنه تعالى مطلع وقادر وحكيم، فيمتنع مع هذه الصفات أن يقر من يتقول عليه ويدعي أن الله أرسله، وهو كاذب، قاله ابن القيم في مناظرة مع يهودي(١). نعوذ بالله أن نتقوَّل على الله، وحاشا محمدًا ﷺ ذلك.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن محذوف، أي إذا كان لا يمنعه مانع من أخذ الله له وإهلاكه فما منكم من أحد عنه حاجزين، (ما) هي الحجازية العاملة عمل ليس، و(أحد) اسمها مرفوع محلًا مجرور لفظًا بمن الزائدة لتأكيد النفي وتنصيص العموم، ﴿عَنْهُ﴾ أي عن النبي ﷺ، ﴿حَٰجِزِينَ﴾ هذا خبر (ما)، أي حاجزين لنا عن إيقاع العقاب به، والحَجْز هو الدفع والحيلولة.

---

(١) هداية الحيارى (١٨٠) تحقيق أحمد السقا، التبيان في أقسام القرآن (١١٣).

ويلحظ أن الخبر (حاجزين) جمع، وهو مطابق للاسم (أحد) فهو ـ أَيْ (أحد) ـ وإن كان لفظه مفردًا فإنه هنا في معنى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ أي القرآن، والواو حرف عطف، والجملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقد فصل بينهما تعقيبات مؤكدة لرسالته ﷺ. والتذكرة: اسم مصدر جيء به في موضع اسم الفاعل (مُذكِّر) مبالغة في وصفه بكونه مذكرًا بالله وشرعه، وقد سمى الله القرآن ذكرًا وتذكرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وقال سبحانه: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه].

قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي المؤمنين الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه ويتقون عذابه، وخص المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات صدق النبي ﷺ وتبرئته من الكذب على الله، فإنه لو كان متقولًا لما أُقر ولا أمهل.

٢ ـ أن الله لا يقر من يكذب من المتنبئين بل ينتقم منه، وقد يعاجله بذلك، وقد يمهله قليلًا لكن لا بد أن ينتهي أمره إلى الهلاك[١].

---

(١) ومما يذكر في هذا ما وقع للأسود العنسي متنبئ اليمن، ومسيلمة الحنفي متنبئ اليمامة، فإنهما ادعيا النبوة والوحي، ثم لم يلبثا حتى قُتلا، وأطفأ الله دعوتيهما فلم يذكرا بعد ذلك إلا على سبيل الذم والسخرية.

٣ ـ شناعة التقول على الله والافتراء عليه ﷻ.

٤ ـ تهديد من يكذب على الله بإهلاكه.

٥ ـ أن الكذب على الله من مدعي النبوة ولو ببعض الأمور مستلزم لنقمة الله على الكاذب وإهلاكه، فإذا انتفى اللازم وهو الإهلاك انتفى الملزوم وهو الكذب.

٦ ـ أن قطع الوتين وهو عرق القلب يؤدي إلى الموت.

٧ ـ أن من يراد قتله يؤخذ بيده اليمنى ويسحب بها.

٨ ـ عجز العباد عن الدفع عمَّن أراد الله إهلاكه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

٩ ـ أن القرآن بما فيه من أمر ونهي ووعد ووعيد، فيه تذكرة للعباد وتبصير.

١٠ ـ أن المنتفع بالقرآن هم المتقون.

١١ ـ فضيلة التقوى والمتقين.

* * *

۞ ولما ذكر البرهان على صدق الرسول ﷺ وأن القرآن حق وأن المنتفعين به هم أهل التقوى، أتبع ذلك بما يفيد حصول التكذيب به من المشركين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾ [الحاقة].

التفسير:

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾ (إنّا) هذه (إن)، واسمها ضمير الجمع الدال على العظمة ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم﴾ أيها المشركون ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ أي بالقرآن، وفي هذا تهديد للمشركين بأن الله لا تخفى عليه حالهم وما تكنه صدورهم، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الحسرة: أشد الذم، وذكرهم بالاسم الظاهر دون الضمير ذمًا لهم، وحكمًا عليهم بالكفر، ولحصول الفاصلة لتناسب الآيات، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ﴾ أي سبب حسرة للكفار في الدنيا والآخرة بسبب تكذيبهم إياه، فهذا من إطلاق المسبب وإرادة السبب، وتنكير (حسرة) للتعظيم، فحسرتهم عظيمة بالغة ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن، ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي لَلحق اليقين، أي الثابت المحقق الذي لا شك فيه، ﴿فَسَبِّحْ﴾ الفاء للتفريع، أي إذا كان الأمر كذلك من الإنعام على الرسول ﷺ بالقرآن ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ والتسبيح هو التنزيه، أي نزه ربك عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، واذكره باسمه العظيم، والباء للتعدية، والخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ للنبي ﷺ، وتدخل فيه أمته، وذكر اسمه تعالى العظيم يوجب ذكره بالتسبيح والتعظيم، وجاء عنه ﷺ أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال: (**اجعلوها في ركوعكم**)[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، والدارمي (١٣٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٧٧)، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه وإسناده صحيح.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات علم الله.

٢ ـ إثبات علم الله الحضوري، وهو علمه بالشيء موجودًا حاضرًا، لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾ بصيغة المضارع، وهذا العلم هو الغاية من ابتلاء الله للعباد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

٣ ـ التهديد والوعيد، وذلك لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾، فإن هذا هو مقتضى ذكر علم الله بتكذيب المكذبين.

٤ ـ أن من الكفار المكذب، ومنهم الجاحد.

٥ ـ أن التكذيب بالقرآن يورث الحسرة في الدنيا والآخرة.

٦ ـ أن القرآن حق اليقين؛ فكل ما أخبر به من البعث والجزاء وغير ذلك فهو حق اليقين، وهو الغاية في الصدق والتحقق، وحق اليقين أعلى مراتب اليقين، ودونها عين اليقين ودونها علم اليقين[1].

٧ ـ أن القرآن وما جاء فيه من الأنباء اليقينية موجب للتسبيح.

٨ ـ أن الإنعام على الرسول ﷺ بالرسالة والقرآن موجب للتسبيح.

---

(١) مثلوا لذلك بمن سمع عن البحر وما فيه من الماء فذلك علم اليقين، فإذا وقف على ساحله فهو عين اليقين، فإذا خاض فيه فهذا حق اليقين.

٩ ـ الأمر بالتسبيح.

١٠ ـ اعتبار ذكر اسم الله في التسبيح، وذلك بالتلفظ به، وهذا هو السر في ذكر الاسم في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهذه فائدة عظيمة نبَّه عليها ابن جرير وغيره[١].

١١ ـ إثبات الربوبية لله تعالى، لقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وهي الربوبية الخاصة للعابدين والذاكرين.

١٢ ـ إثبات (العظيم) اسمًا لله تعالى.

١٣ ـ إثبات العظمة لله تعالى من جميع الوجوه؛ ذاتًا، وقدرًا، وقهرًا، قال ابن القيم:

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ (م) عظيم لا يحصيه من إنسان[٢]

❁ ❁ ❁

---

(١) جامع البيان (٢٣/٢٤٧)، وقال ابن القيم: «عبَّر لي أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة، فقال: المعنى سبح ربك ذاكرًا اسمه، وهذه الفائدة تساوي رحلة، لكن لمن يعرف قدرها؛ فالحمد لله المنان بفضله، ونسأله تمام نعمته». (بدائع الفوائد ١/٣٦).

(٢) الكافية الشافية (٢٧٠)

سورة المعارج

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ② مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ⑦﴾.

التفسير:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع، والفعل (سأل) مضمن معنى (دعا) الذي يتعدى بالباء، كما في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ⑤⑤﴾ [الدخان]، وفائدة التضمين أنه يعطي معنى الفعلين؛ المذكور والمضمن، فهذا السائل يسأل عن العذاب، متى هو؟ ولكنه سؤال استهزاء وتهكم، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ④⑧﴾ [يونس]، كما أنه يدعو بحلول هذا العذاب به، كما حكى الله عن المشركين قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي في الآخرة، والتعبير باسم الفاعل عن المستقبل إشارة إلى تحقق وقوعه؛ كالتعبير بالماضي عن

المستقبل، واسم الفاعل أقوى في الدلالة، وآكد على ثبات معنى الوقوع، والتنكير في (سائل) يفيد تحقيره، ولم يثبت في تعيينه خبر صحيح، وفي الإخبار عنه تعجب من جهله، وسفاهة عقله.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بواقع، واللام بمعنى (على)، أي عذاب واقع على الكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] أي على الأذقان، وقيل: اللام للاختصاص، والجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو - أي ذلك العذاب - معد للكافرين. ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ الضمير المجرور يعود على العذاب، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿دَافِعٌ﴾ و(من) ابتدائية، أي ليس للعذاب دافع يرده من جهته ﷻ إذا جاء وقته، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]، وما لا دافع له من الله فليس له دافع، ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ العروج: الصعود والارتقاء، والمعارج: جمع مِعْرَج أو مِعْراج، وهو آلة الصعود من سُلَّم ومَدْرَج، أو جمع مَعْرَج - بفتح الميم - وهو طريق الصعود، ومعنى ذي المعارج: ذو المصاعد التي تصعد بها أو فيها الملائكة إليه ﷻ بالأرواح وبأعمال العباد، وعن ابن جرير في ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذو العلو والدرجات والفواضل، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥].

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تصعد ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام، وهذا من عطف الخاص على العام إظهارًا لشرف جبريل وعلو منزلته، والتعبير بالمضارع (تعرج) يفيد الاستمرار، ﴿فِى يَوْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿وَاقِعٍ﴾، أي: عذاب واقع في يوم، وهو يوم القيامة ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من

السنين المعروفة في الدنيا، ويحتمل أن الجار والمجرور ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾، فيكون المراد باليوم يوم القيامة، وبالعروج عروج الملائكة والروح في ذلك اليوم، ويحتمل أن يراد باليوم تقدير مسافة العروج ما بين أسفل الأرض إلى السماء السابعة، وإذا كان المراد باليوم يوم القيامة فلا تعارض بين هذه الآية وآية السجدة ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة]، فإن ذلك اليوم ـ أي في آية السجدة ـ هو تقدير ما بين السماء والأرض مدة نزول الأمر وعروجه.

﴿فَاصْبِرْ﴾ الفاء هي الفصيحة، أو التفريعية، أي سيقع بهم العذاب فاصبر، والخطاب للنبي ﷺ، أي فاصبر على استهزائهم، واستعجالهم بالعذاب ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ وهو الذي لا شكوى معه.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي يظنونه بعيدًا، والضمير المنصوب يعود على اليوم الذي هو ظرف للعذاب، والمعنى أنهم يستبعدونه، فالتعبير بالبعيد كناية عن معنى الإحالة؛ لأنهم لا يؤمنون بذلك اليوم ولا بالعذاب؛ كقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [قٓ: ٣].

﴿وَنَرَاهُ﴾ أي نعلمه، والواو عاطفة، ﴿قَرِيبًا﴾ أي سيقع بهم حتمًا، ولهذا قيل: كل آت فهو قريب.

الفوائد والأحكام:

١ ـ استعجال الكفار لعذاب الله جهلًا وغرورًا وإصرارًا على التكذيب.

٢ ـ وقوع العذاب بالكافرين لا محالة في أجله المعدود.

٣ ـ أنه لا دافع من الله للعذاب عنهم.

٤ ـ أن ما لا دافع له من الله فلا دافع له.

٥ ـ أن من أسمائه سبحانه ذا المعارج، وقد ثبت هذا الاسم أيضًا في السنة، كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: أهلَّ رسول الله ﷺ ـ فذكر التلبية مثل حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ قال: «والناس يزيدون (ذا المعارج) ونحوه من الكلام، والنبي ﷺ يسمعهم فلا يقول شيئًا»[(١)].

٦ ـ عروج الملائكة والروح.

٧ ـ تعدد طرق العروج إليه عز وجل.

٨ ـ إثبات الملائكة.

٩ ـ فضل جبريل عليه السلام، وهو الروح، وذلك لعطفه على الملائكة.

١٠ ـ أن الملائكة لهم عقول، وتصرف بإرادة.

١١ ـ إثبات العلو لله تعالى، لقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد، كما تقدم.

١٢ ـ بُعد ما بين أسفل العالم، وأعلاه من المركز إلى العرش.

١٣ ـ إثبات اليوم الآخر وبيان مقدار طوله، وهو خمسون ألف سنة، وهذا على الكافر، وأما المؤمن فقد قال ﷺ: (**والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة**

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٤٠٤) (١٨١٣)، وإسناده صحيح.

يصليها في الدنيا)[(١)].

١٤ ـ أن في وعيد الكفار تسلية للنبي ﷺ لقوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، وهذا مثل قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

١٥ ـ الأمر بالصبر على أذى الكفار وتكذيبهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤].

١٦ ـ الأمر بالصبر الجميل، وهو ما لا شكاية معه، كما أمر الله نبيه ﷺ بالهجر الجميل، وهو ما لا أذى معه، وبالصفح الجميل، وهو ما لا عتاب معه.

١٧ ـ أن الرسول ﷺ عبد لله يأمره الله وينهاه، لقوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾.

١٨ ـ الدلالة على قرب يوم القيامة.

١٩ ـ أن كل آت محقق، فهو قريب.

٢٠ ـ استبعاد الكفار ليوم المعاد تكذيبًا به، وإحالة له.

٢١ ـ إثبات الرؤية بمعنى العلم لله تعالى، وهي غير الرؤية المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه].

٢٢ ـ أن كل ما خالف ما في علم الله، فهو باطل.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٨/ ٢٤٦) (١١٧١٧)، وحسَّن الحافظ إسناده في فتح الباري (١١/ ٤٤٨).

۞ ولما أخبر تَعَالَى أن العذاب واقع على الكافرين ذكر صفة ذلك اليوم الذي يقع فيه، وما يكون فيه من الأهوال، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾.

التفسير:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ الظرف (يوم) أقرب ما قيل فيه: أنه بدل من (في يوم)، (فالعامل فيه هو العامل في يوم)، ويحتمل أنه متعلق بـ (يود المجرم) الآتي، وهو حسن، وعليه فيكون المعنى: في ذلك اليوم يود المجرم يوم تكون السماء كالمهل، والمهل: كدُرْدِيِّ الزيت، وهو حُثالته وخُثارته، والمعنى: أنها تكون سوداء، فوجه الشبه هو السواد في كلٍّ، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف، وجاء في القارعة: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] أي المفرق بعضه عن بعض ضد المجتمع والملتصق بعضه ببعض، والصوف إذا نفش صار لينًا وخفيفًا، شبهت الجبال به في ذلك بعد أن كانت ثقيلة وصلبة.

ولما ذكر حال السماء والجبال في ذلك اليوم ذكر حال البشر، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي ولا يسأل قريب قريبًا، ولا صديق صديقًا، لا يسأله شيئًا ينفعه في ذلك اليوم؛ لأن كلًّا مشغول بنفسه، لعظم الهول وشدة الخوف، ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يُعرَّف الحميم الحميم، والتبصير: التعريف، يقال: بصَّره وبصَّره به، أي

عرَّفه، والمعنى: يعرِّف الله كلَّ حميمٍ حميمَه، فهو يراه ويعرفه، وضمير الجمع في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يعود على الحمِيمَيْن، وهو مثنى، وذلك لأن المراد بالحميم الجنس.

واعلم أنه تم الكلام عند قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ فيحسن الوقوف عندها، ثم قال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي يحب ويتمنى المجرم، وهو الكافر، من جَرَم وأجرم، أي أذنب واكتسب الإثم، ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ الافتداء إعطاء الفداء، و(لو) مصدرية بمعنى (أن)؛ لأنها وقعت بعد فعل الودادة فلا تحتاج إلى جواب، بل هي مع ما في حيزها في تأويل مصدر مفعول ليود، أي يود الافتداء ويتمناه، وأنى له ذلك! وقد ضُمن الفعل (يفتدي) معنى يتخلص، ولذا عُدِّي بمن، فقال: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ (يومئذ) ظرف مضاف إلى ظرف، والتنوين عوض عن محذوف، أي يوم إذ تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميمًا.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي زوجته ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي قبيلته ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي تضمه وتنصره وتحميه، مضارع آوى، ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وجميع الناس وغيرِهم، ﴿جَمِيعًا﴾ حال مؤكدة.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ عطف على ﴿يَفْتَدِى﴾ أي ينجيه ذلك الافتداء من العذاب، فالضمير يعود على المصدر المفهوم من (يفتدي)، وجاءت (ثم) لاستبعاد الإنجاء، أي يتمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه!

وذِكْر الافتداء بكل من ذُكِر يدل على شدة العذاب وبذل كل

عزيز في الخلاص منه؛ بدءًا بالبنين والزوجة والأقربين، وانتهاء بكل من على وجه الأرض أجمعين.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تغير أحوال العالم يوم القيامة.

٢ ـ صفة السماء في ذلك اليوم، حيث يتحول لونها إلى السواد، لقوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهذا أحد أحوالها، وجاء أيضًا أنها تتلون بالحمرة في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمٰن]، كما أن السماء تستحيل من الشدة إلى الضعف، ومن الصلابة إلى اللين، قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ [الحاقة].

٣ ـ صفة الجبال في ذلك اليوم وأنها تكون كالعهن؛ وهو الصوف المنفوش في لينها بعد الصلابة، وهذا حال من أحوالها.

٤ ـ كمال قدرة الله، وتصرفه في هذه المخلوقات.

٥ ـ انشغال الناس بعضهم عن بعض، كل بنفسه فلا يسأل قريب قريبه شيئًا، فهم يبصِر بعضهم بعضًا، ولا ينصر بعضهم بعضًا.

٦ ـ انقطاع العلاقات التي كانت بين الناس في الدنيا، فلا يجزي أحد عن أحد، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ [المؤمنون].

٧ ـ العجز عن التناصر.

٨ ـ شدة عذاب الله للمجرمين.

٩ ـ أن المجرم يود لو يفدي نفسه من العذاب بكل حبيب؛ زوجته وبنيه وعشيرته وأخيه، وبجميع الناس لينجو.

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر سبحانه أحوال يوم القيامة وما يكون للكافر فيه حيث يتمنى الافتداء من العذاب بجميع الناس، أعقبه بنفي ما يوده ويتمناه من الافتداء، ثم وصف النار، فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾.

۞ التفسير:

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ نفي لما يوده المجرم من الافتداء والنجاء، أي لن يكون ذلك ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار المدلول عليها بذكر العذاب ﴿لَظَىٰ﴾ اسم من أسماء جهنم ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وأصل اللظى: اللهب، والنار ـ أعاذنا الله منها ـ تتلظى، أي تتلهب، كما قال سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الليل].

﴿نَزَّاعَةً﴾ حال من (لظى)، صيغة مبالغة، أي شديدة النزع ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ جمع شَواة، مثل نوى ونواة، والشوى: أطراف الإنسان: كيديه ورجليه وفروة رأسه، كلما نزعت أعيدت، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي تدعو لظى إليها كل كافر أدبر في الدنيا عن الحق مكذبًا به، وتولى عن العمل به، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة].

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي جعله في وعاء، وهذا كناية عن كنزه والبخل به، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ثم أخبر عن جنس الإنسان من حيث هو، وما هو مجبول عليه من الخلال الذميمة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي كل إنسان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي خلقه الله هلوعًا، وقد بني الفعل لما لم يسم فاعله لتعلق الخلق بأمر مذموم، فلا يُتمدح به بخصوصه، وإنما يحسن التمدح بخلق الخير امتنانًا؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين]، وبخلق كل شيء للدلالة على كمال الربوبية، وعموم القدرة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي جُبل على الهلع، وهو أشد الحرص، فيشمل الحرص على المال، والشرف، وحظوظ النفس، مما يوجب شدة الجزع لفوتها، وشدة المنع عند الظفر بها.

ثم بيَّن سبحانه معنى الهلوع، فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي المكروه من فقر ومرض ونحوهما كان ﴿جَزُوعًا﴾ أي شديد الجزع، وهو ضد الصبر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ أي المحبوب المرغوب فيه كان ﴿مَنُوعًا﴾ أي شديد المنع، وصيغة فَعُول للمبالغة، فتدل على زيادة المعنى في المواضع الثلاثة.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ تيئيس المجرم مما يود من الافتداء والنجاء.

٢ ـ صفة النار، وهي أنها تتلظى ـ أي تتلهب ـ وتنزع الشوى، وهي أطراف الإنسان وفروة رأسه.

٣ ـ أن النار تدعو إليها من كان من أهلها، وهل هو دعاء بلسان المقال، أو بلسان الحال دعاءً مجازيًا؟ الظاهر الأول.

٤ ـ تهديد المكذبين للرسل المعرضين عما دعوا إليه من عبادة الله، وطاعة رسله.

٥ ـ ذم الإنسان بالحرص وطول الأمل، كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾.

٦ ـ قلة صبر الإنسان الذي لم يخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان، لا في السراء، ولا في الضراء، وذلك عكس حال المؤمن الذي لا يقضي الله له قضاء، إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، كما جاء في الحديث[1].

٧ ـ ذم جمع المال لذات المال، وأن ذلك من شأن الكافر.

٨ ـ التحذير من هذه الأعمال؛ لأنها سبب لدخول النار.

٩ ـ أن الإنسان جبل على الهلع، إذا ابتلي بالضراء جزع، وبالسراء بخل ومنع.

١٠ ـ أن المجرم ـ الذي تقدم ذكر عاقبته ـ كان منشأ إجرامه ما جُبل عليه الإنسان من الهلع الباعث على عدم الصبر في جميع أحواله.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩)، عن صهيب رضي الله عنه.

١١ ـ إطلاق اسم الشر على الأشياء المكروهة بالطبع المؤلمة للإنسان.

١٢ ـ إطلاق اسم الخير على ما يلائم الإنسان، ويلذه ويحبه طبعًا؛ من المال، والولد، وغيرهما.

❁ ❁ ❁

❁ **ولما وصف سبحانه جنس الإنسان بالهلع البالغ، استثنى منه المؤمنين، وذكرهم بصفاتهم، فقال سبحانه:** ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناء من جنس الإنسان، فهو متصل، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي مواظبون عليها لا يدعونها ليلًا ولا نهارًا، ويحتمل أن المراد بالدوام هنا السكون والخشوع، من دام إذا سكن، ومنه الحديث: (**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم**)[1]، أي الساكن، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين. ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي نصيب مقدر من الزكاة، ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ أي الذي يسأل الناس، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي المسكين الذي لا مال له، ولا حرفة يرتزق منها، ولا يسأل الناس، فيُظن أنه غني فيُحرَم ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي

(١) رواه البخاري (٢٣٦)، ومواضع أخرى، ومسلم (٢٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يؤمنون بيوم البعث والجزاء، ويستعدون له بالأعمال الصالحة، وإيمانهم بيوم الدين معلوم من وصفهم بالمصلين لكن نص عليه لعظم شأنه؛ ولأن الإيمان بيوم الدين أحد أركان الإيمان، وكل ما ذكر من خصالهم فهو من ثمرات ذلك الإيمان، ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفون حذرون من عذاب الله على أنفسهم، ومجيء الصلة بالجملة الاسمية لأنها أدل على ثبوت وصف الإشفاق فيهم، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لا يأمنه أحد إلا من أمَّنه الله تعالى، والجملة اعتراض بين صفات المؤمنين، مؤذن بأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن العذاب، ولو بلغ في العبادة ما بلغ.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن خصال الإيمان التي أعظمها الصلاة تطهر نفس الإنسان مما جبل عليه من سيىء الأخلاق؛ كالهلع.

٢ ـ فضل المداومة على الصلاة، وهو الخشوع، والمحافظة عليها في كل الزمان.

٣ ـ فضل الإنفاق فيما يحب الله.

٤ ـ أن من مواضع الصدقة السائل والمحروم.

٥ ـ الدلالة على أن فرض الزكاة كان في مكة، وهو أحد قولي العلماء.

٦ ـ أن الصلاة والصدقة أعظم الأعمال بعد الإيمان في حق عموم الناس.

٧ ـ أن العبادة بدنية ومالية.

٨ ـ فضل التصديق بيوم الدين الذي هو يوم القيامة.

٩ ـ إثبات الجزاء على الأعمال.

١٠ ـ أن التصديق يرادف الإيمان في بعض المواضع.

١١ ـ تقديم المسبَّب في الذكر على السبب، فإن التصديق بيوم الدين سبب لما ذُكر قبل.

١٢ ـ إثبات اليوم الآخر.

١٣ ـ فضل الخوف من عذاب الله.

١٤ ـ إثبات ربوبيته ﷻ الخاصة.

١٥ ـ إضافة العذاب إلى الله.

١٦ ـ أن عذاب الله في الدنيا لا يُؤمَن وقوعه في أي وقت، وفي الآخرة لا يُؤمَن على أحد إلا الأنبياء، ومن مات على التوحيد غير مصرٍّ على ذنب من الذنوب، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

* * *

۞ **ثم ذكر من صفاتهم:** ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

۞ التفسير:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ أي عمَّا حرم الله، وهذا وصف لهم

بالعفة، والإمساك عن الفواحش، ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ الاستثناء مفرغ، الجار والمجرور متعلق بمحذوف دل عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ والتقدير: يلامون على كل مباشرة؛ إلا على أزواجهم.

قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي المباحات بعقد النكاح، جمع زوج، ويقال: زوجة ـ بالتاء ـ وهو فصيح ويجمع على زوجات، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، في صفة أول زمرة تدخل الجنة، قال: **(لكل امرىء منهم زوجتان)**[(١)].

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي السراري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي لا يؤاخذون على ذلك حيث وضعوا الشهوة فيما أباح الله عز وجل، وقدم الزوجات؛ لأنهن الأصل ولشرفهن بما لهن من حقوق، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ أي طلب ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي وراء ما أباحه الله من الزوجات والمملوكات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي المتعدون لحدود الله المتجاوزون الحلال إلى الحرام، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ وتشمل أمانات الشرع؛ وهي التكاليف الشرعية، وأمانات العباد، ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي مع الله ومع العباد ﴿رَٰعُونَ﴾ أي حافظون، فلا يخونون ولا ينقضون ولا يغدرون، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي يأتون بالشهادات على وجهها ولا يكتمونها ولا يزيدون فيها ولا ينقصون منها، وخصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات لعظم شأنها، وجُمعت الأمانات والشهادات لاختلافها، وكثرة أنواعها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها، ويراعون أركانها، وواجباتها، وسننها،

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٤)، ومسلم (٢٨٣٤).

وافتتح صفات المؤمنين بالمداومة على الصلاة، وختمها بالمحافظة عليها تنويهًا بشأنها، فإنها أعظم العبادات في الإسلام.

ثم ذكر جزاءهم، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المتصفون بالصفات الجليلة ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي في الآخرة، فيكرمهم ربهم ذو الجلال والإكرام بجميع أنواع الإكرام والإنعام، وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ خبران لاسم الإشارة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن حفظ الفرج من صفات المؤمنين.

٢ ـ فضل من يحفظ فرجه من الرجال والنساء.

٣ ـ أنه لا لوم على من استمتع بما أباح الله من زوجة ومملوكة.

٤ ـ إباحة الوطء بملك اليمين، وهذا الحكم مختص بالرجال.

٥ ـ وجوب حفظ الفرج من نظر الغير، إلا الزوجة، والمملوكة، كما في الحديث: (**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**)[1].

٦ ـ تحريم الاستمتاع والنظر لمن عدا الزوجة والمملوكة، وأن ذلك عدوان.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩، ٢٧٩٤)، عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه، وإسناده حسن.

٧ ـ تحريم الاستمناء، وإتيان الذكور، والبهائم، ومن عدا الزوجة، والسُّرِّية، لعموم قوله: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾، والمذكور كله تعد لما أباح الله.

٨ ـ إباحة الرِّق.

٩ ـ أن السُّرِّية ليست زوجة، فلا تثبت لها أحكام الزوجة.

١٠ ـ أن رعاية العهد بالوفاء، والأمانة بالأداء من خصال المؤمنين.

١١ ـ وجوب رعاية الأمانة والعهد في حقوق الله وحقوق العباد.

١٢ ـ أن القيام بالشهادة بأدائها على وجهها من خصال الإيمان.

١٣ ـ وجوب القيام بالشهادة بالعدل، قال تعالى: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

١٤ ـ أن المحافظة على الصلاة، من خصال المؤمنين.

١٥ ـ وجوب المحافظة على الصلاة.

١٦ ـ الدلالة على أن كل ما تقدم ذكره من الأعمال سبب لدخول الجنة.

١٧ ـ إثبات الجنة دار المتقين.

١٨ ـ أن الجنة جنات، ودرجات.

١٩ ـ إثبات الجزاء على الأعمال الصالحة.

٢٠ ـ الاحتفاء بأهل الجنة بالسلام؛ وحسن اللقاء من الملائكة، وبالسلام والرضوان من ربهم.

۞ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

التفسير:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الفاء للتفريع، فإنه سبحانه لما ذكر المؤمنين بصفاتهم، وما أعد لهم من الجنة، والكرامة فرع على ذلك الإنكار على الكفار كفرهم، ونفورهم عن النبي ﷺ، وعن دعوته، و(ما) اسم استفهام مبتدأ، و(للّذين) خبره، وفصلت اللام الجارة اتباعًا لرسم المصحف، ﴿قِبَلَكَ﴾ أي عندك، وهو ظرف مكان حال من الذين كفروا، ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين نافرين، وهو حال ثانية من الموصول، والمعنى: ما بال هؤلاء الكفار الذين عندك مسرعين نافرين عنك، والاستفهام للإنكار، والتعجب، والتعجيب من حالهم، وكانوا إذا سمعوا الآيات، والمواعظ من النبي ﷺ كفروا وفرُّوا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر].

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ جمع عِزَة، أي جماعة، حال من مهطعين، أي نفروا عنك جماعاتٍ متفرقة عن يمينك، وعن شمالك، وهو كناية عن جميع الجهات؛ كأن كل فرقة تُعزى إلى غير من تُعزى إليه الأخرى، ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي أيطمع كل امرئ منهم بعد هذا الفرار أن يُدخله الله جنة نعيم! والاستفهام للإنكار، أي لا يكون ذلك أبدًا، وقوله: ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي جنةً ذاتَ

نعيم، من إضافة الموصوف إلى الصفة، والنعيم ضد البؤس، وجاءت (جنة) نكرة - والله أعلم - مطابقة لاعتقادهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالجنة الحقة، فطمعهم فيما لا حقيقة له.

﴿كَلَّآ﴾ نفي لأمانيهم، وطمعهم في دخول الجنة بلا إيمان، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من الماء المهين، فكيف يكذبون بالبعث ويجحدون قدرة الله على إعادتهم، وهم يعلمون أنه الذي بدأهم أول مرة! وهذا أحد أدلة البعث التي يرد الله بها على المكذبين، وذكره في القرآن كثير، وفي الإبهام في قوله: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى حقارة ما خُلقوا منه.

۞ الفوائد والأحكام:

١ - توبيخ الكفار على إعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ، وعن تذكيره بالقرآن.

٢ - شدة نفرتهم عن الرسول ﷺ وعن القرآن.

٣ - تفرق الكفار في أقوالهم في الرسول ﷺ وفي القرآن أحزابًا وجماعات، لقوله: ﴿عِزِينَ﴾ أي جماعات، ولقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

٤ - طمع كل امرئ منهم في دخول الجنة، يقولون: لو كان هناك بعث وجنة، كما قال تعالى عن الكافر: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]، وقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]،

ويشبه هذا قوله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١١].

٥ ـ توبيخ الله للكافرين على هذا الطمع مع تكذيبهم بالبعث وتكذيب الرسول.

٦ ـ زجر الكفار عن الطمع الكاذب والظن الكاذب.

٧ ـ الإشارة إلى دليل من أدلة البعث وهو النشأة الأولى، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

٨ ـ الرد عليهم في إنكار البعث بذكر النشأة الأولى، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهو المني، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات].

٩ ـ إرشاد القرآن إلى الدلائل العقلية في الأصول؛ كالبعث، وإرسال الرسول، وذكر بعض هذه الدلائل.

١٠ ـ علم الكفار بما خلقوا منه، وهو المني.

* * *

۞ ولما ذكر شيئًا من صفاتهم السيئة أتبع ذلك بما فيه تهديدهم وتهوين أمرهم على الله تعالى، وأنه ﷻ قادر على أن يهلكهم ويأتي بخير منهم في الإيمان والطاعة، فقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

التفسير:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ (لا) زائدة لتأكيد القسم، كما تقدم بيانه، والفاء هي الفصيحة، والمعنى: إذا كان الأمر كما ذكرنا عنهم فأقسم ﴿بِرَبِّ

﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي مشارق الشمس ومغاربها، وهي تختلف بعدد أيام العام، فإن الشمس تشرق كل يوم في مشرق منها، وتغرب في مغرب، وهذا قسم عظيم يشعر بأهمية المقسم عليه، ولهذا أكده بالمؤكدات، فقال تعالى:

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي إنا لقادرون على أن نهلكهم ونأتي بقوم خير منهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وهنا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، وهو معطوف على جواب القسم فهو من جملة المقسم عليه، أي وما نحن بعاجزين، أو بمغلوبين على ذلك إن أردناه، ولكن شاء الله بحكمته إمهالهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من كلام الله تعالى القَسَم.

٢ ـ الرد على الأشاعرة القائلين بأن كلام الله معنى واحد، أي لا تعدد فيه، بل التعدد فيما هو عبارة عنه.

٣ ـ أنه سبحانه يقسم بنفسه بصفة الربوبية.

٤ ـ أن تسخير الشمس وتعدد مطالعها ومغاربها من أعظم الآيات الدالة على ربوبيته سبحانه؛ لأنها أثر من آثاره.

٥ ـ تعدد مطالع الشمس ومغاربها، وكذا القمر والكواكب، وذلك أن لها في كل يوم مشرقًا ومغربًا على مدار السنة، كما أن لها مشرقين، ومغربين باعتبار مطالعها في الصيف والشتاء، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمٰن]، وباعتبار جهة

المطالع والمغارب جملة جاء ذكر المشرق والمغرب مفردًا، كما في قوله سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل]، وبهذا يظهر الجمع بين الآيات.

٦ ـ إثبات الربوبية العامة.

٧ ـ إثبات صفة القدرة لله تعالى.

٨ ـ إثبات قدرته تعالى على الموجود، والمعدوم.

٩ ـ نفي العجز عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لكمال قدرته.

١٠ ـ أنه لا يغلبه عَزَّ وَجَلَّ على ما يريد غالب.

١١ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله عَزَّ وَجَلَّ.

١٢ ـ الدلالة على غناه تعالى عن المكذبين.

١٣ ـ تسلية النبي ﷺ بالوعد بأن يأتي الله بخير منهم يؤمنون به وينصرونه.

١٤ ـ تهديد الكافرين بقدرة الله عليهم، وأنهم لن يفوتوه سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال].

❁ ❁ ❁

۞ ثم التفت بالخطاب إلى النبي ﷺ مثبتًا له عليه الصلاة والسلام بتهديدهم ووصف أحوالهم يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾.

التفسير:

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء للتفريع، فالكلام مفرع على ما قبل، أي إذا تبين أنا غير مسبوقين وأن تأخير عذابهم ليس لعجز بل لحكمة ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ أي دعهم أيها النبي فيما هم فيه من الأباطيل والكفر ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم البعث والقيامة، فسيعلمون عاقبة أمرهم، حيث لا ينفعهم هناك توبة ولا ندم، وأضاف اليوم إلى ضميرهم؛ لأنه اليوم الذي أوعدوا فيه بالعذاب، ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَهُمُ﴾ ليس ظرفًا؛ لأنه بدل من المفعول به، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور، جمع جَدَث ﴿سِرَاعًا﴾ أي إلى المحشر، جمع سريع، كظريف وظِراف، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون ويستبقون، والنُّصُب ما نُصب للعبادة من دون الله، ويجمع على أنصاب، وهذه قراءة ابن عامر وحفص عن عاصم، وقرأ الجمهور (نَصْب) ـ بفتح النون وإسكان الصاد ـ، ومعناه العَلَم المنصوب، ومنه ما نُصب للعبادة؛ كالأصنام، فمؤدى القراءتين واحد.

والمعنى: أنهم يسرعون الخروج من القبور إلى المحشر كما يسرعون المشي إلى الأصنام.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة خاضعة، فلا يرفعونها خوفًا وذلة، و(خاشعة) حال من فاعل (يوفضون)، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم ذلة عظيمة وهوان، جزاء وفاقًا لاستكبارهم السابق، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ أي اليوم الذي يخرجون فيه من الأجداث هو اليوم ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي

في الدنيا بالعذاب فيه، وهم يكذبون به، وما وعد الله به فهو حق وواقع، وهذا هو العذاب الذي سألوا عنه، وقد رجع آخر السورة إلى أولها، وهذا في البلاغة من قبيل رد الأعجاز على الصدور.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تهديد الكافرين بالإمهال إلى حين بعثهم في اليوم الموعود، وهو يوم القيامة الذي يجدون فيه جزاء خوضهم، ولعبهم.

٢ ـ ذم الكفار بالأعمال والعلوم الباطلة، فأعمالهم لعب لا خير فيه، وخوض فيما لا يصح من العلوم ولا فائدة فيه.

٣ ـ الرد على الجبرية لقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾.

٤ ـ إثبات اليوم الآخر.

٥ ـ بيان الحال التي يكون عليها الكفار عند الخروج من القبور، وهي أنهم يسرعون إلى مكان معين وجهة معينة، وهي جهة الداعي، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر]، وأبصارهم إذ ذاك خاشعة، أي ذليلة، وهي شاخصة، أي تحد النظر، رافعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم، أي لا يكفون عن النظر، ولا يطرفون لحظة، وذلك لشدة الخوف ولهول الموقف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم].

٦ ـ شدة ذل الكافرين عند خروجهم من القبور، لقوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

٧ ـ أن يوم خروجهم من القبور على هذه الأحوال، هو اليوم الذي كانوا يوعدونه على ألسن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وكانوا به يكذبون.

سُورَةُ نُوحٍ

هذه السورة تسمى سورة (نوح)، وجاءت كلها في الحديث عن نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، وقصته مع قومه، ونوح هو أبو البشرية الثاني بعد آدم عليه السلام، فإن جمهور العلماء يرون أن البشر كلهم يرجعون إلى أبناء نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات]، ونوح أول رسول أرسله الله، كما جاء ذلك في حديث الشفاعة المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: **(قال آدم: إيتوا نوحًا أول رسول أرسله الله)**[(١)].

وكان الشرك أول ما وقع في قوم نوح، حيث أوحى الشيطان إليهم حين هلك فيهم جماعة من الصالحين أن انصبوا إلى مجالسهم التي يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

فنوح أول رسول شرعت له الشرائع، وأول رسول أنذر قومه من الشرك، وأهلكت أمته، وأما آدم قبله فقد كان على شريعة، ولم يقع شرك في عهده بل كان الناس على التوحيد.

---

(١) البخاري (٤٢٠٦)، ومواضع أخرى، ومسلم (١٩٣).
(٢) رواه البخاري (٤٦٣٦).

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

❁ التفسير:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ افتتاح الكلام بإن لتوكيده والعناية بمضمونه، ونوح علم أعجمي، وصرف لأنه ثلاثي ساكن الوسط، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ القوم: الجماعة من الناس، وإذا أفرد شمل الذكور والإناث، وإذا عطف النساء على القوم اختص بالرجال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء[١]

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ (أنْ) مفسرة، بمعنى (أيْ)؛ لأن الإرسال فيه معنى القول، فجملة ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ هي مضمون ما أرسل به نوح إلى قومه، ويجوز أن تكون (أن) مصدرية، فتكون مع مدخولها في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي بأن أنذر أو بإنذار، والإنذار: الإخبار بما يخاف منه، ﴿مِن قَبْلِ﴾ (من) زائدة للتوكيد، وقد صحح جماعة من محققي النحويين زيادتها في الإثبات، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن لم يؤمنوا، وأليم بمعنى مؤلم.

---

(١) ديوان زهير (٧٣).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ افتتاح الخطاب بـ (يا قوم) إيذان بأهمية ما سيلقيه إليهم، ولطلب إقبال أذهانهم، فإنه يخاطبهم في مجمعهم، وأضافهم إلى نفسه ليأخذوا قوله مأخذ قول الناصح المتطلب الخير لهم؛ لأن المرء لا يريد لقومه إلا خيرًا، وحذفت ياء المتكلم من المنادى المضاف إليها تخفيفًا، على الاستعمال المشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلم.

وقوم نوح هم أهل الأرض كلهم؛ لأنه لم يكن إذ ذاك سواهم، ويظهر أنهم ليسوا كثيرين، ثم هم قريبو العهد ـ نسبيًا ـ من أبي البشر آدم عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم كانوا على شريعة من الحق، فاختلفوا بعد ذلك»[1].

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قدم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ للاهتمام والعناية بهم، و﴿نَذِيرٌ﴾ أي منذر، و﴿مُّبِينٌ﴾ أي بيِّن النِّذارة، من أبان اللازم الذي هو بمعنى بان، وفي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ امتثال لأمره تعالى في قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إجمال القصة في أول آية ثم تفصيلها بعد ذلك.

٢ ـ التنبيه على عظمة الله؛ لأنه سبحانه ذكر نفسه بصيغة الجمع الدالة على التعظيم في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، وهو سبحانه يذكر نفسه بصيغة الجمع والإفراد مظهَرًا أو مضمَرًا، وشواهد هذا في

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٦٢١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٦)، وقال: «صحيح على شرط البخاري».

القرآن لا تحصى، بخلاف ذكر العبد ربه ذاكرًا أو مخبرًا أو داعيًا؛ فلا يذكره العبد إلا بصيغة الإفراد الدالة على التوحيد، لتحقيق التوحيد، كما جاء في هذه السورة من قول نوح: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾، إلى قوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ إلى آخر السورة: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وقوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ الآية، وهذا باب مطرد في دعاء الأنبياء والملائكة والمؤمنين.

٣ ـ رحمة الله بإرسال الرسل إلى الناس، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

٤ ـ الدلالة على أن نوحًا مرسل من عند الله تعالى.

٥ ـ فضيلة نوح عليه السلام، حيث كان أول الرسل، وأحد أولي العزم، وقد ثنَّى الله قصته في القرآن مجملة ومفصلة، وأفردها في هذه السورة.

٦ ـ أنه مرسل إلى القوم الذين هو منهم، وهذه سنَّة الله في إرسال الرسل.

٧ ـ أن من مقاصد الرسالة النِّذارة.

٨ ـ أنه قد قام بقوم نوح سبب العذاب، وهو الشرك.

٩ ـ إعذار الله العباد بإرسال الرسل لئلا تكون لهم عليه حجة.

١٠ ـ شدة عذاب الله، يؤخذ هذا من تنكير لفظ العذاب ووصفه بأليم، أي مؤلم.

١١ ـ أن نوحًا عليه السلام أنذر قومه كما أمره الله.

١٢ ـ ظهور الصدق في دعوة الأنبياء، لقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾.

١٣ ـ التودد في الدعوة باستمالة قلوب المدعوين، لقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

❀ ❀ ❀

❁ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

التفسير:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (أن) مفسرة لقوله: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢]؛ لأن الإنذار فيه معنى القول، أو مصدرية، كما قيل في الآية السابقة ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي أفردوه بالعبادة، فإنه ما لكم من إله غيره، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بترك الشرك والمعاصي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ الفعل المضارع مجزوم؛ لأنه جواب طلب، وغفران الله للذنب تجاوزه عنه وستره، و(مِن) للتبعيض؛ أي يغفر لكم ما سلف من الذنوب، كما قال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي يمد في أعماركم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت مقدر معلوم بقضاء الله وقدره، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ وهو الموت أو وقته المقدر، وأضافه إليه سبحانه؛ لأنه الذي أثبته، وقد يضاف إلى القوم؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]؛ لأنه مضروب لهم. ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(لو) شرطية، وفعل الشرط (كنتم)، والجواب محذوف تقديره: لآمنتم، واللائق بالقارئ أن يقف عند قوله: ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ ثم يستأنف؛ لأن الوصل يؤدي إلى أن يكون المعنى: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر بشرط علمكم، وليس ذلك بصحيح.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أصول عبادة الرسل، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتقواه، وطاعة رسله.

٢ ـ وجوب عبادة الله تعالى، والتقرب إليه بما شرع.

٣ ـ وجوب تقوى الله بترك ما نهى عنه.

٤ ـ وجوب طاعة الرسول نوح عليه السلام.

٥ ـ وجوب طاعة الأقوام لرسلهم.

٦ ـ أن القيام بهذه الواجبات سبب لمغفرة الذنوب.

٧ ـ ضرر المعاصي على العباد.

٨ ـ أن عبادة الله وتقواه وطاعة رسله، سبب لطول العمر والمتاع الحسن، وهو طيب الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣]، وقال عز وجل: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل].

٩ ـ الدلالة على أن الإعراض عن عبادة الله، وطاعته، وطاعة رسله سبب للمعاجلة بالعقاب.

١٠ ـ أن الآجال مقدرة، وأنها لا تتأخر عن وقتها المعلوم،

كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾ [المنافقون: ١١].

١١ ـ أن من أُمهل فإلى أجل مسمى؛ إذ لا بقاء.

١٢ ـ أن من أُخر إلى أجل بسبب، فالسبب والمسبَّب قد سبق بهما العلم والكتابة، فلم يحدث خلاف ما سبق به القدر، لقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾.

١٣ ـ فضل العلم، لقوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٤ ـ أن العلم سبب للتمييز بين الأمور، والأخذ بالأسباب النافعة المنجية، والحذر من أسباب الهلكة.

❁ ❁ ❁

❁ **ثم أخبر الله عن شكوى نوح إليه سبحانه، وما لقي من قومه ودعوتهم، فقال سبحانه:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

التفسير:

﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي قال نوح على سبيل الشكاية لربه بعد أن بذل الجهد واستفرغ الوسع في الدعوة ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى﴾ إلى الإيمان ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائمًا في جميع الأوقات امتثالًا لأمرك ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي هربًا من الإيمان وتباعدًا منه، وهذا ضد المراد منهم، وأسند زيادة الفرار إلى الدعاء؛ لأنه سبب فيه، كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه، وذكر المغفرة بدل الإيمان ـ وهي ثمرته ـ بيانًا لفساد رأيهم وشدة نفورهم حتى عمَّا هو مصلحة محضة لهم، ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا دعائي، وهذا منهم مبالغة في مخالفته، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي غطوا بها وجوههم لئلا يروني، كراهية له، والسين والتاء للمبالغة، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على الكفر ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبول الحق ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ عظيمًا، وفي توكيد الفعل بمصدره إشارة إلى فرط عتوهم، وإمعانهم في الضلال، ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي جهرًا بصوت مرتفع، ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي خطابًا علنًا بحضور جمعهم، وعلى مشهد منهم، والفرق بين الجهر والإعلان أن الجهر نوع من الإعلان، فهو أخص منه، فكل منهما فيه إظهار، والجهر أشد إظهارًا. ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي ساررتهم أفرادا، كل واحد على انفراد.

وفي الكلام تفصيل بعد إجمال، حيث ذكر أولًا أنه دعاهم ليلًا ونهارًا، ثم ذكر أنه دعاهم بشتى الطرق؛ إذ دعاهم جهارًا وإسرارًا، وفي العطف بثم في الموضعين إشارة إلى أنه يستغرق وقتًا طويلًا في كل مرحلة.

ثم ذكر الله ما كان نوح عليه السلام يعظهم به، فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي اطلبوا منه سبحانه المغفرة بالإيمان به، وتوحيده ودعائه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي كثير الغفران لمن تاب من الشرك والمعاصي، و(كان) ليست دالة على زمان، وإنما هي دالة على تحقق اتصاف اسمها

بما دل عليه خبرها، وأن وصفه سبحانه بالمغفرة ذاتي، أي أزلًا وأبدًا.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾ أي المطر، أو السحاب ﴿مِّدْرَارًا﴾ كثير الدُّرور، أي النزول، وهو حال من السماء، ولم يؤنث؛ لأن مِفعالًا يستوي فيه المذكر والمؤنث، ومنه رجل مِعطار، وامرأة مِعطار، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أي يعطكم الأموال، والبنين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين عظيمة، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أي جارية تسقيكم، وتسقي بساتينكم ودوابكم، كما قال تعالى: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩]، وفي تكرار الفعل (يجعل) تأكيد للامتنان وأن كلًّا مما ذكر نعمة مستقلة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ شكوى نوح عليه السلام إلى ربه عصيان قومه مع اجتهاده في دعوته، والإلحاح عليهم.

٢ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٣ ـ شدة كفر قوم نوح.

٤ ـ دأب نوح في دعوة قومه كل وقت بكل طرق الدعوة.

٥ ـ الجد والمثابرة في الدعوة إلى الله، أسوة بنوح وإخوانه من الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام.

٦ ـ شدة كراهة قوم نوح، لدعوته إياهم.

٧ ـ أن كفر قوم نوح من قبيل الإباء، والاستكبار.

٨ ـ مبالغتهم في الإعراض عن دعوته بوضع أصابعهم في آذانهم، واستغشائهم ثيابهم.

٩ - إرادة نوح الخير لقومه في دعوته.

١٠ - التنويع في أساليب الدعوة بالجهر، والإسرار، وغير ذلك.

١١ - الأمر بالاستغفار، والمراد به الاستغفار المقرون بالتوبة.

١٢ - أن الاستغفار سبب للمغفرة.

١٣ - إثبات صفة المغفرة لله ﷻ، وأنه لم يزل غفارًا.

١٤ - أن الاستغفار من الذنوب والرجوع إلى الله سبب لفتح بركات السماوات والأرض؛ من نزول الغيث المتتابع وكثرة المال والولد، لا سيما أفضل نوعي الولد، وهم البنون.

❁ ❁ ❁

❁ وبعد أن نصح نوح عليه السلام قومه، ورغبهم في الإيمان عاد فوبخهم على الكفر، كما قال سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

التفسير:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي لا تخافون لله عظمة، أو لا ترجون الله العظيم فتؤمنوا به! ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ﴾ أي والحال أنه خلقكم ﴿أَطْوَارًا﴾ أي في أطوار مختلفة؛ فطورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة إلى تمام الخلق، والطَّور في اللغة الحال، والمعنى ما لكم لا تؤمنون بالله وهذه حالكم التي توجب الإيمان بخالقكم!

ولما نبههم إلى النظر في أنفسهم أمرهم بما هو أكبر من ذلك، وهو النظر في العوالم العلوية والسفلية، وبدأ بالسماء؛ لأنها أعظم الآيات، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ نظر اعتبار وتفكر، والاستفهام للتقرير، ﴿كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي سماء فوق سماء في غاية الإحكام والحسن، وطباق جمع طبق مثل جبل وجبال، والرؤية علمية؛ إذ لا يُرى بالبصر إلا سماء واحدة، والعلم بأن السماوات سبع إنما جاء من طريق الوحي، وفيه أنهم يعرفون ذلك من قبل ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي للأرض ومن فيها ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي مصباحًا مضيئًا، وعبَّر في حق الشمس بالسراج وفي القمر بالنور؛ لأن نورها أشد وأتم، ولأنها تبعث الحرارة، بخلاف القمر فنوره ضعيف، ولا حرارة فيه.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ امتنان الله على عباده بخلقهم.

٢ ـ احتجاج نوح على قومه في دعوتهم إلى عبادة الله، بما يعلمون من آثار ربوبيته سبحانه، وآياته الكونية من السماوات السبع والشمس والقمر.

٣ ـ أن التفكر في هذه المخلوقات، مما يهدي العقول إلى الإيمان بالله.

٤ ـ اعتبار الأدلة العقلية، وقد أرشدت إليها الآيات الشرعية.

٥ ـ أن الله جل وعلا خالق السماوات.

٦ ـ أن السماوات محدثة، وليست قديمة كما تقول الفلاسفة.

٧ ـ أن السماوات سبع.

٨ ـ أن السماوات طباق بعضها فوق بعض.

٩ ـ أن الشمس والقمر أظهر الآيات السماوية.

١٠ ـ أن الله جعل القمر نورًا للعباد في الليل.

١١ ـ أن آية الشمس أعظم من آية القمر لشدة ضوئها وتوهجها؛ فبها يحصل النهار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ].

١٢ ـ أن الأجرام العلوية مخلوقة لله محدثة وليست قديمة، خلافًا للفلاسفة.

❀ ❀ ❀

۞ ثم عاد إلى التذكير بأصل خلق الإنسان لما فيه من الدلالة على عظمة خالقه، وكمال قدرته واستحقاقه للعبودية، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

التفسير:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم﴾ أي أنشأكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي من تراب الأرض؛ لأنه خلق آدم منه، وخلقكم من آدم، واستعير الإنبات للإنشاء؛ لأنه ينشأ من الأرض شيئًا فشيئًا، وهكذا نشأة البشرية.

﴿نَبَاتًا﴾ توكيد لأنبت، وهو اسم مصدر، والمعنى أنبتكم نباتًا

عجيبًا ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها للبعث والجزاء الذي تنكرونه ﴿إِخْرَاجًا﴾ محققًا لا ريب فيه.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي مبسوطة ممهدة لكم ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي طرقًا واسعة، جمع فجٍّ، والمعنى أنه سبحانه بسط الأرض ومهَّدها لكم لتستقروا عليها، وتتنقلوا فوقها بسهولة كيف شئتم، وهذا داع إلى شكره وإفراده بالعبادة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن خلق الإنسان الأول من الأرض، أي من مادة الأرض، من التراب، من طين، من حمأٍ مسنون.

٢ ـ تشبيه نشأة الناس من الأرض بنشأة النبات من حيث وحدةُ المبدأ من الأرض، وتكثُّر الفروع، كما هو شأن الحبة، فقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ كقوله: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣٢].

٣ ـ عودة كل إنسان إلى الأرض بموته والدفن فيها، أو ذهاب أجزائه في أقطارها، أو بحارها.

٤ ـ إخراج الناس من قبورهم، وبعثهم يوم القيامة.

٥ ـ امتنان الله على العباد بجعل الأرض لهم بساطًا، وهذا كقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾ [النبأ].

٦ ـ أن من نعم الله بسط الأرض، وجعل الطرق الواسعة مسالك الناس إلى نواحي الأرض، وهذا لا ينافي ما ثبت من كُرويّة

الأرض؛ فإن سطح الأرض إذا كان واسعًا أمكن أن يكون بساطًا، والأرض كذلك.

* * *

۞ ولما يئس نوح من إيمانهم شكا إلى ربه ما لقي منهم من قبيح الأقوال والأفعال، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾.

التفسير:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ أي يا رب ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم من عبادة الله وتقواه ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي خسرانًا، والمعنى أنهم اتبعوا رؤساءهم وأغنياءهم ﴿وَمَكَرُوا﴾ أي الرؤساء ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي كبيرًا جدًا، وذلك بتكذيب نوح، وإيذائه وصرف الناس عنه، والكُبَّار أبلغ من الكُبَار (بالتخفيف) وهو - أي الكُبار - أبلغ من الكبير، كما يقال: رجل طويل، وطُوَال، وطُوَّال.

﴿وَقَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي لا تتركوا عبادتها إلى ما يدعوكم إليه نوح، ثم سموها قائلين: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ فهذا من قبيل التفصيل بعد الإجمال، ويحتمل أنه من عطف الخاص على العام لدخولها فيما سبق، وإنما خصوها بالذكر؛ لأنها كانت أعظم الأصنام عندهم، وهذه الأسماء - كما قال ابن عباس - كانت لرجال صالحين من قوم

نوح ماتوا، فأوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت، وتقدم ذكر ذلك.

وقد ورث مشركو العرب هذه الآلهة، فبعثوها من مرقدها على يد عمرو بن لحي، وعبدوها كما عبدوا غيرها من الأصنام، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعدُ؛ أما وَدٌّ فكانت لكلب بدُومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يَغُوث فكانت لمُراد ثم لبني غُطَيف بالجَوف عند سَبأ، وأما يَعُوق فكانت لهمْدان، وأما نَسر فكانت لحمير لآل ذي الكَلاع»[١].

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ أي خلقًا كثيرًا بإغوائهم لهم، وهذا من تتمة كلام نوح وشكواه إلى ربه، وكذلك ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي ولا تزد المشركين يا رب إلا بُعدًا عن الحق وإعراضًا عنه، ومن لازم ذلك هلاكهم، فأهلكهم الله، وقيل: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي الأصنام، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم].

الفوائد والأحكام:

١ - تحريض أئمة الضلال المستكبرين لأتباعهم على الثبات على عبادة آلهتهم.

(١) صحيح البخاري (٤٦٣٦).

٢ ـ أن آلهة قوم نوح خمسة: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، ويحتمل أنها أكثر من ذلك، وأن ما ذكر أشهرها، على الاحتمال الذي سلف في التفسير.

٣ ـ أن قوم نوح مشركون بعبادة الأصنام.

٤ ـ أن حدوث الشرك في العالم كان في قوم نوح، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٥ ـ أن نصب التماثيل والعكوف على القبور سبب لحدوث الشرك، على ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره.

٦ ـ أن الكثير يأتي بمعنى الأكثر، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

٧ ـ كثرة من أضلهم أئمة الضلال.

٨ ـ أن الشرك ظلم، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

٩ ـ جواز الدعاء على الكفار المتمردين المعاندين.

١٠ ـ الرد على القدرية في قولهم: إن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله وقدرته.

❋ ❋ ❋

۞ ثم استجاب الله دعاء نبيه نوح ـ كما سيأتي ذكره ـ فأهلك قومه بالطوفان، قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

التفسير:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ أي بسبب خطيئاتهم من الكفر والمكر وأذى النبي وأتباعه، و(مما) أصلها (مِنْ) و(ما)، و(مِن) سببية، فهي في الآية مثلُها في قوله ﷺ: (**إنهما ليعذبان، وما يعذبان من كبير**)[1]، و(ما) مؤكدة لمعنى التعليل.

﴿أُغۡرِقُواْ﴾ أي في الدنيا بالطوفان، وتقديم (مما) لبيان أنهم لم يعذبوا إلا من خطاياهم لا من أمر آخر، ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ المراد عذاب البرزخ؛ لأن الفاء للتعقيب، فتقتضي أنهم نقلوا من الغرق إلى النار.

﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من دون عذاب الله ﴿أَنصَارٗا﴾ ينصرونهم ويمنعون عنهم العذاب، وفيه التحذير لمن كان على شاكلتهم أن يحل به ما حل بهم.

ويُلحظ أن قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ جاء متقدمًا على دعاء نوح عليهم بالهلاك، وذلك ـ والله أعلم ـ لوصل العقوبة بسببها، وهو شركهم، وعصيانهم، ومكرهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله أهلك قوم نوح بالغرق، كما فصَّل الله ذلك في سورة هود وغيرها.

٢ ـ أنهم أغرقوا بسبب ذنوبهم من الشرك، وتكذيب الرسول.

---

(١) صحيح البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٢٩٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٣ ـ أن الخطيئات سبب العقوبات، وهي سنَّة الله في الأمم المكذبة لرسلهم.

٤ ـ الرد على نفاة الأسباب من الجهمية، والأشاعرة.

٥ ـ عقوبة قوم نوح بدخول النار.

٦ ـ الجمع بين العقوبتين؛ عقوبة الدنيا والآخرة.

٧ ـ أن قوم نوح لم يجدوا لهم أنصارًا يمنعونهم من عذاب الله.

٨ ـ الدلالة على عذاب القبر، لقوله: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾.

٩ ـ تعظيم شأن النار لمجيئها نكرة.

١٠ ـ تحقق ما أنذر منه نوح قومه من العذاب.

١١ ـ أن دعوته عليه السلام قد أجيبت.

١٢ ـ الإخبار عن إجابة دعاء نوح على قومه قبل الإخبار عن دعائه.

١٣ ـ التنبيه إلى عجز آلهتهم عن نصرتهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١].

* * *

﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾.

التفسير:

﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ عطف على قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ وما بينهما وهو قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ اعتراض مبين لمصيرهم وسبب استحقاقهم للعذاب، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي حيًّا على الأرض يدور ويتحرك، و(ديَّار) من الأسماء التي لا تستعمل إلا في النفي العام لإرادة توكيد نفي وجود أحد من الناس، يقال: ما في الدار ديَّار وعَريب وصافر، أي ما فيها أحد.

وقد استجاب الله دعاءه فهلكوا أجمعين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

ثم ذكر السبب الحامل له على الدعاء عليهم، فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أحياء ﴿يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ عن الحق ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي إلا من يكون كذلك، والفاجر هو الذي جاوز الحد في ارتكاب الآثام، والكفَّار صيغة مبالغة، أي عظيم الكفر، وإنما قال نوح ذلك لعلمه بأحوالهم، وأن أولادهم يكونون مثلهم في الكفر والضلال والعناد؛ فإنه قد لبث في دعوتهم ألف سنة، إلا خمسين عامًا.

ثم دعا لنفسه وللمؤمنين فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾، وكانا مؤمنين، ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ هذا قيد يخرج به غير المؤمن كامرأته وابنه، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ وهذا عام لكل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي هلاكًا وخسارًا، من تَبِر ـ كفرح ـ

إذا هلك، وهذا تأكيد لدعائه السابق عليهم، ويحتمل أنه عام لجميع الظالمين.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ دعاء نوح على قومه بالهلاك العام.

٢ ـ أن الباعث له على دعائه عليهم هو كفرهم، وإضلالهم لغيرهم، واستمرار ذلك في أجيالهم.

٣ ـ التوسل إلى الله بصفة الربوبية.

٤ ـ غضب نوح على قومه، ولكنه من الغضب لله.

٥ ـ استجابة الله لدعوة نوح بإهلاك الكافرين.

٦ ـ استغفار نوح ربه لنفسه ولوالديه، ومن دخل بيته مؤمنًا، والمؤمنين والمؤمنات.

٧ ـ أن والدي نوح مؤمنان؛ لأنه عليه السلام لم يدع إلا للمؤمنين.

٨ ـ البشارة لكل مؤمن لاستغفار نوح نبي الله له.

٩ ـ أن الاستغفار من هدي الأنبياء، كما استغفر الأبوان آدم وزوجه، وإبراهيم، وموسى وأيوب ونبينا محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

١٠ ـ كمال عبودية الأنبياء وتواضعهم لربهم، وخوفهم من التقصير.

١١ ـ أن السنَّة في الدعاء البداءة بالنفس، لقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

[محمد: ١٩]، وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا بدأ بنفسه[١].

١٢ ـ أن دخول البيت سبب لرابطة بين صاحب البيت والضيف.

١٣ ـ الدلالة على جواز التخصيص بالدعاء، ومشروعية التعميم.

١٤ ـ عناية الأنبياء والمصلحين بإسعاد الأجيال الحاضرة واللاحقة؛ ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾، فطلب إهلاكهم لئلا يضلوا من جاء بعدهم.

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٨٤)، وأصله في صحيح مسلم (٢٣٨٠) بلفظ: «وكان إذا ذكر أحدًا من الأنبياء بدأ بنفسه».

سُورَةُ الجِنّ

روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له فرجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾. وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[1].

۞ قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾.

۞ التفسير:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي أوحى الله إليّ.

---

(١) البخاري (٤٦٣٧)، ومسلم (٤٤٩).

الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، وفعله ثلاثي ورباعي، يقال: أوحى إليه وله، ووَحَى إليه وله، ولم يرد الثلاثي في القرآن[١].

والوحي في اصطلاح الشرع: ما يُلقى إلى النبي من عند الله ﷻ، ولقد غلب هذا الاستعمال الشرعي للفظ في النصوص، وفي كلام العلماء.

﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ الضمير ـ الهاء ـ ضمير الشأن، ولا يستعمل إلا في أمر يراد تعظيمه وتفخيمه، وهو هنا خبر استماع الجن.

﴿اسْتَمَعَ﴾ أقوى من (سمع)؛ لأنه سماع عن إرادة، ﴿نَفَرٌ﴾ النفر ما بين الثلاثة والعشرة، ويطلق على ما فوق ذلك تجوزًا، كما يطلق جمع القلة على ما فوق العشرة، وهذا هو الظاهر في الآية فإن نفر الجن هؤلاء كثير، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن].

و(النفر) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وإطلاقه على الفرد غير فصيح.

وفي ﴿نَفَرٌ﴾ إبهام بيَّنه قوله: ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ واحدهم جنِّي، مثل: روم، ورومي، وسموا بذلك لاستتارهم، وهم عالم غيبي مخلوق من نار، ليسوا أجسادًا، ولا يراهم الناس إلا أن يتشكلوا، وهم يسكنون الأرض بعد أن أهبط أبوهم الجان إبليس إليها، كما أهبط أبونا آدم.

---

(١) قال ابن خالويه في شرح الفصيح: «قد أجمع الناس جميعًا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن، لا خلاف في ذلك»، المزهر للسيوطي (١/ ٢٣١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

واسأل أبا الجنِّ اللعين أتعرف الـ خلاقَ أم أصبحت ذا نكرانِ(١)

ومفعول ﴿أَسْتَمَعَ﴾ محذوف دل عليه ما بعده، أي استمعوا القرآن، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي لقومهم بعد استماعهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾(٢)

---

(١) الكافية الشافية (٤٨) تحقيق علي حسن.

(٢) قال شيخنا عبد الرحمٰن البراك وفقه الله: «القرآن اسم من أسماء الكتاب العزيز، المنزل على محمد ﷺ، وهو ما بين دفّتي المصحف، المفتتح بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المختوم بسورة الناس، بل القرآن أشهر أسمائه وأخصها، وأصل الكلمة مصدر قرأ بمعنى جمع، أو قرأ بمعنى أظهر.
فالقرآن في اللغة بمعنى الجمع، أو بمعنى القراءة؛ لأن القارئ يظهر الكلام بتلاوته، وإطلاق هذا الاسم على القرآن من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، فهو قرآن بمعنى مقروء أي مجموع؛ لأنه مجموع من سور وآيات.
ومتلوّ؛ لأنه تتلوه الملائكة والرسول ﷺ والمؤمنون، كما قال تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات]، وقال سبحانه: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢].
وقد سمى الله كلامه الذي أوحاه إلى محمد ﷺ قرآنًا تارة معرفًا بـ (أل)، وتارة غير معرف؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]، وقوله سبحانه: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [صٓ] وقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس]، وقوله ﷻ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [قٓ].
ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]، وقوله عز شأنه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف]، وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، ونظائر ذلك كثيرة.
والمعرف بـ (أل) قد يراد به جملة الكتاب العزيز مثل الآيات المتقدمة، وقد يراد به بعضه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر] على أن المراد بالقرآن العظيم الفاتحة كما جاء في حديث أبي سعيد بن المعلى عند البخاري وفيه أن النبي ﷺ قال له: (**لأعلمنك أعظم سورة في القرآن**) ثم قال: (**الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**).
وأما غير المعرف بـ(أل) فيأتي تارة اسمًا كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١] وتارة صفة واقعة حالًا أو مفعولًا ثانيًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ =

أي: عجيبًا، وهذا وصف بالمصدر للمبالغة في قوة المعنى، وذلك لبلوغه الغاية فهو عجبٌ نفسُه؛ لفصاحة كلامه وحسن مبانيه، ودقة معانيه، وغرابة أسلوبه، وبلاغة مواعظه، وكونه مباينًا لسائر الكتب، والعجب ما خرج عن حد أشكاله ونظائره.

﴿يَهْدِىٓ﴾ أي القرآن ﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي الخير والصواب، والتعبير بالمضارع إشارة إلى تجدد هداية القرآن، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي صدقنا به وأنه من عند الله ﷻ، وأجبنا الداعي، والفاء تقتضي الترتيب والتعقيب، أي إنهم آمنوا به إثر استماعهم إياه.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن القرآن كله من عند الله ﷻ، لقوله: ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ التنبيه إلى أهمية الجملة والعناية بمضمونها، فافتتاحها بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ دليل على الاهتمام بما تضمنته، وحث للمخاطبين على التأمل فيما بعد الأمر.

٣ ـ أن رسول الله ﷺ عبدٌ توجَّه إليه الأوامر، لقوله: ﴿قُلْ﴾، فهو عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

= قُرْءَٰنًا﴾ [يوسف: ٢] وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

وقد جاء لفظ (قرآن) مرادًا به القراءة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة] وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي القراءة في صلاة الفجر عُبّر بها عن صلاة الفجر، كما عُبر عن الصلاة ببعض واجباتها من الركوع والسجود والتسبيح. وخُصّت صلاة الفجر بذلك لأنها تُطوَّل فيها القراءة، ويُجهر بها، والله أعلم».

٤ ـ تشريف النبي ﷺ حيث يوجه إليه الخطاب الإلهي.

٥ ـ أمر الرسول ﷺ أن يخبر بما أوحي إليه من خبر الجن.

٦ ـ أن الرسول ﷺ لم يعلم باستماع الجن للقرآن، إلا من الوحي.

٧ ـ إثبات وجود الجن، والرد على من أنكرهم من الفلاسفة، وجهلة الأطباء.

٨ ـ أن الذين استمعوا القرآن من الجن جماعة.

٩ ـ أن (النفر) اسم جماعة من الجن والإنس والملائكة، ومما جاء في إطلاقه على الملائكة حديث أبي هريرة مرفوعًا: (**لما خلق الله آدم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس**) الحديث[1]. ومن إطلاقه على الجماعة من الإنس ما جاء في حديث أبي واقد الليثي عن النبي ﷺ قال: (**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟**)[2].

١٠ ـ أن الجن مكلفون.

١١ ـ أنهم يسمعون ويرون من حيث لا يسمعهم الإنس ولا يرونهم.

١٢ ـ أن الرسول محمدًا ﷺ مرسل إلى الجن.

١٣ ـ أن من الجن مؤمنين.

١٤ ـ أن لغة هؤلاء النفر العربية.

١٥ ـ فهمهم للقرآن، وثناؤهم عليه.

---

(١) رواه البخاري (٥٨٧٣)، ومسلم (٢٨٤١)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٢١٧٦).

١٦ ـ الفرق بين السماع والاستماع، فإن الاستماع يدل على السماع من غير عكس.

١٧ ـ أن القرآن يُتعجب منه كما تعجب منه الجن، ومنشأ ذلك ما تضمنه من كمال البيان، وجليل المعاني.

١٨ ـ أن القرآن يهدي إلى الرشد.

١٩ ـ أن هؤلاء النفر من الجن كانوا مشركين.

٢٠ ـ أن الإيمان يتضمن التوحيد وينافي الشرك.

٢١ ـ عزم هؤلاء الجن على تصديق القول بالعمل، لقولهم: (آمنا) و(لن نشرك).

٢٢ ـ توبيخ المشركين حيث لم يؤمنوا، وآمن الجن ففضلوهم، وأنهم إن لم يؤمنوا فقد آمن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت].

* * *

۞ ولما سمعوا القرآن، ووفِّقوا للتوحيد والإيمان، بادروا إلى تنزيه الله عمّا يعتقده فيه المشركون من تشبيه الله بخلقه، واتخاذه صاحبة وولدًا، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الضمير ضمير الشأن، و(أن) بفتح الهمزة عطف على الضمير المجرور في قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمنا بالقرآن، وآمنا بأنه تعالى جد ربنا.

وهكذا ما يأتي من الآيات وهي قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ...﴾ إلخ. غير أنه يقدر في كل آية الفعل المناسب، من نحو: صدّقنا، وعلمنا، وعرفنا، واعترفنا، ونحو ذلك.

والعطف على الضمير المجرور صحيح فصيح وعليه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامِ﴾ [النساء: ١] على قراءة جر (الأرحام)، وهي سبعية قرأ بها حمزة.

﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمته وجلاله، فالجد هنا العظمة، ومنه حديث أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا ـ يعني عَظُم ـ»[١].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ الجملة مفسرة لقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾.

والصاحبة: الزوجة، والمعنى: ليس له زوجة ولا ولد، خلاف قول المشركين.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولًا شططًا، أي باطلًا بعيدًا عن الحق والصواب، وهو دعوى الصاحبة والولد لله، والسفيه اسم جنس فيشمل كل من ادعى ذلك. والتعبير بالمضارع في ﴿يَقُولُ﴾ لحكاية الحال.

والوصف بالمصدر في قوله: ﴿شَطَطًا﴾ للمبالغة في بعد هذا القول عن الصواب.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٢٠)، وإسناده صحيح.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تنزيه الله وأسمائه وصفاته عن كل نقص، لقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾.

٢ ـ أن الجد في حق الله هو العظمة، والجلال والكمال.

٣ ـ تنزيهه سبحانه، عن الصاحبة والولد.

٤ ـ الدلالة على أن الصاحبة والولد نقص في حق الإله؛ لأنهما ينافيان كمال غناه وصمديته ووحدانيته، فإن الصاحبة والولد يتخذان للحاجة إليهما في الاستئناس والذكر وبقاء النسل، ولك أن تقول: إن اتخاذ الصاحبة والولد أثر من آثار العجز، أو الانقسام والتجزؤ، والله منزه عن ذلك كله.

٥ ـ الرد على كل من نسب إلى الله الصاحبة والولد من المشركين واليهود والنصارى.

٦ ـ إثبات الربوبية العامة، لقوله: ﴿رَبِّنَا﴾.

٧ ـ فضل أولئك النفر من الجن بتوحيدهم لله وتعظيمه.

٨ ـ تحقيقهم لأنواع التوحيد الثلاثة؛ الربوبية، الإلهية، الأسماء والصفات؛ فأمَّا الربوبية ففي قولهم: ﴿رَبِّنَا﴾، وأما الإلهية فلقولهم: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾، وأما الأسماء والصفات ففي قولهم: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ فإن هذا تنزيه الله عن كل عيب ونقص، ويتضمن إثبات كل كمال له ﷻ.

٩ ـ أن نسبة الشريك والصاحبة والولد وكل نقص إلى الله سفه وافتراء على الله، وبعد عن صراط الله.

١٠ ـ إنكار أولئك النفر من الجن على المشركين منهم وتسفيههم لهم.

١١ ـ أن مِن الجن مَنْ يشرك بالله ويزعم له الصاحبة والولد، ففيهم من يشبه النصارى في اعتقادهم، وفيهم من يشبه المشركين.

* * *

۞ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ معطوف على ما تقدم.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي وأنا حسبنا، وقوله: ﴿أَن لَّن﴾ هذه الكلمة مركبة من (أَنْ) و(لن)، و﴿أَن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والخبر ﴿لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والمعنى: ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله، فلذلك صدقناهم في أن الله اتخذ صاحبة وولدًا، حتى سمعنا القرآن وتبيّنا به الحق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي يلتجؤون إليهم ليعصموهم مما يخافون منه، فالعوذ هو طلب الحماية مما يخاف، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما عند هذه الآية: كان رجال من

الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية، فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي[١].

وقوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي زاد الجنُ الإنسَ رهقًا، أي ذعرًا وخوفًا وذلًا.

فالجن فاعل والإنس مفعول، وقيل: بالعكس، أي زاد الإنسُ الجنَ رهقًا، أي طغيانًا وكبرًا وعتوًا بسبب لجوئهم إليهم، والأول أصح؛ لأنه الموافق للنظم وسياق الآيات، فإن الحديث في ذم العائذين.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ أي كفار الإنس ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها الجن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي رسولًا، وقيل: المعنى أنهم ظنوا أن لن يبعث الله أحدًا بعد الموت، والأول أظهر؛ لأنه الأوفق لسياق الكلام، فإنه في سماع القرآن، وبعث الرسول ﷺ، فتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] وهذا القول اقتصر عليه ابن جرير وتابعه ابن كثير، والله أعلم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أولئك النفر من الجن كانوا يحسنون الظن بالجن

---

(١) رواه ابن جرير في الجامع (٢٣/ ٣٢٢) بإسناد العوفيين، وقد قال عنه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناد معروف متداول بين أهل العلم، وهم ثقات» (مختصر الصواعق ٣/ ١٢٨٠ ط. أضواء السلف)، وصح الخبر عن مجاهد بنحوه. أخرجه ابن جرير.

والإنس، وأنه لا يكون أحد منهم يكذب على الله، ومن ذلك ما نسبوه إليه من الصاحبة والولد والشريك، فكانوا مخدوعين بذلك حتى تبين لهم الحق بما سمعوه من القرآن.

٢ ـ سلامة فطرة أولئك النفر من الجن وتعظيمهم لله مع جهل.

٣ ـ استبصارهم بالقرآن، لذلك نزّهوا الله عن أقوال السفهاء والجاهلين، وتبيّن لهم خطؤهم فيما ظنوه في الإنس والجن، أي في أنهم لا يكذبون على الله.

٤ ـ وجود الكذب في الإنس والجن، ووجوب الحذر من الكاذبين.

٥ ـ أن في الجن رجالًا؛ كالإنس، ومنهم إناث.

٦ ـ أن بعض رجال الإنس يحتمون برجال من الجن من عدوان سفهائهم.

٧ ـ الدلالة على ضلال أولئك العائذين حيث لم يعوذوا بربهم.

٨ ـ تسلط الجن على الإنس، فازدادوا بذلك خوفًا وذعرًا، أو ازداد الجن طغيانًا وكبرًا، على التفسير الآخر.

٩ ـ أن الاستعاذة بالجن حرام، بل هي نوع من الشرك.

١٠ ـ الدلالة على تحريم الاستعانة بالجن؛ لأنهم غائبون، وإنما يُستعان ويستعاذ بالحي الحاضر فيما يقدر عليه.

١١ ـ عقوبة العاصي بنقيض قصده.

١٢ ـ ظن الكفار من الجن والإنس أن لن يبعث الله إليهم رسولًا، أو ألّا يبعث الله أحدًا بعد الموت، على القول الآخر.

١٣ ـ اعتراف الجن بأن بعثة الرسول ﷺ للإنس والجن، وفي بعثته إبطال لظن الكفار.

١٤ ـ تشابه أحوال الإنس والجن، ففي هؤلاء المؤمن، والكافر، والمصدق، والمكذب، وفي أولئك مثلهم.

١٥ ـ سوء ظن الكفار برب العالمين.

❁ ❁ ❁

❁ **قال تعالى**: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

❁ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ هذا من كلام النفر من الجن، وهو معطوف على ما تقدم من أقوالهم.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أصل اللمس باليد، وهو هنا مستعار للطلب، أي طلبنا خبر السماء بالاقتراب منها ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾ أي السماء ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ الحرس في الأصل جمع حارس، وهو الحافظ الرقيب، مثل خدم جمع خادم، ثم استعمل استعمال المفرد، وأصبح اسمًا للجماعة الذين يحرسون السلطان ونحوه، ولهذا وُصف في الآية بالمفرد، فقال: ﴿حَرَسًا شَدِيدًا﴾ ولو عُدَّ جمعًا لقيل في الوصف: شدادًا. وقوله: ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب وهو قطعة عظيمة من النار تنفصل عن الكوكب، أو هو الكوكب نفسه ينقض لإحراق مسترق السمع.

قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء، و(من) تبعيضية

وقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾ أي لأجل استماع ما يتكلم به الملائكة من أمر الله واستراقه، والمقاعد جمع مَقْعد، وهو مكان القعود، قوله: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ﴾ أي من الشياطين، والفاء للتفريع، وقوله: ﴿ٱلۡأٓنَ﴾ أي الوقت الحاضر، وهو وقت نزول الوحي، ﴿يَجِدۡ لَهُۥ﴾ (وجد) هذه تنصب مفعولًا واحدًا، فهي بمعنى أصاب وصادف، ومفعولها ﴿شِهَابٗا﴾، و﴿رَّصَدٗا﴾ صفة.

ووقوع ﴿شِهَابٗا﴾ في سياق الشرط يفيد العموم؛ لأن سياق الشرط بمنزلة سياق النفي في إفادة العموم.

وقوله: ﴿رَّصَدٗا﴾ أي مُرْصدًا، أي مهيَّئًا، ومُعَدًّا لمن رام استراق السمع، فهو من استعمال المصدر بمعنى اسم المفعول؛ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي مخلوقه.

ولما رأى الجن تشديد حراسة السماء وكثرة تساقط الشهب تساءلوا عن السبب في ذلك، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الإرادة الكونية التي هي بمعنى المشيئة ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ أي خيرًا.

وقالوا: ﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ﴾ ولم يقولوا: أراد الله؛ لأن الرب أخص بالأفعال من الإله، ولأن إرادة الرشد من آثار ربوبيته لهم، بمعنى: أراد بهم رشدًا؛ لأنه ربهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أولئك النفر من الجن، يصعدون إلى السماء لاستراق السمع.

٢ ـ تشديد حراسة السماء وقت بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن، وتكثيف رمي الشياطين بالشهب صيانة للوحي أن تنال الشياطين منه شيئًا، وقد أخبر الله ﷻ أنهم لن ينالوا منه شيئًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء]، وأما قبل البعثة، فقد كانت حراسة السماء مطلقة غير مشدد فيها، وهكذا أصبحت بعد انقطاع الوحي ولحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى.

٣ ـ أن استراق السمع من السماء كان معتادًا للشياطين، وأن السماء لم تزل محروسة منهم بالملائكة والرجم بالشهب، كما يشهد له قوله سبحانه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر].

٤ ـ أن لمسترقي السمع قبل تشديد حراسة السماء مواضع يقعدون فيها للاستماع، ومُنعوا من ذلك بَعْدُ.

٥ ـ وفي هذه الآية ـ وهي قوله سبحانه ـ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ ـ مع الآيات الأخرى أنه كان لا يُرمى بالشهب، إلا من استرق السمع وخطف شيئًا من كلام أهل السماء، وبعد تشديد الحراسة كانوا يُرمَون بالشهب قبل أن يقتربوا من السماء، ويقعدوا في تلك المقاعد.

٦ ـ أن الجن لا يعلمون الغيب، لقولهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ...﴾ وقد جاء هذا مصرحًا به في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

٧ ـ إثبات الإرادة الكونية لله ﷻ، وهي التي بمعنى المشيئة،

لقوله: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ومما جاء على هذا النوع من الإرادة قوله سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وهذه الإرادة الكونية يقابلها الإرادةُ الشرعية، وهي التي بمعنى المحبة، ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

والفرق بين الإرادتين:

أ ـ أن الإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد، وأما الإرادة الشرعية فلا يلزم منها وقوع المراد.

ب ـ أن الإرادة الكونية تتعلق فيما وقع، سواء أكان مما يحبه الله أم مما لا يحبه، أما الإرادة الشرعية فلا تتعلق إلا فيما يحبه الله ﷻ.

٨ ـ ومن فوائدها أن أولئك النفر من الجن ترددوا في حكمة تشديد الحراسة على السماء، أهو لخير أراده الله بأهل الأرض، أم لغير ذلك.

٩ ـ حسن أدب أولئك الجن؛ حيث صرحوا بإضافة الرشد إلى الله، وهو الخير، وأبهموا في إضافة الشر، وإن كان هو بإرادة الله كذلك.

ـ واعلم أن الشر الذي في المخلوق لا يضاف إلى الله إلا بإحدى ثلاث طرق:

أ ـ إما بصيغة العموم، أي يدخل في عموم المخلوقات، كما في

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وكقولك: الخير والشر كله من عند الله.

ب ـ وإما بإضافة الشر إلى ما خلق الله؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق].

جـ ـ أو بإضافته إليه سبحانه بصيغة البناء للمفعول؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٠ ـ ومن فوائدها أن الخير والشر كله بمشيئة الله.

١١ ـ إثبات الربوبية العامة، لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾.

١٢ ـ إيمان أولئك النفر بالقدر والربوبية العامة.

* * *

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ صفة لمحذوف، أي منا القوم الصالحون، أي أهل الصلاح والتقوى ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قوم غير صالحين، وهذا قبل بعثة محمد ﷺ، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي فرقًا مختلفة ومذاهب شتى، والطرائق: جمع طريقة، أي كنا ذوي طرائق، و﴿قِدَدًا﴾ توكيد لطرائق، والقدد جمع قِدَّة، كَقِرَب جمع قِرْبة، وأصل القدة القطعة من الجلد ونحوه، فالجن في مذاهبهم فرق مختلفة متباينة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الجن قبل مبعث النبي ﷺ فيهم المؤمن والكافر والصالح والفاسق، لقولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، والمؤمن فيهم متبع لمن تقدم من الرسل، كموسى وعيسى عليهما السلام، كما قال تعالى عن الجن: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

٢ ـ أن الجن مكلفون؛ فمنهم المطيع، ومنهم العاصي.

٣ ـ تفاضل المؤمنين منهم.

٤ ـ أنهم فرق ومذاهب كالإنس، وهو ظاهر قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، ويشهد لهذا ما ساقه ابن كثير عن أحمد بن سليمان النجاد في أماليه بإسناده إلى الأعمش قال: يروح إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز، قال: فأتيناهم به، فجعلتُ أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدًا، فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم، فقلتُ: فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا[(١)].

❁ ❁ ❁

❁ قال تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ١٦) ط. المنار. قال ابن كثير بعد أن ساق إسناد الخبر: «عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي، فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش».

التفسير:

قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي أيقنا، فالظن هنا بمعنى اليقين؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قوله: ﴿أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾ أي بالمغالبة مهما كانت قوتنا، وخصوا أنفسهم بقولهم: ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾ دون أن يقولوا: لن يعجز الله شيء، للاعتراف بعجزهم عن الامتناع منه والهرب عنه.

قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي حال كوننا في الأرض، وخصوا الأرض بالذكر؛ لأنها محل تمكنهم، وقالوا: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقولوا: أرضنا، لإفادة التعميم، أي لن نعجزه في أي مكان من الأرض ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ أي من موضع إلى موضع إذا طلبنا.

الفوائد والأحكام:

١ - إيمان أولئك النفر من الجن بكمال قدرة الله عليهم.

٢ - أنهم عن الامتناع من الله في السماء والهرب منه أعجز.

* * *

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظرفية حينية مضمنة معنى الشرط، و﴿سَمِعۡنَا﴾ فعل الشرط، و﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ هو القرآن، وسمي

بذلك لكمال هدايته، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي صدقنا به، وأنه من عند الله، وهذا جواب الشرط.

وقوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يحتمل أن يكون هذا من تتمة كلام الجن المحكي، ويحتمل أنه من كلام الله تعالى ابتداءً، بيانًا ببشارته بوعده سبحانه للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ من المكلفين ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي نقصًا من حسناته ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي إثمًا يوضع عليه ظلمًا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ لا يخاف نقصًا من حسناته، ولا زيادة في سيئاته»(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي فهو لا يخاف، ولا بد من هذا التقدير؛ إذ لولاه لوجب جزم الفعل، لأنه واقع في جواب الشرط، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

ولعل الحكمة في مجيء الفاء ـ والله أعلم ـ لتأكيد ترتيب الجزاء على الشرط، أي إن من آمن تحققت نجاتُه، وقيل: لتكون الجملة اسمية، فإن الاسمية أدل على الثبوت، وآكد من الفعلية في تحقيق مضمون الجملة، والله أعلم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء القرآن الهدى.

٢ ـ أن النبي محمدًا ﷺ مبعوث إلى الجن.

---

(١) أخرجه ابن جرير في الجامع ٢٣/ ٣٣٢، وإسناده صحيح.

٣ ـ التحدث بنعمة الله.

٤ ـ الدلالة على فضل أولئك النفر من الجن.

٥ ـ أن الإيمان سبب للأمن، مما يخاف في الجزاء.

٦ ـ أن الإيمان بالله تعالى وبالقرآن متلازمان، وجه ذلك أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، ثم قالوا: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ ولم يقولوا: فمن يؤمن بالهدى، فدل على التلازم بين الإيمان بالله والإيمان بالقرآن.

٧ ـ أن المؤمن لا يُنقص من ثواب عمله الصالح، ولا يظلم فيعاقب على ما لم يعمل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه].

❁ ❁ ❁

❁ قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَأَنَّا﴾ هذا من كلام النفر من الجن، ﴿مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ أي الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبمن قبله من الأنبياء، ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي الكفار، وسُمُّوا قاسطين ـ أي ظالمين ـ لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك.

يقال: قَسَط؛ إذا ظلم، ومصدره القَسْط ـ بفتح القاف وسكون السين ـ وأقسط؛ إذا أزال الظلم وعدل، وتسمى هذه الهمزة همزة الإزالة.

قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ الظاهر أن هذا من كلام الله ﷻ ابتداءً، فيكون تعقيبًا لبيان مصير الفريقين، وقد جاء نظير ذلك في سورة (طه)، فإنه ﷻ حين ذكر كلام السحرة لفرعون أعقبه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ [طه].

قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا﴾ أي توخَّوا وقصدوا، وأصل التحري طلب الأحرى والأولى، ﴿رَشَدًا﴾ الرَّشد هو الصلاح والنفع، وهو يتضمن الإيمان والعمل الصالح، وذلك يفضي إلى غاية السعادة.

قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وَقودًا توقد بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾ [آل عمران].

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الجن فيهم المسلم والمشرك.

٢ ـ أن مبنى الإسلام على التوحيد، وهو أعدل العدل، وأن الشرك جور وظلم، بل أظلم الظلم.

٣ ـ الثناء على من أسلم بطلبه النجاة والسعادة عن تبصّر وتثبت، لقوله: ﴿تَحَرَّوْا﴾.

٤ ـ الثناء عليهم بحسن نظرهم، وسداد رأيهم.

٥ ـ بشارتهم بحسن العاقبة.

٦ ـ وضع السبب (الرَّشد) موضع المسبَّب (الثواب والنجاة) لدلالته عليه.

٧ ـ عظم ثواب المسلمين، لقوله: ﴿رَشَدًا﴾، فالتنكير للتعظيم.

٨ ـ شدة وعيد القاسطين.

٩ ـ تحقير القاسطين يوم القيامة، وتهوين شأنهم، لقوله: ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

١٠ ـ إثبات النار، وأن من أسمائها جهنم.

١١ ـ أن الجن كالإنس؛ مجزيون بأعمالهم خيرها وشرها.

❁ ❁ ❁

❁ **قال تعالى:** ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ ﴿وَأَلَّوِ﴾ أصلها: (أن) و(لو)، و(أن) هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة عطف على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ في الآية الأولى، فهو من جملة الموحَى، أي أوحي إليّ (أنْ لوِ اسْتَقَامُوا) فموضعها الرفع، فهي نائب فاعل.

و(لو) حرف شرط غير جازم، ﴿اسْتَقَامُوا﴾ أي ساروا على

بصيرة وثبات، وهذا فعل الشرط، وجواب الشرط هو قوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي كثيرًا، وليس المراد خصوص السقيا، بل عموم الرزق، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة].

وقوله ﷻ: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم فيه أيشكرون أم يكفرون؟ واللام للتعليل والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يعود على الماء الذي هو أصل الأرزاق.

وحرف (في) يدل على أن الابتلاء يكون فيما ينعم الله به على عباده؛ بإيجاب الواجبات، وبالمصائب، ونظير حرف (في) في هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: ٥] فإن (في) للظرفية في هذه المواضع؛ لأن الأموال والماء الغَدَق الذي تنشأ عنه الأرزاق محل للابتلاء، فلذلك دخل عليها حرف (في) الذي هو للظرفية.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ (مَن) اسم شرط جازم، ﴿يُعْرِضْ﴾ فعل الشرط.

قوله ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ يحتمل أن المراد بالذكر ذكرُ العبدِ ربَّه بأنواع العبادة، فيكون من قبيل إضافة المصدر إلى مفعوله، ويحتمل

أن المراد به التذكير، وهو الوحي الذي أنزل الله، فيكون من إضافة المصدر إلى الفاعل، والمعنيان متلازمان، فمن أعرض عن هذا أعرض عن هذا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، فقد حكي فيها القولان.

قوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا﴾ هذا جواب (مَنْ)، أي يدخله، وتعدى الفعل (سلك) بنفسه إلى المفعول الثاني؛ لأنه مضمن معنى (يدخله)، وإلا فهو يتعدى إليه بـ (في)؛ كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر].

قوله: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي شاقًا شديدًا، يعلو المعذَّب ويغلبه ويغمره، فـ (صَعَدٌ) مصدر صَعِد ـ كفَرح ـ وُصِفَ به العذابُ مبالغةً.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الاستقامة على طريق الحق سبب لإسباغ النعم.

٢ ـ أن الماء سبب لأرزاق العباد، ولهذا سماه الله رزقًا في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥].

٣ ـ أن من حكمة الله في إسباغ النعم ابتلاء العباد.

٤ ـ الابتلاء فيما ينعم الله به على عباده بالواجبات وبالمصائب.

٥ ـ تعليل أفعال الله، وإثبات الحكمة له ﷻ، لقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ

فِيهِۚ﴾، والحكمة من مقتضى كماله ﷻ، فهو الحكيم العليم في أحكامه الكونية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان].

٦ ـ أن الإعراض عن ذكر الله، كفران لنعمه.

٧ ـ أن الإعراض عن ذكر الله، سبب للعذاب الشديد.

٨ ـ أن شكر النعم باتباع الهدى.

٩ ـ التحذير عن الإعراض عن ذكر الله، وكفران النعم.

١٠ ـ الترغيب في الشكر واتباع الحق.

١١ ـ إثبات الربوبية الخاصة، لقوله: ﴿ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾، ومن مقتضى هذه الربوبية التأييد والنصر والحفظ.

* * *

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الجملة معطوفة على المرفوع في قوله: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ فمضمونها مما أوحي به، أي وأوحي إلي أن المساجد لله، فالمصدر المنسبك من (أن) واسمها وخبرها، نائب فاعل (أوحي).

و(المساجد) جمع مَسْجِد، وهو البيت المبني للصلاة والعبادة لله، ومعنى الآية: وأن المساجد مختصة بالله، أي

بعبادته ﷻ ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ غيره، فالفاء للتفريع، فُرِّع على اختصاص كون المساجد لله النهيُ عن أن يدعوا مع الله أحدًا.

ويحتمل أن ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ في الآية بمعنى: السجدات جمع (مَسْجَد)، فتكون مصدرًا ميميًا، أي السجود.

وعلى هذا فيكون التعبير بالمساجد عن الصلوات من باب التعبير بالجزء عن الكل، بيد أن السجود من أهم أركانها، والمساجدُ مكانها. ومعنى الآية على هذا: وأن السجود لله تعالى فحسب، فلا تعبدوا أحدًا مع الله، ولا تسجدوا إلا له.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن المساجد إنما تبنى لعبادة الله وحده، فهي بيوت الله التي أذن أن ترفع.

٢ ـ فضل المساجد وتشريفها حيث أضافها الله إليه، فالإضافة هنا للتشريف، والإضافة في قوله ﷺ: **(صلاة في مسجدي هذا...)**[1] للتعريف.

٣ ـ أن السجود لا يكون إلا لله.

٤ ـ النهي عن دعاء غير الله، أي عبادة غير الله.

٥ ـ أن العبادة حق لله لا يجوز صرفه لغيره، وهذا هو التوحيد، وضده الشرك، وهو دعوة غيره معه.

٦ ـ وجوب الإخلاص في دعاء المسألة، فلا يُسأل أحد معه

(١) رواه البخاري (١١٣٣)، ومسلم (١٣٩٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما سؤال المخلوق ما يقدر عليه فمنه ما يجوز أو يكره أو يحرم.

* * *

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾﴾.

التفسير:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ الجملة عطف على قوله: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾ [الجن: ١] فمضمونها مما أوحي إلى النبي ﷺ، أي وأوحي إلي أنه لما قام عبد الله و﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ هو محمد النبي ﷺ، ووصفه بالعبودية لما فيها من الشرف، وقد وصف الله نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام بالعبودية في أشرف المقامات؛ في مقام التحدي بإنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام تكريمه بالإسراء، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١] وفي مقام النذارة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، وفي مقام دعاء الله وعبادته، كما في هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ أي يعبد الله بالصلاة وقراءة القرآن ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ﴾ أي الجن، و(كاد) من أفعال المقاربة، وقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ﴾ أي على عبد الله، وهو الرسول ﷺ.

قوله: ﴿لِبَدٗا﴾ أي كاللِّبَد متراكمين مزدحمين بعضهم على بعض، حرصًا على سماع القرآن، واللِّبد جمع لِبْدة كقِرَب جمع

قِرْبة، وأصله ما تلبَّد من صوف ونحوه، ومنه لِبْدة الأسد للشعر المتراكم فوق رقبته وكتفيه، وبه لقب الأسد فيقال ذو لبدة، وفي المثل أمنع من لِبدة الأسد، والكلام في الآية على التشبيه، أي كادوا يكونون عليه مثلَ اللبد.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ وصف الرسول ﷺ بالعبودية لله، وهي العبودية الخاصة التي تكون عن اختيار، أي اختيار من العبد.

٢ ـ فضيلة النبي ﷺ لوصفه بالعبودية، والعبودية لله ﷻ هي غاية الحرية، ففيها شرف للعبد.

٣ ـ أن معنى الدعاء العبادة، وأعظمها الصلاة.

٤ ـ أن النفر من الجن سمعوا القرآن من الرسول ﷺ وهو يصلي، كما يدل له حديث ابن عباس، وفيه أن الجن وجدوا النبي ﷺ بنخلة ـ بين مكة والطائف ـ يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له فقالوا: «هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء»[1].

٥ ـ شدة اقتراب النفر من الجن من النبي ﷺ لإعجابهم بالقرآن، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ أي متراكمين متزاحمين على الرسول ﷺ لسماع القرآن.

٦ ـ فضل النفر من الجن لحرصهم على سماع القرآن.

۞ ۞ ۞

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٧)، ومسلم (٤٤٩).

۞ ثم يأمر الله نبيه محمدًا ﷺ بأن يجهر بالتوحيد فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

۞ التفسير:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وحده، وهذا أسلوب قصر يفيد التأكيد، أي لا أدعو غيره. ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ هذه الجملة تأكيد للقصر.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أمر الله نبيه ﷺ بإعلان التوحيد، ومواجهة المشركين بألّا يعبد إلا الله.

٢ ـ البراءة من كل ما يُعبد من دون الله.

٣ ـ إثبات ربوبيته تعالى، والاعتراف بذلك.

٤ ـ أن الخالق المالك المنعم هو المستحق للعبادة، وذلك مستفاد من قوله: ﴿رَبِّى﴾.

٥ ـ أنه لا يستحق العبادة غير الله، وأن كل معبود سواه باطل.

۞ ۞ ۞

۞ ولما أمر الله نبيه ﷺ بإعلان التوحيد، ومواجهة المشركين بألّا يُعبد إلا الله وحده = أمره أن يعلن لهم أنه رسول مبلغ لا يملك لهم شيئًا، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

التفسير:

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ في الآية احتباك[1]، فإن ذكر الضَّر أولًا دل على حذف النفع ثانيًا، وذكر الرشد ثانيًا دل على حذف الضلال أولًا، فيكون المعنى: لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا ولا رشدًا ولا غيًا.

والضَّر - بفتح الضاد - ضد النفع، وهو شائع في كل ضرر، أما الضُّر - بالضم - فهو خاص بما في النفس؛ كمرض وهزال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ تكرار الأمر فيه تأكيد للجملة، واهتمام بمضمونها، ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لن يعصمني من الله ﴿أَحَدٌ﴾ كائنًا من كان إن أرادني الله بسوء، و(أحد) لا يستعمل إلا في النفي غالبًا، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي ملتجأ، ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء متصل من ﴿رَشَدًا﴾ في الآية السابقة، وجاءت الآية وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ معترضة بين المستثنى منه والمستثنى لتأكيد نفي الاستطاعة، فليس الفاصل بينهما أجنبيًا.

و﴿بَلَٰغًا﴾ اسم مصدر لـ (بلّغ)، ومعناه أوْصَل الكلام، قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة، أي بلاغًا كائنًا من الله، وقوله: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾ أي وبلاغَ رسالاته، ومعنى الآية: لا أملك لكم نفعًا؛ إلا تبليغ ما جئتكم به من القرآن الذي هو بلاغ من الله،

---

(١) الاحتباك: هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، وفي الثاني ما أثبت نظيره في الأول؛ وهو عندهم من ألطف الأنواع البديعية وأبدعها، والاحتباك مأخوذ من الحَبْك، الذي معناه الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة.

وتبليغ رسالاته، وهي كل ما أرسل به الرسول ﷺ مما في الكتاب والسُّنَّة من الأخبار والشرائع.

وعلى هذا، فالبلاغ الذي من الله هو القرآن، و(الرسالات) كل ما أرسل به الرسول ﷺ وأُمر بتبليغه؛ من ألفاظ القرآن وبيان معانيه، وما اشتملت عليه السنة من الأخبار والشرائع. فعلى هذا فعطف (الرسالات) على (البلاغ) من عطف العام على الخاص.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المراد بالمعصية هنا الكفر بدليل ذكر الخلود المؤبد في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ﴾ راعى لفظ (مَنْ) في (يعص) ثم راعى معنى الجمع، فقال ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿فِيهَآ﴾ أي في جهنم ﴿أَبَدًا﴾ أي بلا نهاية، وهو ظرف زمان.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ اعتراف النبي ﷺ بالعبودية، والعجز عن خصائص الإلـٰهية.

٢ ـ أن الله تعالى هو النافع الضار.

٣ ـ بطلان ما يدعيه الغالون من إلـهيته ﷺ، أو غيره من الأنبياء والصالحين.

٤ ـ الرد على المشركين الذين يتعلقون بالملائكة، أو الأنبياء، أو الأولياء، ويتخذونهم أربابًا.

٥ ـ أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يملك نفع الخلق؛ إلا بإبلاغهم رسالات الله.

٦ ـ أن الخير والرشد فيما جاء به الرسول ﷺ من رسالات الله.

٧ ـ أنه لا أحد يعصم أحدًا من الله فيما يريده به.

٨ ـ عجز الخلق وضعفهم، ولو اجتمعوا.

٩ ـ أنه لا ملجأ من الله؛ إلا إليه.

١٠ ـ أن النجاة، والسعادة في طاعة الله، واتباع رسوله ﷺ.

١١ ـ أن الهلاك، والشقاء في معصية الله ورسوله ﷺ.

١٢ ـ الوعيد بالخلود في جهنم لمن عصى الله ورسوله ﷺ بالشرك بالله، والتكذيب لرسوله ﷺ، وعلى هذا فالمعصية في الآية معصية الكفر لا كل معصية، خلافًا للمعتزلة، ولا بد من هذا؛ لأن ما دون الشرك من المعاصي تحت مشيئة الله، ولا توجب الخلود في النار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ولأحاديث خروج الموحدين من النار.

❁ ❁ ❁

❁ **قال تعالى**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

التفسير:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف ابتداء وغاية، فهو غاية لمحذوف يدل عليه

السياق، أي لا يزالون مستضعفين للمؤمنين، مستقلين لهم حتى إذا رأوا ما يوعدون. . .

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ الرؤية هنا بصرية، و(مَا) اسم موصول بمعنى الذي، وفيه إبهام، وقد بيّن الله تعالى هذا الإبهام في سورة مريم بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [مريم: ٧٥] أي إما العذاب في الدنيا أو الساعة وهي القيامة أو ساعة موتهم.

قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ أي عند رؤيتهم ذلك وتحققهم صحته، والسين للتنفيس والتوكيد، ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ أي معينًا، وحاميًا ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي جندًا وأعوانًا، أهم، أم محمد ﷺ والمؤمنون؟ فيبطل ظن الكافرين ويظهر كذبهم إذا تبينوا أنه لا ناصر لهم ولا معين، ففي ضمن هذا الخبر تهديد لهم بوقوع ما وعدوا به مع عجزهم عن دفعه عن أنفسهم.

وقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ من الكلام المنصف المسكت للخصم المشاغب، وسبق التعريف بهذا النوع من الكلام في تفسير أواخر سورة الملك.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ انكشاف الحقائق للمكذبين إذا عاينوا ما أوعدوا به من العذاب أو القيامة أو ساعة موتهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الآية [مريم: ٧٥].

٢ ـ ظهور كذب الكافرين، وخيبة ظنهم إذا رأوا ما يوعدون، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

٣ ـ ظهور عجزهم، وضعف قوتهم في ذلك اليوم، وأن القوة لله جميعًا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

٤ ـ قرب حصول هذا الوعيد لقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾، فإن السين للتنفيس المفيد للحقيقة والقرب، كما قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج]، وكما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

٦ ـ الإشارة إلى اغترار الكافرين بقوتهم وعَدَدهم في الدنيا وفخرهم على المؤمنين بما أوتوا، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾ [مريم]، وما من شك في أن هذه الحال واقعةٌ اليومَ فالكفار يرون المسلمين كالذر، ولقد أعان المسلمون أعداءهم عليهم بتقصيرهم في دينهم.

❁ ❁ ❁

❁ **قال تعالى:** ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾.

التفسير:

﴿قُلْ﴾ يا أيها النبي للمكذبين ردًا على سؤالهم عن وقت ما

أوعدوا به من العذاب، أو الساعة، وهو قولهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل لهم: ﴿إِنْ أَدْرِيٓ﴾ أي ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي أقريب حلوله ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي زمانًا طويلًا.

وهذا التردد والتفويض الذي أمر الله به نبيه لا ينافي ما أخبر به من قرب الساعة؛ فإن ما بقي من عمر الدنيا قليل بالنسبة إلى ما مضى، وأيضًا فلتحقق وقوعها وُصفت بالقرب، ومع ذلك فلا يعلم الرسول ﷺ مدى الزمان الذي دون الساعة، ولهذا أمر الله نبيه أن يفوض علم الساعة إلى الله؛ كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب]، وغيرها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هو عالم الغيب، والمعنى: ربي عالم الغيب، وهو كل ما غاب عن العباد مما اختص بعلمه سبحانه، أو أعلمَ به مَنْ شاء مِنْ خلقه.

قوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ الفاء تفريعية، لترتيب عدم الإظهار على تفرده بعلم الغيب على الإطلاق، ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ أي فلا يُطلع على غيبه الذي اختص به ﴿أَحَدًا﴾ من العباد ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إلا مَنْ شاء مِمّن اختاره، وارتضاه لرسالته فإنه سبحانه يطلعه على ما شاء من علم الغيب من العلوم والشرائع، فيشمل ذلك جميع مسائل الدين الخبرية والطلبية، فإن الرسول لا يعلم من ذلك إلا ما علمه ربه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ

مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقال تعالى عن الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ متصل، وقوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ بيان للإبهام في الاسم الموصول (من)، فيعم كل رسول.

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾ الفاء للتفريع، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ معناه أن الله يحفظ من اختاره لرسالته فيجعل من بين يديه ومن خلفه ﴿رَصَدًا﴾ أي حفظة، وأصل الرَّصَد الحرس جمع راصد، والمراد الملائكة فهم يرصدون الرسول ويحفظون؛ كالحرس، فلا تصل إليه الشياطين ولا تناله بسوء، ولا تلبس عليه الوحي الذي خصَّه الله به، ومعنى ﴿يَسْلُكُ﴾ يجعل أو يرسل، وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ كناية عن جميع الجهات ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ متعلّق بـ ﴿يَسْلُكُ﴾، واللام في ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ للتعليل، والمعنى يسلك من أجل أن يعلم، وفاعل (يعلم) قيل: الرسول محمد ﷺ، واختاره ابن جرير(١).

فالمعنى ليعلم الرسول أن قد ﴿أَبْلَغُوا۟﴾ أي الملائكة النازلون عليه بالوحي، أو الرسل الذين مضوا فله بهم أسوة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة وما دخلت عليه في موضع نصب مفعول به لـ (يعلم).

وقيل: فاعل (يعلم) الله، فيكون المعنى على هذا: يسلك سبحانه الرصدَ ليعلم أنْ قد أبلغ الرسلُ ما أرسلهم به، وهذا القول هو اختيار الأكثرين كما قال الآلوسي(٢)، وهو الأظهر وذلك:

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٥٦).
(٢) روح المعاني (٢٩/ ١٢٤).

١ ـ لتتحد الضمائر المرفوعة المسند إليها أفعال: يسلك، يعلم، أحاط، أحصى.

٢ ـ ولأن تعليل أفعال الله بالعلم كثير في القرآن، دون تعليلها بعلم الرسول ﷺ.

وعلى هذا فالعلم في الآية هو علم الظهور والوجود؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ في موضع نصب على الحال، أي وقد أحاط، والمعنى: قد أحاط الله قدرة وعلمًا بما عند الرسل من الأحوال، والأعمال الظاهرة والباطنة في عبادتهم، ودعوتهم، وغير ذلك.

قوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ عطف على جملة (أحاط) و﴿عَدَدًا﴾ تمييز محول عن المفعول، والمراد بالشيء المعنى اللغوي، وما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيتناول الموجودات والمعدومات.

والمعنى: أن الله أحصى عدد كل شيء، وعَلِمه علمًا مفصَّلًا، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين؛ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام]، ومن ذلك أنه سبحانه يعلم الخطرات، واللَّفظات، واللحظات، والخطوات، والقطرات والحركات، وجميعَ المخلوقات مما كان ويكون.

وعطف هذه الجملة ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ على التي قبلها من عطف العام على الخاص لإرادة التعميم، وفيه الترقي من العلم بأحوال الرسل إلى العلم بالأشياء كلها على وجه التعميم.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب.

٢ ـ أنه ﷺ لا يعلم متى الساعة لا تحديدًا ولا تقريبًا.

٣ ـ أن ما لا جواب له من الأسئلة عند المسؤول يجب فيه التفويض إلى الله تعالى.

٤ ـ أن الساعة وإن كانت قريبة فلا يعلم مدى هذا القرب إلا الله.

٥ ـ أن الله تبارك وتعالى هو المتفرد بتقدير الزمان.

٦ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، لقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾.

٧ ـ أن الله عز وجل هو عالم الغيب وحده.

٨ ـ أن الله يطلع مَنِ ارتضى مِنْ رسله على ما شاء من غيبه.

٩ ـ أن الله يختار لرسالاته مَنْ يرتضي من عباده، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

١٠ ـ حفظ الله لمن أرسله بحفظه من بين يديه ومن خلفه صيانة للوحي.

١١ ـ حفظ الوحي حين تنزل به الملائكة من مسترقي السمع، كما

في أوائل السورة في قوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]، وحفظه بعد بلوغه للرسول البشري كما في هذه الآية، ففيه:

١٢ ـ التناسب بين آخر السورة وأولها، وهذا من وجوه الإعجاز.

١٣ ـ تعليل أفعال الرب ﷻ، لقوله ﴿لِّيَعْلَمَ﴾.

١٤ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى.

١٥ ـ تعليل بعض أفعال الرب سبحانه بعلم الظهور والوجود.

١٦ ـ وعد الرسل ومن استجاب لهم بالثواب، كما يتضمنه ذكر العلم في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾.

١٧ ـ وعيد المعرضين عن دعوة الرسل بالعقاب.

١٨ ـ أن واجب الرسل هو تبليغ ما أُرسلوا به، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

١٩ ـ إحاطة علم الله بما لدى الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢٠ ـ علم الله بكل شيء علمًا مفصلًا شاملًا لكل صغير وكبير، متقدم ومتأخر، في السماء أو في الأرض، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٩].

❁ ❁ ❁

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾.

التفسير:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المزمل: المتلفف بالثياب، أصلها: المتزمل أُدغمت التاء في الزاي، وهذا نداء من الله لنبيه ﷺ بالوصف الذي كان عليه عند نزول القرآن، آمرًا له سبحانه بقيام الليل وترك النوم والتزمل في الثياب.

ونداؤه ﷺ بهذا الوصف من قبيل التلطف به؛ كقوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة رضي الله عنه: **(قم يا نومان)**(١)، وقوله لعلي رضي الله عنه: **(قم أبا تراب)**(٢)، حين رآه نائمًا، وقد شخص التراب إلى جسده،

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٨).

(٢) رواه البخاري (٤٣٠)، ومسلم (٢٤٠٩)، وذكر راوي الحديث سهل بن سعد رضي الله عنه ـ كما في رواية مسلم ـ أنه لم يكن لعلي رضي الله عنه اسم أحب إليه من أبي التراب، وكان يفرح إذا دعي به.

فنداء الله لنبيه بالمزمل تلطف به عليه الصلاة والسلام؛ ولأن المطلوب منه ضد هذه الحال، وهو الجد والتشمير بإحياء الليل بالعبادة.

قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي قم الليل بالصلاة، وهذا معنى قيام الليل في الشرع، ولذا لم يُقيّد، والصلاة جامعة لأنواع الأعمال الظاهرة والباطنة، وهي عمادها، وقد كان قيام الليل واجبًا على النبي ﷺ وأصحابه بهذه الآية حتى نُسخ بالآية الأخيرة من السورة، وقيل: نسخ وجوبه عن الأمة، وبقي واجبًا في حقه عليه الصلاة والسلام، وفُسِّر بذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] في أحد القولين.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مستثنى من الليل الذي أُمر بقيامه، فاستثنى منه القليل لراحة الجسد.

قوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ الصحيح أنه بدل بعض من كل من الليل لبيان مقدار وقت القيام، وهو أحد ثلاثة أشياء:

نصف الليل، أو دون النصف وهو الثلث، أو أزيد من النصف ودون الثلثين، لقوله تعالى في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠]، وهذا هو الصواب.

وقيل: إن ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل من ﴿قَلِيلًا﴾، فيكون بيانًا لمقدار ترك القيام، وليس بجيد؛ لأن المقصود بيان وقت القيام لا وقت ترك القيام، كما يدل له قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠].

قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ معطوف على قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي ورتّل القرآن في صلاتك، معناه اقرأ على مهل، كما قال تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي على مهل وتؤدة، و﴿تَرْتِيلًا﴾ مصدر مؤكد، والترتيل عند أهل الأداء مرتبتان:

الأولى: التحقيق.

الثانية: التدوير.

وكلتاهما تتضمن إعطاء كل حرف حقه من المد، والغنن والإعراب؛ إلا أن التحقيق أتم(١).

وليس الترتيل هو التمطيط الذي يفعله بعض القراء بحجة التغني بالقرآن، فإنه يتحقق الترتيل والتغني دون ذلك التمطيط والتكلف، وبالترتيل يحصل التدبر لآي القرآن والتأثر بمواعظه.

قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ أيها النبي، أي بالوحي إليه ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي كلامًا متضمنًا لتكاليف شاقة، وهي الأوامر، والنواهي، فالعمل بها ثقيل، وأعظم من ذلك الدعوة إلى الله، وهي الغاية من إرسال الرسل، والقيام بها شاق على النفس، فإن من المعلوم أن دعوة الخلق إلى ما يخالف أهواءهم، وعاداتهم، وملة آبائهم وسيرة أسلافهم عبءٌ ثقيل وشاق على النفس، وتنكير ﴿قَوْلًا﴾ للتفخيم.

وقوله سبحانه: ﴿عَلَيْكَ﴾ دون (إليك) مناسب لما بعده، فإن (على) تدل على الوجوب، وثقل ما يُلقى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي الصلاة الناشئة ينشئها المصلي أية ساعة من ساعات الليل، أو من بعد العشاء، أو بعد النوم. ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي ثباتًا وطمأنينة وتواطأً بين القلب، واللسان، وأعظم تأثيرًا،

---

(١) النشر، لابن الجزري (١/ ٢٠٥).

قوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أبين أداءً وأسلم من الغلط في التلاوة، وذلك أن الليل وقت السكون، وفراغ القلب من الشواغل بخلاف النهار.

وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ إن الجملة معترضة بين الأمر بالقيام والترتيل وبين التعليل بذكر صفة صلاة الليل، ووجه الاعتراض ـ والله أعلم ـ الدلالة على أن قيام الليل من أعظم ما يعين على القيام بالتكاليف الشاقة، وهذا شأن الصلاة فرضها ونفلها، فإنها مما أُمر بالاستعانة به، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، والله أعلم.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ مراعاة حال المخاطب بذكره بالصفة التي هو عليها.

٢ ـ التلطف من الله في خطابه لنبيه ﷺ.

٣ ـ استثارة همته عليه الصلاة والسلام للقيام بما أمر به.

٤ ـ أن التلفف في الثياب، والنوم لا يليق بحامل الرسالة، ولهذا أُمر بقيام الليل.

٥ ـ وجوب قيام الليل على النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم.

٦ ـ بيان مقدار وقت القيام، وقد نسخ ذلك في حق الصحابة بآخر آية من السورة.

٧ ـ الأمر بترتيل القرآن في قيام الليل، والأشبه أنه للاستحباب.

٨ ـ وعد الرسول ﷺ بنزول قرآن يتضمن شرائع شاقة.

٩ ـ أن إلقاء الوحي إلى الرسول ﷺ يكون ثقيلًا أحيانًا، قالت

عائشة ﵂: «إنه كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها»[١]، وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت ﵁ قال: «فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي، حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]»[٢].

١٠ ـ فضيلة قيام الليل، وذلك من وجهين:

أ ـ من الأمر به.

ب ـ لقوله: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وقد قال ﷺ: **(أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)**[٣].

١١ ـ الإشارة إلى التفرغ في الصلاة من الشواغل، ولهذا كانت صلاة الليل أفضل من صلاة النهار.

١٢ ـ أن تواطؤ القلب، واللسان في الصلاة مطلب شرعي، وهو من كمال الصلاة.

١٣ ـ أن البيان والوضوح في التلاوة مُرغَّب فيه شرعًا، وهو من كمال التلاوة.

❁ ❁ ❁

❁ **قال تعالى:** ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١١٨)، وإسناده حسن.

(٢) صحيح البخاري (٤٣١٦).

(٣) رواه مسلم (١١٦٣)، عن أبي هريرة ﵁.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته عليه الصلاة والسلام، ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي فراغًا طويلًا، وهذه الجملة مستأنفة للتأكيد والتعليل، أي لتأكيد الأمر بقيام نصف الليل، أو أكثر، أو أقل وتعليله، وذلك أن في النهار فراغًا طويلًا يكفي لقضاء شؤون الحياة، وتعويض ما فات من النوم في الليل بسبب القيام، وهو معنى قوله: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ عطف على قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ وقوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾، والمعنى: اذكر ربك بأسمائه متكلمًا بها، مثل الله، الرحمٰن، الرحيم، الحي القيوم، وفي ذكر الربوبية الخاصة تهييج إلى ذكره تعالى، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ معطوف على ما قبله، والتبتل: الانقطاع، أي انقطع إلى الله، والمعنى تفرغ لعبادته، وأقبل على طاعته متوجهًا ﴿إِلَيْهِ﴾ بقلبك ووجهك، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال ﷺ في دعاء الاستفتاح: **(وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين)**[١].

وقوله: ﴿تَبْتِيلًا﴾ مصدر مؤكد للفعل قبله، وعُدِل عن (التبتُّل) إلى (التبتيل) ـ والله أعلم ـ لتناسب رؤوس الآي.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

﴿رَّبُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هو رب، والمراد بالمشرق والمغرب عموم المشارق والمغارب، والجملة مستأنفة لتعليل الأمر بذكره والتبتل إليه، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنفة أيضًا، ومعناها: لا معبود بحق سواه، فهو المستحق للعبادة دون غيره تعالى، وكل معبود سواه باطل، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ الفاء للتفريع، فهي لتفريع الأمر بالتوكل على تفرده تعالى بالربوبية والإلهية، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي اجعله لك كافيًا في جميع الأمور من جلب المنافع ودفع المضار؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، والاتخاذ هنا عمل قلبي، ومعناه: الاعتماد على الله، وتفويض الأمور إليه والإيمان بكفايته، وهذه حقيقة التوكل.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن النهار ميدان واسع لشؤون الإنسان وقضاء حوائجه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ].

٢ ـ الإشارة إلى الاستعانة بالقيلولة على قيام الليل.

٣ ـ أن النوم وصلاة التطوع أخص بالليل، وأن طلب المعايش أخص بالنهار، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣] ففيها:

٤ ـ أن خلاف ذلك تغيير للفطرة والسنَّة الكونية والحكمة الشرعية.

٥ ـ الأمر بذكر الله بأسمائه، وهذا يشمل الذكر المطلق، والمقيد مثل أذكار الصباح والمساء.

٦ ـ وفي الأمر بالذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تنبيه إلى عدم الغفلة عن ذكر الله، والانشغال بشؤون الدنيا.

٧ ـ الأمر بالتبتل وهو الانقطاع للطاعة انقطاعًا لا يؤدي إلى التفريط في الحقوق؛ حق النفس، وحق الأهل، وغيرهما.

٨ ـ أن الله تعالى مالك المشارق والمغارب.

٩ ـ أن المشارق والمغارب من آيات الله الدالة على قدرته، وحكمته، ورحمته وكمال علمه.

١٠ ـ إثبات ربوبيته، وإلهيته ﷻ.

١١ ـ أنه تعالى الإله الحق دون سائر المعبودات من دونه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

١٢ ـ الأمر بالتوكل عليه سبحانه.

١٣ ـ أن ربوبيته وإلهيته توجب التوكل عليه، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ وبعد أن أمر الله نبيه بالتوكل عليه بعد الأمر له بأنواع العبادة؛ من قيام الليل وذكر الله والانقطاع لعبادته، فجمع بين الأمر بالعبادة والتوكل عليه؛ كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] = أمر الله ـ بعد ذلك ـ نبيه بالصبر على ما يقولون وهجرهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ أيها النبي ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي على ما يقول الكفار المكذبون فيك من الأقوال الضالة؛ كقولهم: إنه ساحر وكاهن أو مجنون أو شاعر، وفي التعبير بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى استمرار أقوالهم في النبي ﷺ، ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ أي لا أذى معه، وفي الهجر إعراض عنهم بعد إقامة الحجة عليهم مع التوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

قوله تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي اتركني مع المكذبين، فإن الواو للمعية، وليست للعطف؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون المعنى اتركني واتركهم، وليس هذا مرادًا بل الواو للمعية، وهذا أمر يتضمن التهديد والوعيد للمكذبين على التكذيب وكفر النعمة، المغرورين بما أوتوا.

وفي قوله: ﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار، وفائدته إثبات الوصف ـ وهو التكذيب ـ للمكذبين، ففيه بيان علة الحكم، فوعيدهم لأنهم كذبوا، ويفيد أيضًا التعميم فيشمل الوعيد كل مكذب.

قوله: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أي أصحاب النعمة، والنَّعمة ـ بفتح النون ـ التنعُّم والترفه، وجمعها أَنْعُم، وأما النِّعمة ـ بكسر النون ـ فما يُتنعم به؛ كالمطعم والمشرب والملبس، جمعها نِعَم، بكسر ففتح.

قوله: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ أي ومهلهم إمهالًا قليلًا، أو زمانًا

قليلًا، فـ ﴿قَلِيلًا﴾ صفة، إما لمصدر محذوف، أو لمفعول محذوف، وقوله: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق]، وهو أمر بإمهالهم استدراجًا، وهو إمهال لا يطول، وهو تهديد.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ الأمر بالصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم.

٢ ـ الأمر بالإعراض عنهم، وهو عدم أذاهم لا تركُ دعوتهم، وذلك قبل الأمر بقتالهم يوم كان المسلمون لا قدرة لهم على ذلك، فالآية محمولة على ضعف المسلمين؛ كحالهم بمكة قبل الهجرة، وهكذا إذا صار المسلمون كحالهم بمكة، فواجبهم الإعراض والهجر الجميل، وعلى هذا فالآية ليست منسوخة لكنها منزلة على حال مخصوصة، والله أعلم.

٣ ـ أن الهجر الممدوح هو الجميل، وهو ما لا أذى معه، وقد أمر الله نبيه بالهجر الجميل، وبالصبر الجميل، وهو ما لا جزع معه، وبالصفح الجميل، وهو ما لا عتاب معه.

٤ ـ أن أمر الإنسان مع المخالفين دائر بين الصبر على أذاهم مع المخالطة، أو الهجر والمجانبة، وأما الأفضل منهما فيختلف باختلاف الأحوال والمآل، وقد أمر الله نبيه بالأمرين الصبر والهجر، فإن الكفار قد يؤذونه، وإن هجرهم وأعرض عنهم، فلا بد له من الأمرين.

٥ ـ البشارة للنبي ﷺ بنصره على أعدائه وظهوره عليهم.

٦ ـ تهديد المكذبين بأنواع العذاب.

٧ ـ أن أكثر ما يكون التكذيب من ذوي التنعم والترف، وكثرة المال والولد.

٨ ـ أن المكذبين المنعَّمين أغلظ كفرًا، وأسوأ عاقبة.

٩ ـ أن غاية حظهم ـ أي المكذبين ـ متاع الدنيا ونعيمها.

* * *

وبعد أن هدد الله المكذبين للرسول ﷺ بقوله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ...﴾ أخبر بما أعد لهم في الآخرة من أنواع العذاب من السلاسل، والأغلال، والنار المحرقة، والطعام الخبيث الذي لا تسيغه حلوقهم، وغير ذلك من أنواع العذاب الأليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ تصدير الخبر بـ(إن) يدل على تأكيد مضمون الجملة وهو التهديد، والتعبير بـ﴿لَدَيْنَآ﴾ دون (عندنا)، فيه إشارة إلى شدة العذاب، وخصوصيته، وتحقق حضوره، ﴿أَنكَالًا﴾ جمع نِكْل، وهو القيد الثقيل، ﴿وَجَحِيمًا﴾ هي النار أعاذنا الله منها، وسميت بذلك لشدة حرارتها فإن مادة (ج ح م) تدل على حرارة وتأجج ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي ينشب في حلوقهم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي مؤلمًا، وتنكير أنكال، وجحيم، وطعام، وعذاب، للتهويل والتفخيم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ الظرف متعلق بما تعلق به الظرف ﴿لَدَيْنَآ﴾، هذا هو الأظهر من أقوال المعربين، والمراد باليوم هو يوم القيامة؛ يعني: أن ما ذكر من أنواع العذاب واقع يوم القيامة.

وقوله: ﴿تَرْجُفُ﴾ أي ترتج وتضطرب؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة]، وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ [الواقعة].

قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي وصارت الجبال بعد أن كانت صلبة ﴿كَثِيبًا﴾ أي رملًا ناعمًا ﴿مَّهِيلًا﴾ أي مصبوبًا يسيل؛ كالدقيق، و(مهيل) اسم مفعول من هاله إذا صبه، وهال لغة في أهال، فالفعل جاء ثلاثيًا ورباعيًا، مثل: سقى، وأسقى.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾.

أعيد لفظ الجبال بالاسم الظاهر دون الضمير؛ لأن المقام مقام تخويف، فناسب التكرار، ولأنه لو جاء ضميرًا لتوهم أنه يعود إلى الأرض.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تهديد المكذبين بأنواع العذاب.

٢ ـ أن النار فيها أنواع العذاب من السلاسل والأغلال والزقوم والحميم.

٣ ـ شدة عذاب النار، لقوله: ﴿وَجَحِيمًا﴾.

٤ ـ أن طعام أهل النار ينشب في حلوقهم فلا يسيغونه؛ كالزقوم، والغسلين.

٥ ـ إثبات النار.

٦ ـ أن وعيد المكذبين واقع يوم القيامة.

٧ ـ أن الأرض ترجف في ذلك اليوم، وكذلك الجبال.

٨ ـ أن الجبال تصير كالرمل المهيل، وهذه إحدى حالاتها في يوم القيامة.

والحال الثانية: أنها تكون كالعهن، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة].

والحال الثالثة: أنها تكون كالهباء، قال سبحانه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة].

الرابعة: تسير كالسحاب، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

الخامسة: تكون على وجه الأرض كالسراب، قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ].

السادسة: تسوى مع الأرض حتى تكون قاعًا صفصفًا، قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦﴾ [طه].

٩ ـ الدلالة على كمال قدرة الله، فهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا.

١٠ ـ أن الله شديد العقاب.

١١ ـ وجوب الحذر من تكذيب الرسول ﷺ وعصيانه.

❁ ❁ ❁

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب للمشركين من أهل مكة والمراد سائر الناس، وقوله: ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي شاهدًا عليكم بتبليغ رسالة ربه، وهذا خاص بمن أدركهم النبي ﷺ، وباشر تبليغهم دون من جاء بعدهم، قال رسول الله ﷺ: **(إنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصيحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ...﴾ [المائدة: ١١٧])[١].

قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ الرسول هو موسى عليه السلام، وقوله: ﴿كَمَآ﴾ الكاف حرف جر و(ما) مصدرية، والجار والمجرور نعت لمصدر محذوف، والتقدير: أرسلنا إليكم إرسالًا؛ كإرسالنا إلى فرعون رسولًا، فمحمد عليه الصلاة والسلام لم يكن بدعًا من الرسل.

قوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي عصى فرعونُ موسى عليه السلام، و(أل) في (الرسول) للعهد الذكري، عرَّفه لتقدم ذكره.

(١) رواه البخاري (٤٣٤٩).

وفي إعادة فرعون مع الرسول مُظهَرَين دون ذكر ضميرهما تفظيع لشأن عصيانه، وأن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى.

قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ أي أهلكناه ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي شديدًا، وذلك بأن أغرقه الله وقومَه في اليم كما أوضح الله ذلك في مواضع من القرآن.

وفي هذا الخبر تهديد للمشركين بأن يأخذهم الله كما أخذ فرعون، وهذه الآية من المواضع التي يقرن الله فيها بين الرسالتين رسالة موسى ورسالة محمد ﷺ، بين شريعة التوراة، وشريعة القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام].

ولعل السر في التنظير بقصة موسى مع فرعون أنها مشهورة عندهم، ولهذا ـ والله أعلم ـ ثنى الله قصة موسى مع فرعون، وفصَّلها كما في سورة الأعراف، ويونس، وطه، والشعراء، والقصص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾.

وجه الشبه في الآية، أعني في تشبيه إرسال محمد ﷺ أولًا إلى الطواغيت من قريش، وفيهم فرعون هذه الأمة أبو جهل[(١)] بإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وجه الشبه هو كمال الإرسال، وعظمة الرسول، وطغيان المرسل إليه في كلٍّ، وتقدير التشبيه: أرسلنا إليكم رسولًا؛ كإرسالنا إلى فرعون رسولًا.

ولا يستلزم ذلك أن تكون رسالة موسى أكمل من رسالة محمد صلى الله عليهما وسلم، فإن المقتضي لهذا التشبيه - والله أعلم - هو تقدم رسالة موسى عليه السلام فحسب، كما قيل ذلك في الصلاة الإبراهيمية: (**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...**).

❁ الفوائد والأحكام:

١ - أن من سنَّة الله في عباده إرسال الرسل إعذارًا، وإنذارًا، ورحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقال ﷻ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات]، وقال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

٢ - أن الرسل يشهدون على أممهم يوم القيامة بتبليغهم

(١) روى الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٦٢)، عن ابن مسعود مرفوعًا: «كان هذا [أي أبو جهل] فرعون هذه الأمة».

رسالات الله، وبما كان منهم من إجابة أو تكذيب وإعراض، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء].

٣ ـ التشابه بين الرسالتين رسالة محمد ورسالة موسى عليهما الصلاة والسلام.

٤ ـ أن سنَّة الله في المكذبين أن يأخذهم أخذًا شديدًا، كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه.

٥ ـ تهديد المكذبين لمحمد ﷺ من قريش، وغيرهم، وتحذيرهم أن يَفعل الله بهم كما فعل بمن قبلهم؛ كفرعون وقومه.

٦ ـ أن فرعون إمام قومه في العصيان والتكذيب، وهو إمامهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود].

٧ ـ الرد على من يزعم من ملاحدة الصوفية أن فرعون قد آمن فنجاه الله.

٨ ـ إثبات القياس، وهو أن حكم الشيء حكم نظيره.

* * *

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

التفسير:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ الفاء لتفريع التهديد بعذاب

الآخرة على التهديد بعذاب الدنيا، ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَتَّقُونَ﴾ أي كيف تتقون عذاب يوم إن أصررتم على الكفر؟! والاستفهام للإنكار، وهو يتضمن نفي قدرتهم على اتقاء عذاب ذلك اليوم وأهواله، كما بيَّن ﷻ ذلك في مثل قوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء].

وفي هذا تهديد للكافرين إن أصروا على كفرهم، ولم يتوبوا، وقوله: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ وصف لذلك اليوم، وفاعل ﴿يَجْعَلُ﴾ ضمير يعود إلى اليوم، وهذا كناية عن شدة أهواله؛ لأن من المعروف أن المخاوف والهموم تشيب الرؤوس، وهذا أصح القولين، أعني أنه كناية؛ لأنه لم يقم دليل على وجود ولدان في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ معناه: أن السماء تتفطر في ذلك اليوم، أي تتشقق كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار]، وقال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق]، وانفطار السماء في ذلك اليوم، وما يطرأ عليها من أحوال هو من جملة أهوال يوم القيامة، والباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ للظرفية، فهي بمعنى (في) كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وتذكير الخبر ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ باعتبار أن السماء اسم جنس، واسم الجنس يذكر ويؤنث، ومن تأنيثها قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [قٓ]، وهذا من تنويع الأساليب في القرآن.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي محققًا، والضمير المجرور في ﴿وَعْدُهُۥ﴾ يعود إلى الله تعالى، أي وعد الله بمجيء ذلك اليوم محقق.

وجاءت ﴿كَانَ﴾ هنا لإفادة التحقيق والدوام فهي للدلالة على تحقق خبرها ولزومه لاسمها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

الفوائد والأحكام:

١ ـ تهديد الكافرين بعذاب يوم الدين.

٢ ـ أن الموجب للعذاب هو الكفر.

٣ ـ أن من لم يؤمن بالقيامة فهو كافر.

٤ ـ أنه لا مرد للعذاب ولا طاقة للكافرين لدفعه عن أنفسهم قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج].

٥ ـ شدة أهوال يوم القيامة شدةً تشيب الولدان فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه أن يُعدَّ له عدته، وأن لا يلهيه الأمل فيترك العمل، وأن يجعل تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره روح أعماله.

٦ ـ انفطار السماء في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

٧ ـ أن يوم القيامة وعد من الله محقق، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ].

٨ ـ الرد على منكري المعاد من سائر الطوائف.

٩ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك، وأن الفلَك لا ينخرق.

* * *

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

التفسير:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ المشار إليه الآيات المتقدمة من أول السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ اسم مصدر، أي تذكير، أي إن في هذه الآيات تذكيرًا، وموعظة للعباد بأوامر الله، ونواهيه، ووعده، ووعيده، والقرآن كله تذكرة وذكر وذكرى، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأثر التذكير التذكر، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ﴿شَآءَ﴾ أي أراد، والفاء للتفريع، وهو تفريع معرفة الطريق الموصل إلى الله ـ وهو الإيمان به وطاعته ـ على التذكرة، بحيث من شاء أن يسلكه طلبًا للنجاة ومغفرة الله وكرامته فهو ميسر واضح المعالم، ومن شاء الإعراض فقد قامت الحجة عليه.

﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ اختار لنفسه سبيلًا، أي طريقًا إلى الله بطاعته وطلب مرضاته، وليس هذا للتخيير، ولكنه حض وترغيب في سلوك سبيل الإيمان والاستقامة.

وإطلاق مشيئة العبد في هذه الآية ونحوها مقيد بما في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير].

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن القرآن بما فيه من أمر ونهي ووعد ووعيد فيه تذكرة للعباد وتبصير.

٢ ـ أن السبيل إلى الله قد وضح للسالكين.

٣ ـ قيام الحجة في هذه التذكرة على المعرضين.

٤ ـ إثبات المشيئة للعبد وأن من آمن أو كفر فبمشيئته، ولكن هذه المشيئة تابعة لمشيئة الله ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ كما تقدم.

٥ ـ الرد على الجبرية.

٦ ـ إثبات ربوبيته تعالى العامة بالملك والتدبير.

٧ ـ أن ربوبيته تعالى تقتضي طلب الطريق إلى مرضاته.

❁ ❁ ❁

❁ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا

تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

التفسير:

ذهب عامة المفسرين إلى أن هذه الآية ناسخة للأمر بقيام الليل، بالمقدار الذي ذكر في أول السورة، واختلف في تاريخ النسخ، فقيل: إن هذه الآية نزلت بعد سنة من نزول السورة بمكة، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، أخرجه مسلم[1]، وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها نزلت في المدينة بعد عشر سنين[2]، وهذا أظهر، لذكر الجهاد والزكاة، فخفف الله بهذه الآية ما فرض من قيام نصف الليل أو أزيد أو أنقص بقيام ما تيسر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ أي تصلي من الليل ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي أقل من ثلثي الليل ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب، وقرئ ـ في السبع ـ بخفض النصف والثلث، أي أدنى من نصفه، وأدنى من ثلثه.

فدلَّ مجموع القراءتين على خمسة مقادير من الوقت:

١ ـ أدنى من ثلثي الليل. ٢ ـ نصفه. ٣ ـ دون نصفه. ٤ ـ ثلثه. ٥ ـ دون ثلثه.

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٦).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٣٦١).

قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ أي بعض أصحابك ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ معطوف على اسم (أَنَّ) في قوله: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾ وجاء مرفوعًا عطفًا على اسم (أَنَّ) بعد تمام الجملة، وهو جائز، قال ابن مالك في الخلاصة:

وجائز رفعك معطوفًا على منصوب إن بعد أن تستكملا

ومنه قوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التوبة: ٣] أي ورسوله بريء.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي يقدر ساعات الليل والنهار فيطوّل هذا ويقصّر هذا، كما قال سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١] ويعلم سبحانه ما مضى وما بقي.

﴿عَلِمَ﴾ أي الله ﷻ ﴿أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ ﴿أَن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والمعنى: علم الله أنكم ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ الضمير المنصوب وهو الهاء قيل: يعود إلى الوقت، أي إنكم لا تعلمون العلم المطابق؛ قدر ما يمضي من الليل وما يبقى؛ لأن ذلك لا يتحقق إلا بكلفة ومتابعة، ولا يدركه إلا الخواص من أهل المعرفة والحساب.

وقيل: إن الضمير يعود إلى القيام، فيكون معنى ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي لن تطيقوه، ومنه قوله ﷺ: **(استقيموا ولن تحصوا)**(١)، أي ولن تطيقوا

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٧٨)، وابن ماجه (٢٧٧)، والحاكم (١/١٣٠)، عن ثوبان رضي الله عنه وصححه، وصححه أيضًا المنذري في الترغيب والترهيب (١/٩٨)، وقال محققو المسند: «حديث صحيح ورجال إسناده ثقات».

القيام بكل ما أُمرتم به من الطاعات، ولا منافاة بين القولين.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا محل النسخ، والفاء للتفريع، وهو تفريع التوبة المتضمنة لتخفيف ما فرضه الله ﷻ من قيام الليل على ما يحصل لهم من المشقة، ولا يلزم من التوبة عليهم أنه حصل منهم ذنب، بل نقص منشؤه الضعف والعجز البشري، ونظير ذكر التوبة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] الآية.

وتفريع التوبة والنسخ هو على ما علمه الله من عجزهم عن الإحصاء، فلهذا النسخ علتان اقتضتاه:

١ ـ ما علمه الله من العجز عن الإحصاء.

٢ ـ ما علمه الله من العوارض من مظان المشقة، وهي المرض والضرب في الأرض والقتال.

ومعنى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي وسّع عليكم برفع ما فرض عليكم من قيام الليل، والندب إلى ما تيسر، وعبّر بالتوبة عن ذلك؛ لأن التوبة ترفع الإثم الواقع، والتوسعةُ برفع الحرج وإزالة ما يُعرِّض العبد للإثم من وجوب أو تحريم = تمنعُ من الوقوع فيه، ففي كل من التوبة والتوسعة بالتخفيف وقاية من الإثم، قال الآلوسي: «﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي بالترخيص في ترك القيام المقدر ورفع التبعة عنكم»[1].

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ الفاء للتفريع، وهو تفريع ذكر

---

(١) روح المعاني (٢٩/١٣٨).

البدل؛ وهو قراءة ما تيسر بعد فرض مقدار معين من قيام الليل في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ في أول السورة، على التوبة المتضمنة للتخفيف والتوسعة، وعبَّر بالقراءة عن الصلاة؛ لأنها بعض أركانها؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي صلاة الفجر، وقد يعبر عن الصلاة بالركوع والسجود والتسبيح. والأمر في قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾ للاستحباب لقيام الدليل على عدم وجوب قيام الليل والوتر، كما في حديث الذي سأل النبي ﷺ عن فرض الصلوات الخمس: قال: هل عليّ غيرها؟ قال ﷺ: **(لا، إلا أن تطوع)**[1]، فنُسخ الواجب بمستحب.

﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي ما سهل عليكم، (ما) اسم موصول يفيد العموم فيشمل، أي قدر من الصلاة، قلّ أو كثر.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ الجملة مستأنفة لبيان العلة الثانية للنسخ، (وأنْ) هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة (سيكون) خبر، و(يكون) تامة، والمعنى: علم الله أنه سيكون، أي سيوجد، ثم ذكر الله ثلاثة أصناف من أهل الأعذار المانعة من قيام الليل المفروض أولًا، وهم المرضى، والضاربون في الأرض، أي المسافرون طلبًا للرزق من التجارة ونحوها، والمقاتلون في سبيل الله، وعبّر عن السفر بالضرب؛ لأن المسافر يسير في الأرض فيضربها برجله.

وهذه الأعذار الثلاثة منها: قهري وهو المرض، ومنها:

---

(١) رواه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١)، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

اختياري، وهو نوعان: مباح، وهو الضرب في الأرض، ومشروع، وهو القتال في سبيل الله، فتضمنت الآية جماع الأعذار، ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ الفاء لتفريع الأمر بقراءة ما تيسر، أي صلاة ما تيسر، على ما سلف من الأعذار، والضمير في (منه) يعود إلى القرآن، والمراد الصلاة كما تقدم، وفي الأمر بقراءة ما تيسر تأكيد لقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وفي إعادة الأمر بالقراءة تمهيد لما بعده من الأوامر. ولما نسخ سبحانه الأمر بقيام الليل وندب إلى صلاة ما تيسر؛ أمر بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. والمراد الصلواتُ الخمس، والزكاة المفروضة، وفي الأمر بهما ـ والله أعلم ـ بعد بيان نسخ قيام الليل تنبيه إلى أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فرضان محكمان لا نسخ فيهما، ودفع لتوهم النسخ.

﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ أي أنفقوا من طيب أموالكم متقربين إلى الله، إنفاقًا طيبة به نفوسكم، مخلصين فيه لله، محتسبين لثوابه، دون منّ ولا أذى، ودون إسراف، ولا تبذير، ولا تقتير. وكل هذه المعاني داخلة في الحسن في قوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾، وسمى الله الإنفاق في سبيله ﴿قَرۡضًا﴾ على وجه التشبيه(١)؛ لأن القرض يراد ردّ بدله، والله تعالى قد وعد المنفقين بالإخلاف مع المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾ [الحديد].

---

(١) البلاغيون يسمون مثل ذلك (استعارة)؛ لأنه حذف منه المشبه؛ وصرح بالمشبه به.

ولم يأمر الله عباده بإقراضه لحاجته بل هو الغني، بل ما يقرضه العباد لربهم هو بعض ما أعطاهم، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧]، وعطف الأمر بالإقراض على الأمر بالزكاة من عطف العام على الخاص لإفادة التعميم.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ جملة مستأنفة لبيان ضمان الله الجزاء العاجل والآجل لكل ما يقدمه العبد من عمل صالح قليلًا كان أو كثيرًا، و(ما) اسم شرط و﴿تُقَدِّمُواْ﴾ فعل الشرط و﴿تَجِدُوهُ﴾ جوابه، وقوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ بيان للمبهم في اسم الشرط، وفسّر الخير هنا بالمال؛ لأن المال يسمى خيرًا، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقيل: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي من كل بر، ومعروف، وعمل صالح، وهذا أظهر؛ لأن الأول يدخل فيه.

وسُمّي فعل الخير تقديمًا للنفس؛ لأن العامل ينتظر جزاءه في المستقبل في يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾ [الحشر: ١٨]، وقوله: ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي تجدوا جزاءه وثوابه، فالضمير المنصوب يعود إلى جزاء العمل الذي قدمه العبد، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي تجدوه محفوظًا ومدخرًا لكم عنده، وهذه العندية يحتمل أن تكون عندية عهد وضمان، أو عندية مكان، وهي التي يعبر عنها بعندية القرب، فإن المؤمنين يجدون ثواب أعمالهم في الجنة وعند لقائه سبحانه، وهذا يتضمن قربًا منه تعالى، والأشبه أنها تشمل النوعين.

﴿هُوَ خَيْرًا﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لتأكيد الضمير المنصوب، ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثان لتجدوه، أي تجدون ثواب ما قدمتم خيرًا من عملكم، وأعظم أجرًا، فإن الله يجزي على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وما بينهما معترض لبيان فضل ما يقدمه العبد من عمل صالح، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ السين والتاء للطلب أي اسألوا الله المغفرة، وللاستغفار صيغ: اللهم اغفر لي، اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي، اللهم إلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين. وقد اجتمعت في الدعاء الذي أرشد إليه النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه حين قال: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال ﷺ: قل: **(اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)**(١).

وحذف معمول (استغفروا) الثاني للعموم، أي استغفروا الله من جميع ذنوبكم.

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ تعليل للأمر بالاستغفار.

و(الغفور) كثير المغفرة، وأصل الغَفْر: الستر، ومنه المِغْفَر، وهو ما يضعه المقاتل على رأسه ليقيه الضرب، فمغفرة الذنوب سترها وعدم المؤاخذة عليها، و(الرحيم): واسع الرحمة، فبالمغفرة

---

(١) رواه البخاري (٧٩٩)، ومسلم (٢٧٠٥).

تحصل النجاة من العقاب، وبالرحمة ينال الثواب، فذكر هذين الاسمين تضمّن الأمرين، وكثيرًا ما يقرن الله بين هذين الاسمين (الغفور) و(الرحيم) مع تقديم الغفور على الرحيم، إلا في آية واحدة في سورة سبأ.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الربوبية الخاصة، بل ربوبية الله لنبيه أكمل ربوبية.

٢ ـ إثبات علم الله بأعمال العباد، وهذا علم الله بأعمال العباد بعد وجودها، وقد علم سبحانه أنها ستوجد.

٣ ـ تسلية النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، وتقوية عزائمهم إذا استشعروا علم الله بقيامهم وطاعتهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء].

٤ ـ تفاوت مقدار ما كان يقومه النبي ﷺ من الليل، وذلك بسبب التخيير المذكور في أول السورة، ومنه ما هو بسبب عدم القدرة على الإحصاء، لقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾.

٥ ـ أن النبي ﷺ أسوة أمته، وأن أمر الله له أمر لأمته؛ إلا ما دل الدليل على اختصاصه به ﷺ، لقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، وكان الأمر في أول السورة بالقيام موجهًا إلى النبي ﷺ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٦ ـ تقدير الله لساعات الليل والنهار بالزيادة والنقص فيهما، قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾. [الحج: ٦١].

٧ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله ﷻ والرد على من أنكرها، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

٨ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

٩ ـ علم الله بعجز العباد عن إحصاء ساعات الليل إحصاءً مفصّلًا، وعجزهم عن إحصاء تمام القيام.

١٠ ـ أن العجز عن الإحصاء مقتضٍ للتوبة والتخفيف، لقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾.

١١ ـ أن التوسعة برفع الوجوب كالتوبة في رفع الإثم.

١٢ ـ نسخ فرض قيام الليل بالندب إلى صلاة ما تيسّر، لقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

١٣ ـ أن الصلاة تُسمى قرآنًا، لقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ ففيه: وجوب قراءة القرآن في الصلاة.

١٤ ـ أن قيام الليل المندوب إليه ليس بمقدر لقوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾، إلا أنه لا يزاد فيه على الثلث لقوله ﷺ: **(أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه)**[(١)]؛ إلا أن يوجد سبب للزيادة كالليالي الفاضلة.

١٥ ـ ثبوت النسخ في الشريعة.

---

(١) رواه البخاري (١٠٧٩)، واللفظ له، ومسلم (١١٥٩) بلفظ: **(أفضل الصلاة صلاة داود...)**.

١٦ ـ نسخ القرآن بالقرآن.

١٧ ـ أن النسخ يكون برفع الوجوب.

١٨ ـ أن النسخ يكون بتقليل المقدار.

١٩ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، لقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، فهو نسخ معلل.

٢٠ ـ تعليل الحكم بعلتين فأكثر.

٢١ ـ علم الله بما سيكون.

٢٢ ـ أن المشقة تجلب التيسير برفع موجِبها، أو تركِ المؤاخذة.

٢٣ ـ أن المرض والسفر من الأعذار المقتضية للتخفيف.

٢٤ ـ فضل السفر في طلب الرزق حيث خصه بالذكر من بين أنواع السفر المباح وقرنه بالجهاد.

٢٥ ـ التسبب في طلب الرزق مع التوكل على الله، والإيمان بأن ما يحصل فضل من الله.

٢٦ ـ أن التجارة من أفضل طرق الكسب حيث خصها بهذا الوصف ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

٢٧ ـ أن القتال في سبيل الله من الأعذار المقتضية للتخفيف كما في صلاة الخوف.

٢٨ ـ بناء نسخ القيام على علمه تعالى بما سيوجد من هذه الأعذار، لقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾.

٢٩ ـ وجوب الصلاة والزكاة.

٣٠ ـ أن من شكر الله على التخفيف في قيام الليل المحافظة على الفرائض.

٣١ ـ أن هذه الآية نزلت بالمدينة لذكر الجهاد والزكاة على أرجح القولين.

٣٢ ـ الندب إلى الإنفاق عمومًا.

٣٣ ـ أن المنفق مقرض لله، ففيه:

٣٤ ـ الوعد بالإخلاف وبالثواب المضاعف.

٣٥ ـ أن الإنفاق الذي أمر الله به هو ما اشتمل على أسباب القبول؛ كالإخلاص، والإنفاق من كسب طيب مع طيب النفس، لقوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾.

٣٦ ـ الإشارة إلى أن الإنفاق من الحرام لا يقبل، وذلك لقوله تعالى: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ والحرام ليس بخير بل هو شر.

٣٧ ـ أن ما ينفقه الإنسان هو الذي يبقى لنفسه، وما ترك فلوارثه.

٣٨ ـ أن الثواب على الأعمال يرجى من الله، ويجده العامل عند الله.

٣٩ ـ أن الثواب عام لجميع الأعمال؛ قليلها وكثيرها، لقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾ و(ما) اسم شرط يفيد العموم.

٤٠ ـ البشارة والوعد بمضاعفة الثواب، وذلك في أربعة مواضع في الآية، وهي: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

٤١ ـ إثبات عندية الضمان والقرب.

٤٢ ـ وجوب الاستغفار من جميع الذنوب استغفارًا يتضمن التوبة، ويدخل في الأمر بالاستغفار: الاستغفار من التقصير بترك مستحب، أو فعل مكروه.

٤٣ ـ إثبات الاسمين الكريمين (الغفور)، و(الرحيم)، وما دلَّا عليه من صفة المغفرة والرحمة، وهما صفتان ذاتيتان فعليتان.

٤٤ ـ أن من آثار الإيمان بهذين الاسمين: الاستغفار.

٤٥ ـ ضرورة العبد إلى الاستغفار؛ لأنه عرضة للتقصير في حقوق الله، وبهذا تظهر مناسبة الأمر بالاستغفار بعد الأمر والترغيب في الأعمال الصالحة من فرض وتطوع.

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

هذه السورة مكية، وكان نزولها بعد سورة العلق على قول الجمهور ـ كما قال ابن كثير[١] ـ وبها أرسل النبي ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمدَّثِّر: أصلها المُتَدَثِّر، أي المتلفف بالثياب وهو الثوب الذي يُلتحف به، وهذا نداء بالوصف الذي كان عليه النبي ﷺ عند نزول القرآن، قال ابن عطية: «واختلف الناس لم ناداه بالمدثر؛ فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري: من أنه لما فرغ من رؤية جبريل على كرسي بين السماء والأرض، فرعب منه ورجع إلى خديجة فقال: زملوني زملوني، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»، وفيه تلطف به، كما مر بيانه في سورة المزمل، ولأن المطلوب منه ضد هذه الحال، وهو الجد والقيام بالدعوة إلى الله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٨٩).

ولهذا قال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي أنذر الناس عذاب الله، وحذف المفعول للتعميم، وأصل الإنذار: الإعلام بمخوف.

وابتدئ بالأمر بالإنذار، ولم يقل: (فبشر)؛ لأنه في ابتداء النبوة، وليس هناك من يبشره.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظمه بالتوحيد والعبادة، والفاء في هذه الآية وفي الآيتين التاليتين؛ الصحيح أنها لإفادة معنى الشرط، فهي واقعة في جواب شرط مقدر، أي أما ربك فكبر، وأما ثيابك فطهِّر. وقيل: إنها عاطفة وهذا بعيد؛ لأنها في جملة معطوفة، وقيل: إنها زائدة، وهذا على خلاف الأصل.

قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهر ثيابك من النجاسات الحسيّة، وهذا على ظاهره، ويحتمل أن المراد بالثياب الأعمال والأخلاق، فيكون المعنى: طهّر نفسك عمَّا تذم به، تقول العرب: فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب وطيب الأردان ونقي الذيل، إذا وصف بالسلامة من العيوب والأخلاق الرديئة، فهو كناية عن صفة، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين معًا، فإن حمل اللفظ على حقيقته ومجازه جائز عند الجمهور.

قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجز - بضم الراء المشددة -: الأصنام، وهو اسم جنس، وقرئ في السبع بكسرها، والمعنى واحد، وأصل الرّجز - بالضم والكسر -: العذاب، ثم كثر استعماله في كل ما أوجب العذاب، ولذا سُميت الأصنام رُجزًا، فهو من التعبير بالمسبَّب عن السبب.

ويطلق الرّجز أيضًا في اللغة على القذر، وما يُستقبح؛ كالرِّجس، وهذا المعنى أيضًا موجود في الأصنام، ولذا سماها الله رجسًا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة: ٩٠].

قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي اترك عبادة الأصنام، والمعنى دم على ذلك، فإنه ﷺ كان بريئًا من عبادتها، قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ من المن والإعطاء، ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط العطية لتأخذ أكثر منها، بل اجعل عطاءك لله، والمن يطلق على العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، وقوله: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ بالرفع، والجملة في محل نصب على الحال، أي لا تعط مستكثرًا، والسين والتاء للطلب.

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ اللام للتعليل، أي اصبر لأجل ربك على الأوامر والنواهي، وعلى تكاليف الدعوة ومشاقها، ومن مشاقها تكذيب المكذبين. والله أعلم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ مراعاة حال المخاطب، وذلك بذكره بالصفة التي هو عليها.

٢ ـ التلطف من الله في خطابه لنبيه ﷺ.

٣ ـ استثارة همته عليه الصلاة والسلام للقيام بما أُمر به.

٤ ـ أن التلفف في الثياب والنوم مما لا يليق بحامل الرسالة، ولهذا أمر بالقيام بالنذارة.

٥ ـ ثبوت الرسالة له ﷺ، لقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ بعد ثبوت النبوة.

٦ ـ أن أول ما يجب على الرسول إلى من أرسل إليهم إنذارُهم عذاب الله.

٧ ـ أن النذارة قبل البشارة.

٨ ـ أن المقصود من إنذار العذاب تركُ أسبابه وأعظمها الشرك بالله.

٩ ـ وجوب تعظيم الله بعبادته وحده لا شريك له.

١٠ ـ أن ربوبيته تعالى تقتضي تعظيمه وتوحيده.

١١ ـ وجوب تطهير الثياب من النجاسات الحسية، ووجوب تطهير الأعمال من النجاسات المعنوية.

١٢ ـ وجوب مجانبة الأصنام، وكل ما يُعبد من دون الله بترك عبادتها، وبالبراءة منها.

١٣ ـ أن الأصنام سبب للعذاب، ولذا سميت رجزًا.

١٤ ـ أن الأصنام خبيثة مستقذرة كما سماها الله رجسًا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠].

١٥ ـ النهي عن الإحسان، وبذلِ المعروف طلبًا للمكافأة، والزيادة عليه إلا من الله.

١٦ ـ أن الكرم في البذل ما كان خالصًا لله تعالى.

١٧ ـ أن المن يأتي بمعنى البذل والإحسان فهو مَنٌّ ممدوح، بخلاف المن بعد البذل تطاولًا على الآخذ المُعْطَى، كما قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

١٨ ـ وجوب الصبر على المشاق والمصائب، ومن أفضل ذلك الصبر في الدعوة إلى الله على التكذيب والأذى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤].

١٩ ـ الإخلاص لله في الصبر، لقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ وهذا هو صبر الرسل وأتباعهم، وهو ما كان لله وبالله، فهو بالله استعانةً وله إرادة، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال هنا: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

٢٠ ـ الإيذان بما سيلقى النبي ﷺ من الأذى، وذلك لأن الله أمره بالصبر في أول ما نزل من الآيات، والله أعلم.

* * *

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾، الفاء للسببية، وهي بمعنى لام التعليل؛ كالفاء الثانية في قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] أي لأنك رجيم، والمعنى: اصبر يا أيها النبي على أذى

المكذبين، فإن بين أيديهم يومًا عسيرًا يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى أنت عاقبة صبرك.

قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ أي نُفخ، ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي الصور، وأصل النقر: القرع والطرق الذي ينشأ عنه الصوت، والناقور: الصور، وهو بوق يُنفخ فيه، وهو مخلوق عظيم، وجاء في السُّنَّة تسميته قرنًا، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: ما الصور؟ فقال: **(قرن يُنفخ فيه)**[(١)]، والنافخ إسرافيل، والنفخة المذكورة هي الثانية، وهي نفخة البعث والنشور وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس]، ومجيء (إذا) والتعبير بالماضي المبني للمفعول في قوله: (نقر) لتحقق الوقوع.

قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، (ذلك) اسم إشارة، والمشار إليه الوقت المفهوم من (إذا)، أي فذلك الوقت أو اليوم الذي يُنقر فيه في الناقور، وقوله: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي شديد، وهو خبر لقوله (فذلك) وقوله: (يومئذ) بدل من اسم الاشارة الذي قلنا إنه بمعنى فذلك، وفائدة هذا الإبدال زيادة التقرير والتصوير في الأذهان.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بـ (عسير)، وقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، والترمذي (٢٤٣٠)، وقال: «حديث حسن»، وأبو داود (٤٧٤٢)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٠).

تأكيد لمعنى (عسير)، أي إنه بالغ العسر، لا يرجى معه يسر أبدًا. والله أعلم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تسلية النبي ﷺ وتصبيره.

٢ ـ تهديد المكذبين بذكر يوم النفخ في الصور، الذي يكون بعده الجزاء.

٣ ـ إثبات الصور، وهو المراد بالناقور، ويسمى القرن.

٤ ـ أن النقر في الصور: هو التصويت الذي ينشأ عن النفخ فيه، ولذلك سمي صيحة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يسٓ].

٥ ـ أن النقر في الناقور المذكور في الآية هي النفخة الثانية، نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ لأنه الوقت الذي يشاهد فيه الكفار أهوال القيامة ويوقنون بسوء مصيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان].

٦ ـ أن شدة يوم القيامة أشد ما تكون على الكافرين، ولذا خصُّوا بعسر هذا اليوم عليهم عسرًا لا يسر فيه، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

٧ ـ أن ذلك اليوم يسير على المؤمنين؛ لأنه لا يكون عسيرًا على الكافرين؛ إلا وهو يسير على غيرهم، وهم المؤمنون.

٨ ـ أن الكفر بالله ورسله هو سبب الشقاء في الآخرة، وأن الإيمان بالله واتباع الرسل سبب السعادة في ذلك اليوم، ففيها البشارة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود].

* * *

ولما ذكر الله الكافرين في قوله: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ **ذكر أحد صناديد الكفر، مهددًا له بأعظم أنواع التهديد، وهذا من الخصوص بعد العموم، فقال ﷻ:** ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾.

التفسير:

هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، فقد روى عبد الرزاق في التفسير(١)، والحاكم في المستدرك(٢)، والبيهقي في دلائل النبوة(٣) بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٢٨).
(٢) المستدرك (٢/ ٥٠٦)، قال الحاكم: «وهو على شرط البخاري»، ووافقه الذهبي.
(٣) دلائل النبوة (٢/ ١٩٨).

سمع من النبي ﷺ قرآنًا فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال له: يا عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لِتَعْرِضَ لما قِبَله، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ وما فيكم أحد أعلم بالأشعار منّي، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مُغْدِقٌ أسفلُه، وإنه ليَعلو ولا يُعْلى، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثُره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾ الآيات.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي اتركني وإياه فأنا أكفيكه، والواو للمعية، وهذا أسلوب تهديد في لغة العرب، قوله: ﴿وَحِيدًا﴾ حال مِنْ (مَن) الموصولة أو من المفعول المحذوف في قوله: ﴿خَلَقْتُ﴾ أي خلقته.

وقوله: ﴿وَحِيدًا﴾ أي منفردًا، وهو (فعيل) من (وَحُد)، من باب كَرُم وعَلِم، إذا انفرد والمعنى: خلقته وحيدًا، فخرج إلى هذه الحياة لا مال له ولا ولد، قوله: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي مبسوطًا واسعًا، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي حضورًا معه في مكة لا يفارقونه في سفر ولا غيره لكونهم مكفيين أمور الحياة، قيل: كان أولاده ثلاثة عشر، وقيل: عشرة، قال ابن حجر: وقد أسلم منهم ثلاثة، هم خالد وهشام والوليد[١].

---

(١) الإصابة (٣/ ١٧١).

ولما ذكر الله كثرة أمواله وبنيه بيّن انبساط جاهه ورياسته، فإن الأولين لا يستلزمان الثالث، فقال ـ على سبيل التعميم بعد التخصيص ـ: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أصل التمهيد هو التسوية والتهيئة، ومنه تمهيد الأرض، ويُتجوز به عن تيسير الأمور وبسط الجاه، وقد حُذف مفعول (مهدت) للتعميم والاختصار، فأتم الله للوليد نعمة المال والجاه والبنين، واجتماع هذه الثلاث هو الكمال عند أهل الدنيا، ولذا كان الوليد بن المغيرة من أكابر قريش.

قوله: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ﴾ أي الوليد ﴿أَنۡ أَزِيدَ﴾ أي في ماله وولده ورياسته مع كفره بالله وتكذيبه للرسول ﷺ وقوله في القرآن إنه سحر! لا يكون ذلك، ولذا قال سبحانه: ﴿كَلَّآۖ﴾ ردع له وزجر عن طمعه الفارغ، وقطع لرجائه الخائب، ليس الأمر كما زعم هذا المكذب الأثيم لا أزيد على ذلك.

ثم ذكر الله سبب هذا الردع والزجر، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الوليد ﴿كَانَ لِأٓيَٰتِنَا﴾ وهي القرآن ﴿عَنِيدٗا﴾ أي معاندًا بالغ العناد والجحد، قوله: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه عذابًا شاقًا لا راحة معه، ولا قبل له به، وذلك في الآخرة.

وأصل الصَّعود ـ بفتح الصاد ـ: العقبة التي يصعب اقتحامها، وقد جُعلت في كلامهم مثلًا في تكليف الأمر الشاق الذي لا يطاق.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تهديد الله للوليد بن المغيرة الكافر بالله وبرسوله، والكافر بنعمه، وهذا التهديد مجمل في قوله: ﴿ذَرۡنِي﴾.

٢ ـ أن الوليد بن المغيرة واحد من الكافرين الموعودين بعسر يوم القيامة عليهم.

٣ ـ أن الوليد من أكثر أهل مكة مالًا وولدًا، ومع ذلك يطلب المزيد.

٤ ـ تهديده بقطع طمعه في الزيادة.

٥ ـ أن سبب ذلك عناده لآيات الله بجحدها مع معرفته بصدقها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

٦ ـ تفصيل ما هدده الله به، وذلك في قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.

٧ ـ تذكير الإنسان بخروجه إلى هذه الدنيا فريدًا فقيرًا جاهلًا لا ولد له، ولا مال، ولا علم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]، وكما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم].

٨ ـ فضل البنين على البنات، وأن المنَّة بهم أعظم، ولا سيما عند من يحتقر البنات، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية.

٩ ـ أن حضور البنين عند أبيهم أكمل في سعادته؛ لأنه يمكن أن يعول عليهم في شؤونه وفي نصرته.

١٠ ـ أن النعم من الله تستوجب الإيمان والشكران.

١١ ـ أن الكافر المنعَّم عليه بالمال والولد وتيسير أمور الحياة أشد كفرًا وعقابًا ممن ليس كذلك.

١٢ ـ أن عذاب الله شديد شاق يُكلَّفه الكافر، وهو عذاب لا يطاق.

١٣ ـ أن الله واحد لا شريك له في ربوبيته، فهو الخالق وحده، والمنعم وحده، وهو المجازي على الأعمال.

❁ ❁ ❁

۞ ولما أخبر الله عن ذلك الكافر أنه كان معاندًا للقرآن بيّن شيئًا من حاله في عناده فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الوليد بن المغيرة ﴿فَكَّرَ﴾ أي فكَّر في نفسه؛ ماذا يقول في القرآن؟ ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي تروى في ذلك، قوله: ﴿فَقُتِلَ﴾ هذا دعاء عليه، وصح عن ابن عباس أن قُتل بمعنى لعن[1].

قوله: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجب وتعجيب من حاله وتقديره، واستهزاءٌ

---

(١) جاء ذلك في تفسيره لقوله تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ في الذاريات، كما في صحيفة علي بن أبي طلحة (ص٤٨٩)، وقد أثنى على هذه الصحيفة الإمام أحمد، وعلي وإن كان لم يلق ابن عباس، إلا أنه سمع من ثقات أصحابه، فلذا اعتمد روايته عنه المحققون؛ كالبخاري، وابن أبي حاتم، وغيرهما، قاله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العجاب في بيان الأسباب (١/ ٢٠٧).

به، ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تأكيد للتعجب، والتعجيب منه، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي تروَّى، وأعاد التفكير، وهذا عطف على قوله: ﴿فَكَّرَ﴾ وما بينهما معترض لتعجيل ذكر الوعيد له والدعاء عليه وتسفيه رأيه، ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي قطّب وجهُه ﴿وَبَسَرَ﴾ أي كلح وجهُه وتغيّر لونه، وذلك حين ضاقت عليه الحيل، ولم يعثر على مطعن في القرآن، و(عبس) من باب جلس، و(بسر) من باب دخل، والبسور أشد من العبوس، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي تولّى عن الإيمان بالله والتصديق بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي عن قبول الحق والإقرار به.

قوله: ﴿فَقَالَ﴾ أي بعد أن فكّر وقدّر ـ وبئس ما قال ـ ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي القرآن، و(إن) حرف نفي، ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي يُروى عن السحرة.

والفاء مشعرة بأنه نطق بذلك بعد أن خطر بباله من غير تلبُّث، ثم أكد قوله: بأنه سحر لما يعلم من إنكار من يسمعه، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي ليس من كلام الله، بل من كلام الناس، وإن هذا الشقي ينطبق عليه ما قيل فيه وفي أمثاله: سكت ألفًا ونطق خَلفًا.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن كفر الوليد وعناده للآيات عن تفكير وتقدير، لا عن جهل وتقصير.

٢ ـ حرصه على تمويه كذبه على القرآن، وتلبيسه، وتمويهه على الناس.

٣ ـ أن تفكيره، وتقديره استوجب الدعاء عليه بالقتل، والهلاك، وأعظم ذلك الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

٤ ـ التعجب والتعجيب من قبح تقديره.

٥ ـ اجتهاده في التفكير فيما يرد به الحق، وإجهاده نفسه في ذلك إلى حد أن يتغيّر وجهه.

٦ ـ بيان ما أنتج له هذا التفكير والتقدير، وهو الإدبار والاستكبار والكذب الكُبَّار، وهو زعمه أن القرآن قول البشر، وأنه سحر يتلقاه محمد عن غيره.

٧ ـ إثبات صفة التعجب والتعجيب لله تعالى.

* * *

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ الضمير يعود إلى الوليد بن المغيرة ﴿سَقَرَ﴾ أي جهنم، و﴿سَقَرَ﴾ اسم ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، والمعنى: سأدخله جهنم يصلى حرها ويعاني شدائدها، والآية بيان لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾، الاستفهام للتهويل والتعظيم، والخطاب في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ لغير معين ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ الجملة مستأنفة، وهي خبر عن سقر، أي إنها مدمرة مهلكة لا تبقي

على شيء يُلقى فيها ولا تدعه، ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هي، والجملة مستأنفة، و﴿لَوَّاحَةٌ﴾ صيغة مبالغة، من لاحه إذا غيّره وسوَّده، و(البشر) جمع بَشَرة، وهي جلد الإنسان، وهذا اسم جنس جمعي، مثل: بقر وبقرة. ومعنى الآية أن النار ـ أعاذنا الله منها ـ محرقة للجلود مغيّرة لها، قال الله ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

وهذا التفسير هو المأثور عن مفسري السلف؛ مجاهد وقتادة وغيرهما[١]، ويمكن أيضًا على هذا التفسير إبقاء (البشر) على معناه المشهور، أي الناس، وهو اسم جنس، فيتحد معناه ـ أي لفظ البشر ـ مع ما قبله وما بعده في هذه السورة، فإنه جاء في ثلاثة مواضع سوى هذا، وتقدير المعنى: لواحة للبشر، أي مغيرة لجلود الناس، والله أعلم.

قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على سقر ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي ملكًا، أي موكَّل عليها تسعة عشر من الملائكة، والمعدود مفرد، كما هو الأصل، وظاهر الآية أيضًا.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات النار.

٢ ـ أن من أسماء النار سقر.

٣ ـ تهديد الكافر (الوليد) بعذاب جهنم.

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٣٣) لابن جرير.

٤ - فظاعة عذاب جهنم وهوله، لقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾.

٥ - أن جهنم تحطم كلَّ ما يُلقى فيها من الكفار، فلا تدع منهم أحدًا من غير أن يموتوا.

٦ - تأثير النار في جلود أصحابها بالإنضاج، والتغيير لألوانها.

٧ - أن خزنة جهنم تسعة عشر ملكًا، ويقال لهم: الزبانية، قال تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق]، وهم غلاظ شداد، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦].

٨ - إثبات الملائكة، وهم عالم غيبي، عابدون لله تعالى، خلقهم الله من نور، ومنحهم الانقياد التام لأمره، والقوة على تنفيذه، والإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، وأن للملائكة عقولًا يتصرفون بها فيما وُكِّلوا فيه.

٩ - الرد على من يزعم أنهم مسخرون تسخير الشمس والقمر، فأفعالهم غير إرادية.

❁ ❁ ❁

❁ **ولما ذكر الله ﷻ أن على النار تسعة عشر من الملائكة موكلين بها؛ بيَّن الحكمة من عددهم فقال:** ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي ليسوا من جنس البشر ولا غيرهم بل هم ملائكة، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي عددهم المذكور ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ هذا مفعول ثانٍ لـ ﴿جَعَلْنَآ﴾ الثانية، ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي اختبارًا وابتلاءً لهم، ليؤمن من شاء الله هدايته، ويزداد الآخرون كفرًا على كفرهم.

قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ أي ليوقن، والسين والتاء للتأكيد ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى، أي ليستيقنوا صدق القرآن وأن الرسول محمدًا ﷺ حق، حيث جاء بما يوافق ما عندهم في عدد خزنة النار من الملائكة ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أي إلى إيمانهم، والمراد الذين آمنوا بمحمد وبالقرآن، ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي ولا يشك ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا تأكيد، وتقوية لما قبله من الاستيقان، وازدياد الإيمان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شبهة في الحال والاستقبال، ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك وسوء ظن بالقرآن، وهم المنافقون، وأكثر ما يطلق هذا الوصف في القرآن على المنافقين، ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي خبرًا ووصفًا، و﴿مَثَلًا﴾ حال من (هذا)، والمشار إليه العدد تسعة عشر، والمعنى: أن هؤلاء الكفرة والمنافقين يقولون: ماذا أراد الله بهذا العدد الذي هو مَثَل في الغرابة؟! والاستفهام للتعجب والاستبعاد، وغرضهم نفي أن يكون

ذلك الخبر من الله، وإنما نسبوه إليه سبحانه استهزاء، حسبما يزعمه من جاء بالقرآن وهو غير صادق عندهم. وقولهم هذا أَثَر اختبارهم وابتلائهم بهذا الخبر، وهذه الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ضلال الكافرين واهتداء المؤمنين، والكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، أي يضل ويهدي مثل هذا الإضلال والهدى من يشاء من عباده، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لكثرتهم في السماوات والأرض، ومنهم الملائكة المذكورون، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] والجنود جمع جُنْد، ويطلق على كل جمع، ومنه قوله ﷺ: **(الأرواح جنود مجندة)**[(١)].

قوله: ﴿وَمَا هِىَ﴾ أي عدة الملائكة التسعة عشر ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ الذكرى: اسم مصدر التذكير، قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي الإنس، والجن لهم تبع، كما في سائر خطابات القرآن، وكما أنهم تبع للإنس في أصل الرسالة، إذ الرسل من الإنس على الصحيح، والمعنى: ما العدة إلا تذكير بعظمة الله، وقوته، وقوة جنوده.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ جواز أن يقال في خزنة جهنم: إنهم أصحاب النار.

٢ ـ بيان الحكمة من تخصيص هذا العدد (تسعة عشر)، وهي خمسة أمور:

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٨)، عن عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٦٣٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

- أن يكون ذلك فتنة للذين كفروا.

- أن يستيقن الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون.

- أن يزداد الذين آمنوا إيمانًا.

- ألّا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون.

- أن يقول الذين كفروا: ماذا أراد الله بهذا مثلًا.

٣ - تعليل أفعال الله تعالى، والرد على الجهمية في ذلك.

٤ - أن للهداية أسبابًا، وللضلال أسبابًا.

٥ - أن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

٦ - الرد على القدرية القائلين بأن العبد يخلق فعله، وأن الله لا يقدر أن يضل أحدًا، ولا يهدي أحدًا.

٧ - إثبات المشيئة لله تعالى.

٨ - أن مطابقة ما في القرآن لما عند أهل الكتاب حجة عليهم؛ لأنه من أسباب يقينهم بالقرآن.

٩ - أن الإيمان يزيد، وأن أخبار القرآن يزيد بها الإيمان.

١٠ - أن من تأكيد إثبات الشيء نفيَ ضده، لقوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ بعد قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾.

١١ - أن القلب يمرض كما يمرض البدن، ولكنه مرض معنوي، وهو مرض الشك وسوء الظن.

١٢ - اعتراض الكفار والذين في قلوبهم مرض على أخبار الله، وما يضربه من الأمثال.

١٣ ـ ذم الله للمنافقين بأن في قلوبهم مرضًا، مما يدل على أنهم أسوأ حالًا من الكافرين.

١٤ ـ أن المنافقين أمكن من الكافرين في هذا القول الباطل كما يدل عليه تقديمهم في الذكر.

١٥ ـ فيها علم من أعلام نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر عن المنافقين ولم يأتوا بعد، فالسورة مكية، بل هي أول ما نزل بعد العلق.

١٦ ـ كثرة جنود الله في السماوات والأرض، وهم عبيده من الملائكة، والجن، والإنس، وغيرهم.

١٧ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى.

١٨ ـ إحاطة علم الله بجنود السماوات والأرض.

١٩ ـ إثبات الربوبية الخاصة لله تعالى، لقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾.

٢٠ ـ أن ذكر عدد خزنة جهنم التسعة عشر ـ وهم قليل ـ إنما هو للذكرى، أي تذكير البشر بقوة الله وقوة جنده، كما وصف الله الملائكة الموكلين بالنار بقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، ولا يقدح في ذلك قلة عددهم.

* * *

قال تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر، وهو زجر وردع للمستهزئين،

والمكذبين بما يوعدون به من عذاب جهنم، وما يذكر لهم من صفاتها، وعدد خزنتها، وهو استهزاء وتكذيب مفهوم من قوله: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾.

ثم أقسم ﷻ ببعض مخلوقاته العظيمة الدالة على ربوبيته وإلهيته وقدرته وحكمته ورحمته وكمال علمه، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾، وهو آية الليل ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي ولّى وذهب، وهذه قراءة نافع، وحمزة وحفص، وقرأ الباقون: (إذا دَبَر)، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: دبر الليل وأدبر، إذا ولّى ذاهبًا. والأكثر استعماله بالهمزة، إلا في قولهم: أمس الدابر، فإنه شائع.

قوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي أضاء وانكشف. وهذه ثلاثة أقسام، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ والضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ قيل: إنه يعود على القيامة، واختاره ابن القيم[(١)].

وقيل: إنه عائد على عدة خزنة جهنم التسعة عشر.

والأظهر أنه يعود على النار، وهي سقر، وهذا قول جمهور المفسرين، وجاء عن ابن عباس ﵄، وغيره من السلف.

وقد جاء وصف النار بالكبرى في قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى].

قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار، ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أي الدواهي والعظائم، و﴿ٱلْكُبَرِ﴾ جمع كبرى مؤنث الأكبر، وتجمع الكُبَر أيضًا على كُبْريات.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٠٨).

ومعنى أن النار إحدى الكبر، أنها واحدة متميزة من بينهن في العظم لا نظير لها، كما تقول: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء، وهذا من أساليب الكناية، قال الراجز:

يا ابن المعلَّى نزلت إحدى الكُبَرْ داهيـةُ الدهر وصَمَّاءُ الغُبَرْ[(١)]

قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ النذير: مصدر بمعنى الإنذار، فهو مثل النكير بمعنى الإنكار، ولذا صح وقوعه حالًا من المؤنث وهو (إحدى)؛ لأن المصدر إذا وُصف به أو أُخبر به فإنه يلزم الإفراد والتذكير نحو: رجل عدل وامرأة عدل، والمعنى: أن النار عظمى العظائم منذرةً للبشر.

ويحتمل أن ﴿نَذِيرًا﴾ مصدر منصوب بفعل مقدر، وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، أي أُنذر بها إنذارًا للبشر، وهذا وجه حسن.

و(البشر): الإنس، والجن لهم تبع، كما هو في سائر خطابات القرآن، قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل مفصّل من مجمل[(٢)] من قوله ﴿لِّلْبَشَرِ﴾، قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ أي بالإيمان والطاعة ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بالكفر والعصيان.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ زجر المكذبين عن التكذيب وتهديدهم بالعذاب الشديد.

---

(١) البيت لعبد الله بن الأعور الحرمازي، وهو في المعاني الكبير لابن قتيبة (٢/ ٦٧١)، والمستقصى للزمخشري (١/ ٤٢١)، وصَمَّاء الغَبَر ـ بالتحريك ـ هي الحية تُضرب مثلًا للداهية العظيمة الشديدة.

(٢) وهو بدل كل من كل.

٢ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به ﷻ.

٣ ـ أن إقسامه تعالى بالشيء يدل على عظم شأنه.

٤ ـ أن القمر والليل عند إدباره، والصبح وقت إسفاره، من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته وحكمته ورحمته.

٥ ـ توجيه العباد إلى التفكر في هذه الآيات، وما فيها من الدلالات، وما لهم فيها من المصالح.

٦ ـ أن مشهد الوجود ساعة إدبار الليل من المغرب، وإقبال النهار مسفرًا من المشرق، مشهد يبعث على التفكر والتذكر لقدرة الله، وحكمته، ورحمته، والتذكر للبعث والنشور من القبور، ويقابله مشهد الوجود ساعة إدبار النهار من المغرب، وإقبال الليل من المشرق.

٧ ـ أن النار المعدة للكافرين نار كبرى، بل هي أكبر الكُبَر من النيران، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى]، وقال سبحانه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية].

٨ ـ أن ذكر الله للنار إنذار للعباد، وتخويف للعباد لمن يؤمن أو يكفر، أو يطيع أو يعصي، فمن تقدم؛ فآمن وأجاب وخشي ربه وأناب، فقد انتفع بالإنذار، ومن تأخر عن الإيمان، وأصر على الكفر والعصيان، فذلك الذي باء بالشقوة والحرمان؛ إذ لم ينتفع بما جاء من الإنذار.

٩ ـ أن للعبد مشيئة واختيارًا، ففيها:

١٠ ـ الرد على الجبرية.

* * *

۞ ولما أخبر تعالى أن الناس بعد الإنذار منهم المتقدم ومنهم المتأخر بيَّن أن كلَّ عاملٍ محبوسٌ على عمله، لا يُنقص من حسناته، ولا يزاد في سيئاته، إلا أصحاب اليمين ـ وهم المؤمنون المتقون ـ فإنهم تضاعف حسناتهم، فيتبوأون بها جنات النعيم، والدرجات العالية، فقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي من ذكر وأنثى ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي عملت، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي بكسبها، أو اسمًا موصولًا، أي بالذي كسبت ﴿رَهِينَةٌ﴾ أي محبوسة على عملها، وأنث ﴿رَهِينَةٌ﴾ مراعاة لـ ﴿نَفْسٍ﴾ فهي مؤنثة، وجاءت على التذكير في سورة الطور تبعًا لما هي خبر عنه، في قوله سبحانه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ثم استثنى الله أهل الإيمان، فقال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي فإنهم تضاعف لهم الحسنات، والاستثناء متصل، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هم في جنات جمع جنة والتنكير للتعظيم، أي

جناتٍ لا يُكْتَنه كُنهها ولا يدرك وصفها، ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ خبر ثان، أي يسأل بعضهم بعضًا، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطور] ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكفار، ولا يطلق وصف المجرم في القرآن إلا على الكافر، ثم توجه المتسائلون إلى المجرمين وهم في النار يسألونهم قائلين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أيْ أيُّ شيء أدخلكم ﴿فِى سَقَرَ﴾، وهي النار أعاذنا الله منها، والاستفهام لتوبيخهم وتحقيرهم، وإلا فالمؤمنون عالمون بسبب دخولهم النار.

﴿قَالُوا۟﴾ أي المجرمون مجيبين: ﴿لَمْ نَكُ﴾ أي في الدنيا ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ قدمت الصلاة؛ لأنها أظهر شعائر الدين وآكدها، وأعظم ما يتميز به المسلمون من الأعمال.

قوله: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي لم نك نتصدق على المحتاجين إلى الطعام من الفقراء المعدمين ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ أي ندخل في الكلام الباطل ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾، فنتحدث بالهُجْر والتكذيب والاستهزاء بآيات الله ورسله، وأصل الخوض قيل: هو الذهاب في الماء، ثم نقل إلى الذهاب في الكلام والتنقل بالحديث، ثم غلب على الإكثار من باطل الكلام وما لا يفيد من الحديث، وأكثر ما استعمل في القرآن بهذا المعنى، أي في الكلام الباطل.

قوله: ﴿وَكُنَّا﴾ أي في الدنيا ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم القيامة، والدين: الجزاء، ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي الموت، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غائية للجمل الأربع التي قبلها، أي نفعل ذلك مدة حياتنا كلها، وهذا اعتراف منهم بما أوجب لهم العذاب، ولهذا قال سبحانه:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾ أي وهذه حالهم ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ والفاء للتفريع، أي لو كان هناك من يشفع لهم ـ ولا شافع لهم ـ فإن الله لا يأذن بالشفاعة للكفار.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن كل عامل مقصور على عمله مجزيٌّ به، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يسٓ].

٢ ـ إثبات الكسب للعبد والردُّ على الجبرية.

٣ ـ أن أصحاب اليمين ـ وهم المؤمنون ـ لا يقتصر ثوابهم على قدر أعمالهم، بل تضاعف حسناتهم عشرة أضعاف إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٤ ـ أن المؤمنين هم أصحاب اليمين، والمجرمين هم أصحاب الشمال.

٥ ـ فضل اليمين حيث أضيف أصحاب الجنة إليها.

٦ ـ أن أهل الجنة يتساءلون عن المجرمين الذين كانوا يعرفونهم في الدنيا، وماذا فُعل بهم.

٧ ـ أن الله يطلع أهل الجنة على أهل النار فينادونهم ويسألونهم عن أسباب مصيرهم توبيخًا لهم.

٨ ـ أن الجنة درجات، ولذلك جمعت، وجاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن أم الرُّبَيِّع بنت البراء، وهي أم حارثة بن

سراقة ﵄ أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم غَرْب ـ فإن كان في الجنة صبرتُ وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه في البكاء، قال: **(يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى)**[1].

٩ ـ أن من أسماء النار سقر.

١٠ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة من المأمورات والمنهيات، ولهذا ذكروا من أسباب دخولهم النار ترك الصلاة وترك الإنفاق.

١١ ـ أن الكفار معاقبون على ترك الواجبات وفعل المنهيات.

١٢ ـ أن من موجبات معاقبتهم التكذيب بالجزاء والمعاد.

١٣ ـ أن من أسباب العذاب الكلامَ الباطل، ومنه التكذيب بآيات الله، والاستهزاء بها والجدال فيها، والقول على الله بغير علم.

١٤ ـ وجوب إطعام المسكين بإيتاء الزكاة، أو بدفع ضرورة المضطر.

١٥ ـ أن الصلاة والصدقة من أعظم أسباب النجاة، وأعظمها الصلوات الخمس والزكاة.

١٦ ـ أن التكذيب بالجزاء هو السبب في ترك الأعمال الصالحة من الصلاة، وإطعام المسكين وغير ذلك، وفعل القبائح

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤).

كالخوض بالباطل، ولعل هذا هو السبب في تأخير التكذيب بالجزاء عما قبله، فهو من قبيل ذكر السبب بعد المسبب.

١٧ ـ غفلة الكفار عن الموت وما بعده، وذلك لتكذيبهم بالبعث، وركونهم إلى الدنيا، وإيثارهم إياها.

١٨ ـ تحسر الكفار يوم القيامة على تفريطهم.

١٩ ـ أن طبيعة نار جهنم وطبيعة المعذَّبين فيها تختلف عن حال الدنيا، وذلك أنهم ـ مع فظاعتها وأليم عذابها ـ لا يموتون فيها بل يكلم بعضهم بعضًا، ويكلمون الخزنة، ويدعون ربهم، ويجيبون أهل الجنة وينادونهم ويسألونهم، كما دلَّ على ذلك هذه الآيات وغيرها، فسبحان من هو على كل شيء قدير.

٢٠ ـ أن الأعمال بالخواتيم، من تاب قبل الغرغرة تاب الله عليه، ومن مات على الكفر صار من أصحاب النار المخلدين.

٢١ ـ أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين لو شفع لهم شافع، ولا شافع لهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

٢٢ ـ تعليل عدم نفع الشفاعة بكفرهم ومعاصيهم، والمعنى: لذلك لا تنفعهم، أي الشفاعة.

٢٣ ـ إثبات الشفاعة لأهل الذنوب من الموحدين، ففيها الرد على من أنكرها من الخوارج والمعتزلة.

٢٤ ـ أن هنالك شفعاء، أي في يوم القيامة يشفعون غير النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر شيئًا من أحوال المجرمين في النار عاد بالإنكار على المجرمين في الدنيا وتوبيخهم على إعراضهم عن التذكرة والاتعاظ، فقال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر].

التفسير:

قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ الفاء للتفريع على ما قبلها من بيان حال المجرمين في الآخرة، وندمهم على ما كان منهم في الحياة الدنيا، أو هي الفصيحة، أي إذا كان هذا حالهم في الآخرة ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، و(ما) اسم استفهام مبتدأ، والجار والمجرور خبره، وقوله: ﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من الجار والمجرور، و﴿ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ مصدر بمعنى التذكير، وهو كلُّ ما يُذكَّر به في الدنيا من القرآن، وتذكير الرسول ﷺ ودعوته.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي الكفار في حال إعراضهم عن التذكرة ﴿حُمُرٌ﴾ جمع حمار، والمراد حمار الوحش، ويضرب بها المثل في النفار والشرود ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي نافرة نفورًا شديدًا، والسين والتاء لتقوية الوصف، مثل استعجب واستجاب، ثم ذكر السبب الذي دعاها إلى النفار، فقال سبحانه: ﴿فَرَّتْ﴾ أي الحمر ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي الأسد، وصح هذا التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، وهو قول جمهور

---

(١) رواه ابن جرير (٢٣/ ٤٦٠).

أهل اللغة وهو المشهور، وقال بعض المفسرين: القسورة: جماعة الرماة، اسم جمع لا واحد له من لفظه، وصح هذا المعنى عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

شبه الكفار في إعراضهم عن القرآن وكراهتهم للرسول ﷺ، وفرارهم من دعوته بالحمر المستنفرة المذعورة من سبع أو قناص طلع عليها، ووجه الشبه شدة الكراهة، والتباعد للشعور بالخطر، وفي تشبيههم بالحمر ذم لهم وتحقير.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أساليب القرآن عرض مشاهد القيامة، وأحوالها، وإتباعها بذكر أحوال المكلفين في الدنيا؛ تارة بطريق الالتفات وتارة بذكر صفاتهم وأعمالهم.

٢ ـ توبيخ الكفار على إعراضهم عن تذكرة الرسول ﷺ وإنذاره.

٣ ـ أنه لا عذر لهم في هذا الإعراض، فإن الحق واضح ودلائل صدق الرسول ظاهرة.

٤ ـ شدة نفارهم عن التذكير وعن البشير النذير ﷺ.

٥ ـ تقبيح الله لحالهم وتسفيه عقولهم، حيث شُبِّهوا بالحمير.

٦ ـ شدة فرارهم من الرسول ﷺ كراهة لدعوته، فيشبهون بذلك حمر الوحش حين تفر من الأسد أو الصياد.

٧ ـ تحقير الله للكفار؛ إذ شبههم بالحمر.

---

(١) رواه ابن جرير (٢٣/٤٥٦).

٨ ـ فساد عقول المكذبين بقلب الأحكام، حيث جعلوا أنصح الناصحين أعدى عدو لهم.

* * *

۞ ولما أنكر عليهم إعراضهم عن التذكرة أعقبه بذكر ما هو أسوأ وأشد غرابة من إعراضهم، وهو طمعهم في أن يُنزل على كل واحد منهم صحف من السماء، كما أنزل على النبي ﷺ، فقال سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٥٣﴾.

۞ التفسير:

قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ (بل) حرف إضراب وانتقال، وهو انتقال من ذكر النفار إلى صورة التمني والاغترار، مما هو سبب لذلك الإعراض المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر].

وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي مبسوطة مفتوحة غير مطوية تُقرأ، يقال: نشَرَ الثوب، ونحوه، ونشَّره إذا بسطه، ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر، أي فلينزجروا عن هذه الأماني الباطلة ﴿بَل﴾ انتقال إلى بيان سبب آخر وهو أنهم ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي لا يؤمنون بيوم القيامة، وما يكون فيه من البعث والجزاء والحساب.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إعجاب الكفار بأنفسهم.

٢ ـ تعنتُ الكفار وتحكمهم على الله في رسالاته.

٣ ـ أن من أسباب إعراض الكفار عن التذكرة طمعهم أن يؤتى كل واحد منهم ما أوتي النبي ﷺ من الصحف المطهرة.

٤ ـ سفاهة عقولهم وجهلهم.

٥ ـ زجر الكفار عن هذا الطمع والتحكم.

٦ ـ إثبات الإرادة للعبد والرد على الجبرية.

٧ ـ أن الكفار لا يخافون عذاب الله يوم القيامة؛ لأنهم لا يؤمنون به.

٨ ـ أن من أسباب إعراضهم أنهم لا يؤمنون بالدار الآخرة.

٩ ـ الترقي في البيان من الأدنى إلى الأعلى.

١٠ ـ أن فساد الاعتقاد سبب لفساد العمل.

١١ ـ إثبات البعث.

١٢ ـ أن الإعذار وقيام الحجة حاصل بإرسال الرسول ﷺ وبما معه من البينات؛ لا يتوقف على أن يوحى إلى كل واحد وينزل عليه الكتاب.

١٣ ـ علم الله بأحوال القلوب وأعمالها؛ لأن الإرادة والخوف من أعمال القلوب.

١٤ ـ أن الإيمان بالآخرة يوجب الخوف، قال تعالى ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

❁ ❁ ❁

۞ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾.

التفسير:

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي حقًا، وفيه تأكيد لعظمة ما في القرآن من التذكير ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن، وهو معلوم من المقام، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [التكوير] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر]، وقوله: ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ أي مذكر وواعظ، والتنكير للتعظيم، وهذا من التعبير باسم المصدر في موضع اسم الفاعل لكمال وصفه بالتذكير، كما تقدمت الإشارة إليه في سورة الحاقة، وقد سمّى الله القرآن ذكرًا وتذكرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، وقال سبحانه: ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾ [طه]، قوله: ﴿فَمَن﴾ الفاء للتفريع على كون القرآن تذكرة، و(من) اسم شرط، وفعل الشرط ﴿شَآءَ﴾ أي من المكلفين، وجواب الشرط ﴿ذَكَرَهُۥ﴾، والضمير يعود إلى الله ﷻ، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: (فمن شاء أن يذكر الله ذكره)، والمعنى: وضح السبيل لطالب الحق، وقامت الحجة على المعرضين، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المزمل].

قوله: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾ بضمير الجمع مراعاةً لمعنى (مَنْ)، أي وما يذكرون الله مؤمنين به ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن يذكروه، فمشيئة

العباد متوقفة على مشيئة الله، فهي كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير].

قوله: ﴿هُوَ﴾ أي الله وحده ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي حقيق بأن يُتقى عقابه ويُطاع أمره ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي حقيق بأن يغفر جميع ذنوب المذنبين إذا تابوا واستغفروا، فيغفر ما دون الشرك لمن شاء.

وإعادة (أهل) لاختلاف المضاف إليه، واستقلال كلٍّ من الوصفين بالثناء به على الله، وتقديم التقوى على المغفرة لوجهين:

الأول: أن التقوى سبب للمغفرة، فيكون ذلك من تقديم السبب على المسبب.

الثاني: أن التقوى حق الله، فتقديم التقوى على المغفرة من تقديم حق الله على حق العباد، والله أعلم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تأكيد أن القرآن تذكرة.

٢ ـ أنه تذكرة عظيمة.

٣ ـ توبيخ المعرضين عن القرآن.

٤ ـ تيسير الطريق إلى ذكر الله.

٥ ـ تهديد المعرضين عن ذكر الله بقيام الحجة عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٦ ـ أن الغاية من التذكرة ذكر الله بالإيمان به وطاعته.

٧ ـ إثبات مشيئة العبد، والردُّ على الجبرية.

٨ ـ توقف ذكر العبد ربَّه على مشيئة الله، ففيها:

ـ الرد على القدرية.

ـ إثبات المشيئة لله، وأنها تتعلق بأفعال العباد.

ـ تسلية النبي ﷺ ببيان أن الأمر مردود إلى مشيئة الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

ـ أن الله تعالى هو المستحق وحده للتقوى، وهي فعل المأمورات وترك المنهيات طاعة لله ورسوله، ورجاءً للثواب وخوفًا من العقاب.

٩ ـ أن من صفات الله التي يُمدح بها مغفرة الذنوب.

١٠ ـ بشارة المؤمنين بمغفرة الله إن كان منهم تقصير في حق الله عليهم، وهو أن يتقوه ﷻ، وبهذا يظهر التناسب بين ذكر التقوى والمغفرة.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ القِيَامَةِ

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ المعنى: أُقسم و﴿لَآ﴾ مزيدة للتوكيد، وهو قول الجمهور، وهذا معروف في كلام العرب، فإنهم ربما لفظوا بـ (لا) من غير قصد معناها الأصلي، بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده، ومنه قول امرئ القيس:

فلا وأبيكِ ابنةَ العامري (م) لا يدَّعي القومُ أني أفرّْ (١)

أي: وأبيك، ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩].

وتكثر زيادة (لا) في القرآن قبل القسم بلفظه، نحو ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء: ٦٥]، أو مادته نحو ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾، وبعد (أن) المصدرية كما تقدم،

---

(١) ديوان امرئ القيس (١٥٤).

فقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، وهو يوم البعث.

وسمي يوم القيامة بذلك؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، وأصل القيامة في اللغة مصدر قام، وزيدت التاء للمبالغة؛ لأنه قيام لأمر عظيم.

قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي أقسم، وهذا قسم آخر ﴿بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي التي تلوم صاحبها، وهذا إقسام بكل نفس؛ لأنه ما من أحد إلا وتلومه نفسه يوم القيامة، إما على فعل الذنوب أو ترك الطاعات وهو لوم شديد، كما تفيده صيغة المبالغة.

فالمقسم به هو يوم القيامة، والنفس اللوامة، وجواب القسم، هو وقوع البعث، وتحقق الجزاء لكل نفس، والمعنى: لتبعثُن ولتحاسبن، فصار المقسم به هو المقسم عليه، وهذا معروف في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [قٓ]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾ [النازعات].

ولما أقسم الله تعالى على وقوع البعث أعقب ذلك بالإنكار على المكذبين به، فقال ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي أيظن الإنسان، والاستفهام للإنكار التوبيخي، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هو الكافر المنكر للبعث، وقد كثر إطلاق الإنسان في السور المكية على الكافر، قوله: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي أيظن المكذب بالبعث أننا عاجزون عن جمع عظامه وإحيائه وبعثه؟ وخص العظام بالذكر؛ لأنها عماد البدن.

قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي نجمعها، و﴿بَلَىٰ﴾ تقع بعد المنفي فتثبته، فهي إبطال للنفي الذي ظنه الكافر، وهو ما دل عليه قوله: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾.

قوله: ﴿قَادِرِينَ﴾ حال من فاعل الفعل المقدر المدلول عليه بحرف الجواب، أي بلى نجمعها قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ البَنان: اسم، جمع بنانة، وهي الأصابع، أو أطراف الأصابع، مثل: غَمام، وغمامة، وتسوية البنان يراد به إتمام الخلق، والمعنى: سنجمع عظامه حتى صغار عظامه نجمعها، ونسويها، ونعيده بشرًا سويًا كاملًا.

وجعل كثير من المفسرين معنى الآية: بلى قادرين على أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحدًا مستويًا كخف البعير، أي في الدنيا.

والأول أرجح، وهو الملائم للسياق؛ لأن الكلام في إعادة الخلق والبعث، ولم يُسق الكلام لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت، وهو ما أنكره الكفار، ويؤيده قوله تعالى - في السورة نفسها -: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي سوّى صورته في أحسن تقويم، وكذلك قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي نتم خلقتها حسنة مستقيمة، ورجّح هذا جماعة منهم أبو محمد ابن قتيبة[١]، وأبو إسحاق الزجاج[٢] والقرطبي[٣].

الفوائد والأحكام:

١ - أن من كلام الله القسم.

٢ - الرد على الأشاعرة القائلين بأن كلام الله معنى واحد، أي لا تعدد فيه بل التعدد فيما هو عبارة عنه.

---

(١) تأويل مشكل القرآن (٣٤٦). (٢) معاني القرآن (٥/ ٢٥١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢١/ ٤٠٩).

٣ ـ أنه سبحانه يقسم بما شاء.

٤ ـ عظم شأن هذا القسم، لتعلقه باليوم العظيم يوم القيامة.

٥ ـ تأكيد أمر البعث وقيامِ الناس من قبورهم بالقسم بيوم القيامة.

٦ ـ وجوب الإيمان بيوم القيامة، وهو اليوم الآخر.

٧ ـ تهديد المكذبين بالبعث بسوء المصير في ذلك اليوم العسير عليهم، والمقسم عليه وقوع المقسم به وتحققه، فالمعنى: أقسم بيوم القيامة أنه واقع وآت، وهو يتضمن وقوع الجزاء، بل الجزاء هو الغاية من يوم القيامة.

٨ ـ إقسام الله بالنفس اللوامة، وهي كل نفوس المكلفين، فإن كل نفس تلوم صاحبها، فالمحسن تلومه نفسه على عدم الازدياد، والمسيء تلومه على الإساءة.

٩ ـ التناسب بين القسمين لفظًا ومعنى، فأما اللفظ فظاهر، وأما المعنى فمن جهة المقسم به والمقسم عليه، فالمقسم به في الأول يوم القيامة، وهو يوم الجزاء، وفي الثاني من يقع عليه الجزاء، والمقسم عليه وقوع الجزاء.

١٠ ـ أن كل نفس تلوم صاحبها يوم القيامة.

١١ ـ أن المفرط لا ينفعه الندم يوم القيامة.

١٢ ـ الحث على العمل الصالح في وقت المُكنة في هذه الدار.

١٣ ـ الإنكار على منكر البعث، وتوبيخُه على هذا الحسبان.

١٤ ـ أن إنكار البعث سوء ظن بالله بنسبته إلى العجز.

١٥ ـ قدرة الله على إعادة الإنسان بعدما تفرق واستحال، وضل في الأرض.

١٦ ـ قدرته تعالى على جمع أصغر عظام الإنسان، وهي الأنامل وتسوية خلقها، ففيه التنبيه على قدرته سبحانه على جمع ما سواها، وإعادة خلقه من باب أولى.

١٧ ـ إثبات كمال علم الله بالجزئيات، والرد على من أنكر ذلك؛ كالفلاسفة.

١٨ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، وذلك في قوله: ﴿نَّجْمَعَ﴾، و﴿نُّسَوِّيَ﴾.

* * *

قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

التفسير:

قوله: ﴿بَلْ﴾ إضراب انتقالي من بيان حال المكذب بالبعث والرد عليه إلى ذكر حالٍ أسوأ مما سبق ذكره، وذلك في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر، وأظهر في مقام الإضمار لتوبيخه، قوله ﴿لِيَفْجُرَ﴾ أي يفعل أفعال الفجور من التكذيب وارتكاب المحرمات، ومفعول ﴿يُرِيدُ﴾ هو المصدر المنسبك من (أن) المقدرة والفعل، واللام صلة للتوكيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف: ٨]، وقد جاء نظير

ذلك دون اللام في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

قوله: ﴿أَمَامَهُۥ﴾ أي فيما بين يديه من الأوقات، وأصل الأمام اسم المكان المقابل للوجه، واستعمل هنا في الزمان المستقبل، والمعنى: ليدوم على فجوره ويمضي قدمًا فيه، قال مجاهد: «﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ يمضي أمامه راكبًا رأسه»(١).

قوله: ﴿يَسْـَٔلُ﴾ أي الإنسان الكافر ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي متى يكون، وهذا سؤال سخرية وتكذيب، والجملة مستأنفة لبيان إمعانه في التكذيب حتى جعل يَسأل ساخرًا عن موعد يوم القيامة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الكافر لا يقف في أمر البعث عند حد الشك والحسبان، بل يقصد إلى التكذيب بالبعث والتمادي في الفجور والطغيان.

٢ ـ مبالغة الكافر في التكذيب بالبعث، وذلك بالسخرية بالمؤمنين به، كما ينبئ عنه سؤاله عن موعد يوم القيامة مع عدم إيمانه به، فهو سؤال سخرية لا طلب علم.

٣ ـ علم الله بالإرادات التي في القلوب.

٤ ـ الترقي من الأدنى إلى الأعلى في ذكر أحوال منكر البعث من الحسبان إلى التكذيب إلى السخرية.

۞ ۞ ۞

---

(١) رواه ابن جرير (٢٣/ ٤٧٥)، وإسناده صحيح.

۞ **بعد أن أخبر الله عن تحقق يوم القيامة، وأكّده وردّ على المكذبين، أتبع ذلك بذكر بعض مشاهد يوم القيامة وأهوالها، فقال سبحانه:** ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

التفسير:

قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم من تقرير تحقق يوم القيامة، ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي تحيّر وشَخَص فزعًا، والمراد به بصر الكافر، لما يرى من الأهوال التي كان يكذب بها في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم].

قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه وأظلم، يقال: خسف القمر وخسفه الله، فالفعل لازم ومتعد.

قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي قُرن بينهما، وهذا على سبيل الخرق للعادة حيث لم يرهما الناس مجتمعين في وقت واحد مثل ذلك، كما قال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يسٓ: ٤٠] أي في الدنيا، وذُكِّر الفعل (جُمع) لكونه مسندًا إلى مذكر ومؤنث مجازي.

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هذا جواب (إذا) في قوله ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هو المكذب بالبعث الساخر به ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم وقوع هذه

الشدائد والأهوال ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي أين الفرار المنجي من هذه الأهوال، وهذا السؤال للتمني؛ لأنه لا سبيل حينئذ إلى حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، ولهذا كان الجواب: ﴿كَلَّا﴾ وهذا ردع له وزجر عن تمني الفرار ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي لا ملجأ تلتجيء إليه ولا مهرب، والوَزَر في الأصل الجبل ثم أطلق على كل ما يُتحصن به ويُلتجأ إليه. ويحتمل أن يكون هذا التيئيس في قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ خبرًا عمّا سيكون يوم القيامة من عدم الملجأ، ويحتمل أن يكون ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ مقولًا لقول محذوف تقديره يقال له: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي لا إلى غيره، والتقديم للقصر، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم وقوع هذه الكوارث والأهوال ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مصدر ميمي بمعنى المرجع والمصير، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق]، وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم].

قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ...﴾ الجملة مستأنفة، والإنسان هو المكذب بالبعث، وفيه تهديد له ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم وقوع هذه الشدائد، ويحتمل أن يراد بالإنسان الجنس، فهو عام فيشمل المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء].

قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي بما فعل وترك من خير وشر.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أبصار الكفار الظالمين شاخصة حائرة يوم القيامة لشدة الهول.

٢ ـ أن القمر يكون خاسفًا، أي مظلمًا لا نور فيه.

٣ ـ جمع الشمس والقمر بعد تكوير الشمس وخسوف القمر.

٤ ـ قدرة الرب ﷻ على تغيير نظام هذا العالم.

٥ ـ تغيّر نظام الكون عند قيام القيامة.

٦ ـ الرد على الدهرية القائلين بقدم الأفلاك ودوامها وأن دورة الليل والنهار والشمس والقمر دائمة.

٧ ـ أن الإنسان الكافر في ذلك اليوم يطلب الفرار للخلاص.

٨ ـ تيئيس الكافر مما طلبه وتمناه، لقوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾.

٩ ـ أن تمني الإنسان الفرار يكون في أول ما يُبعث ويساق إلى المحشر.

١٠ ـ أنه لا ملجأ من أهوال ذلك اليوم.

١١ ـ أن الخلق صائرون إلى الله فيحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم فيجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

١٢ ـ إثبات الربوبية الخاصة لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

١٣ ـ أن الإنسان ينبأ ـ أي يخبر ـ بما عمل من خير أو شر وذلك بالكتاب الذي يعطاه، آخذًا له بيمينه أو بشماله، وبما تُحدِّث به الأرض، وما تشهد به الملائكة الكاتبون.

۞ ۞ ۞

۞ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

التفسير:

قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ﴿بَلِ﴾ للإضراب الانتقالي من الإخبار عن كون الإنسان منبّأً بما عمل إلى كونه عالمًا بنفسه شاهدًا عليها، وذلك باعترافه وشهادة جوارحه عليه، قال تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهذا من الترقي من الشيء إلى ما هو أبلغ منه.

قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر والعاصي، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مبتدأ، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبره، والجار والمجرور ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ متعلق بالخبر، والبصيرة الحجة والشاهد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي على حجة بينة.

والمعنى: أن الإنسان حجة بينة على نفسه يوم القيامة، وشاهد عليها بما صدر منها، والهاء في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ لتأكيد الوصف، مثل: نسّابة وعلامة، أي إنه في غاية المعرفة لأحوال نفسه، كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء].

قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ الواو حالية من الفاعل المستكن في ﴿بَصِيرَةٌ﴾، أي هو بصيرة على نفسه حتى ولو اعتذر وأنكر.

و(المعاذير) جمع معذرة، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ﴾ [غافر: ٥٢] أي اعتذارهم، وهو جمع على غير قياس، مثل ملاقيح ومذاكير جمع لِقْحَة وذَكَر.

و(لو) حرف شرط، وفعل الشرط ﴿أَلْقَىٰ﴾، وجواب الشرط

محذوف دل عليه ما قبله، أي ولو ألقى معاذيره فلا ينفعه اعتذاره.

وقد جاءت الأدلة أنهم يعتذرون يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء] وقولهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون]، وهذا اعتراف واعتذار.

فأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات] فمحمول على أنه في وقت دون وقت، كما أجاب بذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الإنسان يُقرر بذنوبه يوم القيامة بما يُعطى من الكتاب فيُقر بها، ويشهد على نفسه ويدني الله عبده المؤمن فيقرره بذنوبه فيسترها عليه ويغفرها له، ويجحد الكافر فيُختم على فيه وتنطق جوارحه بما عملت.

٢ ـ أن اعتذار الفاجر والكافر لا ينفعه وقد أنطق الله الجوارح والجلود.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة (٨٧) تحقيق د. عبد الرحمٰن عميرة.

٣ ـ أن إقرار الإنسان على نفسه حجة عليه، وأنه لا يُقبل رجوعه.

* * *

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

التفسير:

أصح ما قيل في صلة هذه الآيات الأربع بما قبلها وما بعدها أنها نزلت معالجة للواقع، فقد كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفتيه حرصًا على حفظ ما يوحى إليه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1] وقد وقع منه ذلك في أثناء نزول هذه السورة، فأنزل الله قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ...﴾ الآيات، وعلى هذا فتكون هذه الآيات معترضة بين الآيات التي في شأن القيامة.

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والضمير المجرور يعود على القرآن المفهوم من المقام ومن سبب النزول، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي بقراءته وحفظه، ثم علل النهي بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي أن تقرأه بلسانك، والقرآن مصدر قرأ بمعنى القراءة، مثل: الغفران والفرقان، و﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ مصدر مضاف إلى مفعوله.

قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي القرآن، والقارئ الملك جبريل عليه السلام،

---

(١) رواه البخاري (٥، ٤٦٤٣، ٤٦٤٥، ٤٧٥٧، ٧٠٨٦)، ومسلم (٤٤٨).

وأسندت القراءة إلى الله؛ لأنها كانت بأمره، وقوله: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي استمع لقراءته وأنصت له، ثم اقرأه كما أَقْرَأَكَ إياه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي أن تقرأه بلسانك، قال ابن عباس: «فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه»(١).

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن النبي ﷺ عبد لله يأمره وينهاه.

٢ ـ حرص النبي ﷺ على حفظ ما يُلقى إليه من القرآن ولذلك كان يحرك لسانه وشفتيه عند نزول القرآن استعجالًا لحفظه، ويشهد لهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

٣ ـ أنه ﷺ لا حاجة به إلى ذلك التحريك، فقد أغناه الله بأن يجمعه في صدره ثم يقرأه النبي ﷺ كما أنزل.

٤ ـ البشارة للنبي ﷺ بإعانة الله له على حفظ القرآن وتيسير قراءته عليه.

٥ ـ أن الله يوجب على نفسه ما شاء، كما أوجب على نفسه جمع القرآن وبيانه.

٦ ـ الإرشاد إلى الأدب في طلب العلم، وترك الاستعجال بالسؤال.

---

(١) البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨).

٧ ـ فيها ـ كما قال بعضهم ـ تأخير البيان عن وقت الخطاب لعطف ذكر البيان بـ(ثم)، وهذا على معنى أن المراد بالبيان بيان المجمل، والصحيح أن المراد بالبيان في الآية بيان القرآن، أي إظهاره بلسان الرسول ﷺ بقراءته له، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: «ثم إن علينا أن تقرأه»[1]، وفي رواية: «أن نبيِّنه بلسانك»[2]، وأيضًا فإن العطف بـ ثم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ عطف جملة، وعطف الجمل بـ ثم لا يدل على الترتيب والتراخي، في الزمان، بل هو ترتيب في الذكر.

❁ ❁ ❁

ثم عاد الكلام مع المكذبين المنكرين للبعث، فقال سبحانه:
﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

التفسير:

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للمكذبين ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي لبيان سبب آخر من أسباب تكذيبهم ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي الدنيا، والضمير في ﴿تُحِبُّونَ﴾ عائد إلى الكفار الدال عليهم لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ واللام في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجنس، وإذا عُرِّف المفرد بلام الجنس فهو بمعنى الجمع، والمعنى: أن الذي دعاكم إلى الكفر هو محبتكم للدنيا والإقبال على متاعها وزينتها، ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي تتركون ﴿ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي العمل لها فأعرضتم عنها.

---

(١) رواه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨).
(٢) رواه البخاري (٤٦٤٤)، ومسلم (٤٤٨).

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ زجر المكذبين بالآخرة وتوبيخهم على هذا التكذيب.

٢ ـ أن من الباعث لهم على التكذيب حبَّ الدنيا العاجلة لأنها حاضرة، والآخرة غيب.

٣ ـ إعراضهم عن الآخرة، فلا يخافونها ولا يعملون لها فهم مؤثرون للدنيا عليها.

٤ ـ أن مناط الذم هو إيثار الدنيا على الآخرة، لا مجرد حب الدنيا من غير ترك للآخرة.

٥ ـ علمه تعالى بأعمال القلوب لقوله: ﴿تُحِبُّونَ﴾.

٦ ـ إثبات فعل العبد، والرد على الجبرية في ذلك.

۞ ۞ ۞

۞ ولما ذكر الله الآخرة التي تركها المكذبون أخبر عمّا يكون فيها من انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء، فقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

۞ التفسير:

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تقوم القيامة ﴿نَاضِرَةٌ﴾ أي حسنة مشرقة، يقال: نَضُر الوجه ـ بالضاد ـ نضارة، أي حَسُن، ونضّر الله وجهه، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ من النظر ـ بالظاء ـ أي تنظر إليه ﷻ بأبصارها، وتقديم المعمول للقصر، أي تنظر إليه سبحانه لا إلى غيره، ويحتمل أنه للاهتمام، أي بالمرئي، ولرعاية الفاصلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وجوه مبتدأ وهو نكرة، وسوَّغ الابتداء به التنويع والتقسيم و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبره، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ خبر ثانٍ، ويجوز أن يكون ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ نعتًا لوجوه، والخبر قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، والمعنى: أن الوجوه الحسنة يوم القيامة ناظرة إلى ربها، والأول أجود.

قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي كالحة متغيّرة اللون ﴿تَظُنُّ﴾ أي توقن، فالظن هنا بمعنى العلم، ويشهد له قوله سبحانه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] أي أيقنوا وعلموا، ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي داهية عظيمة، يقال: فقرته الفاقرة، أي قصمت الداهية فَقار ظهره.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ انقسام الخلق يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء.

٢ ـ أن وجوه السعداء تكون ناضرة، أي بهية حسنة.

٣ ـ أن المؤمنين في سرور واستبشار، وأن الكفار في حزن وخوف، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

٤ ـ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وينظرون إليه بأبصارهم، وقد دلَّ على ذلك الكتاب والسُّنَّة والإجماع[١].

---

(١) ممن نقل الإجماع في ذلك أبو الحسن الأشعري في «رسالة إلى أهل الثغر» (٢٣٧)، وابن كثير عند تفسير الآية.

٥ ـ الرد على المعتزلة والجهمية في نفي الرؤية، واعلم أن الجهمية تأولوا الآية، فقالوا: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنتظر ثوابه، ويرد عليهم بوجهين:

ـ الأول: أن الانتظار لا يسند إلى الوجه.

ـ الثاني: أن النظر بمعنى الانتظار لا يُعدى بـ(إلى)، ومن قال بذلك فقد أخطأ[1]، بل إنه يتعدى بنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وحين يتعدى بـ(إلى) فهو نص في نظر العين، كما في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية].

٦ ـ أن وجوه الأشقياء تكون باسرة، أي متغيرة كالحة.

٧ ـ يأس الأشقياء المكذبين من الرحمة، وانتظارهم حلولَ داهية بهم.

٨ ـ الترغيب في أسباب السعادة، والترهيب من أسباب الشقاوة.

* * *

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر، أي ارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتنبهوا للموت الذي تنقطع به العاجلة وتنتقلون به إلى

(١) قاله الأزهري في تهذيب اللغة (١٤/ ٣٧١).

الآجلة، وتحل عنده الأهوال، وذلك ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي روح الإنسان، وهي وإن لم يتقدم لها ذكر فإنها معلومة من السياق، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة]، ومثل هذا الإضمار معهود في كلامهم، قال حاتم:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدرُ[(١)]

فقوله: إذا حشرجت، أي الروح.

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ جمع تَرْقُوَة، وهي عظام أعالي الصدر المكتنفةُ للعُنق وهي موضع الحشرجة.

وقوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ كناية عن مشارفة الموت وقرب خروج الروح وبلوغها الحلقوم، وهذا آخر حالات الاحتضار، وهي حال الغرغرة الواردة في قوله ﷺ: **(إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)**[(٢)] ﴿وَقِيلَ﴾ أي وقال أقرباء المحتضر أو غيرهم ممن حضر عنده ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾ هل من راقٍ يرقيه مما نزل به، لجأوا إلى الراقي بعد عجز الأطباء.

والرقية في الأصل كلام يُستشفى به من كل عارض، وهي معروفة عند العرب، كما يدل عليه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ وفيه أن الصحابة رقوا سيدًا من أحياء العرب على جعل فأقرهم النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) ديوان حاتم (٤٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٠٢).

(٣) رواه البخاري (٢١٥٦، ٤٧٢١، ٥٤٠٤، ٥٤١٧)، ومسلم (٢٢٠١).

يقال: رقى المريض يرقيه، من باب ضرَب، وأما الرُّقيُّ بمعنى الصعود فيقال فيه: رَقِي يَرقَى كرضي يرضى.

قوله سبحانه: ﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن، وهو المكذب فهو عائد إلى الإنسان في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ﴾ أي الشأن العظيم الذي هو فيه ﴿ٱلْفِرَاقُ﴾ أي فراق الدنيا وكل محبوب إليه من الأهل والولد والمال والجاه، وذلك حين عاين ملائكة الموت، قال الشاعر:

فـراق لـيـس يـشـبـهـه فـراق ... قد انقطع الرجاء عن التلاق[1]

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي اتصلت شدة الدنيا في آخر يوم منها بشدة الآخرة في أول يوم منها، وكثيرًا ما يُكنى بالساق عن الشدة، يقال: كشفت الحرب عن ساقها، وأصل الالتفاف الاجتماع، ومنه قوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] أي جميعًا، والمعنى: اجتمعت الشدائد على المحتضر، من سكرات الموت وحسرات الفراق، وهول المطلع والقدوم على رب الأرباب، ولذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي لا إلى غيره، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح للخطاب، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يومئذْ بلغت الروح التراقي وقيل من راق... إلخ الجمل الأربع.

﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ مصدر ميمي بمعنى السوق، والمراد الذهاب بالروح إلى بارئها ليحكم فيها ويجزيها، وفيه تهديد للكافر بما سيلاقي من ربه، فلذلك يكره لقاءه.

---

(١) تفسير القرطبي (٢١/ ٤٣٥)، وهو عنده غير منسوب.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ زجر المكذبين وردعهم بالقيامة، تأكيدًا لما سبق في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

٢ ـ التذكير بالموت، وهو القيامة الصغرى وهو بوابة الآخرة.

٣ ـ التذكير بما يقاسيه المحتضر من شدائد، وأشد ذلك إذا بلغت الروح التراقي.

٤ ـ سعي أولياء المحتضر إلى أهم سبب يرجع إليه روحه، وهو الراقي، وقد انقطعت الأسباب العادية.

٥ ـ أن المحتضر إذا بلغت روحه التراقي والحلقوم أيقن بفراق هذه الحياة الدنيا.

٦ ـ الانتقال من الخبر عن الجنس (أي: جنس المحتضر عمومًا) إلى النوع، وهو الكافر.

٧ ـ اتصال شدائد الدنيا بشدائد الآخرة، لقوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ وهذا في حق الكافر والفاجر فيكره لقاء الله، وفي حديث عبادة بن الصامت: **(وإن الكافر إذا حُضر بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه)**[1]. وأما المؤمن فالموت له راحة.

٨ ـ إثبات الربوبية العامة.

٩ ـ أن الروح تساق إلى ربها، فإن إليه المرجع والمآب،

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٢، ٦١٤٣)، ومسلم (٢٦٨٣، ٢٦٨٤).

لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة] وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام].

١٠ ـ أن الروح جوهر قائم بنفسه يتصل وينفصل، ويُقبض ويُرسَل، ففيه الرد على من زعم أنها عَرَض.

* * *

۞ ولما ذكر ما حل بالكافر المكذب بالبعث من الشدائد المتصلة عند الاحتضار، وما سيلقاه إذا صار إلى ربه أعقب بذكر السبب المقتضي لذلك فقال سبحانه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الفاء للسببية، أي أن ما بعدها من ذكر التكذيب والتولي والتكبر والغرور سبب لما قبلها مما حل به وصار إليه من الشدائد.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي لم يؤمن، وهو الكافر المذكور في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصل لله قط، و(لا) بمعنى (ما) غير أن (ما) تدخل على الفعل من دون تكرير، أما (لا) فلا بد من تكريرها مع الفعل المعطوف، ومنه قول حَمَل بن مالك الهذلي:

«يا رسول الله! كيف أَغْرَمُ من لا شَرِب ولا أَكَلْ، ولا نطق ولا استهل؟»[(١)].

قوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ هذا استدراك لبيان أن هذا الشقي لم يكتف بعدم التصديق، بل كذب، أي إنه لم يؤمن، بل كذب الرسول وكذب بالبعث ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض وترك العمل والطاعة مطلقًا ﴿ثُمَّ ذَهَبَ﴾ أي مضى ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي يتبختر مختالًا فخورًا بعمله السيء، غير مبال بشيء، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين].

و﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أصلها يتمطط، أي يتمدد، قلبت الطاء الثانية ألفًا، ونظير ذلك إذا جيء بظن وقَضّ على وزن تكلّم، فيقال: تظنّى وتقضّى (تقضى البازي إذا هوى ليقع) وهذا مطّرد في الفعل الثلاثي المضاعف إذا جيء به من التفعُّل، فتتوالى الأمثال فتُقلب الأخيرة ألفًا، قال ابن مالك:

وثالثَ الأمثالِ أبدلنْ بِيا ... نحو تَظَنَّى خالدٌ تَظَنِّيا[(٢)]

وقيل: إن (تمطى) من المَطَا، وهو الظهر، أي يمد مطاه ويلويه تبخترًا في مشيته، ومن لازم التبختر ذلك، فهو يقرب من معنى الأول ويفارقه في مادته، إذ مادة المطا (م ط و) ومادة الثاني (م ط ط).

قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ تهديد له ووعيد، أي ويل لك مرة بعد

---

(١) رواه البخاري (٥٤٢٦، ٥٤٢٧)، ومسلم (١٦٨١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الكافية الشافية مع شرحها له (٤/ ٢١٥٥)، ط. أم القرى.

أخرى، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن المواجهة أبلغ في الزجر والتوبيخ والوعيد، و﴿أَوْلَىٰ﴾ مبتدأ و﴿لَكَ﴾ خبره، وسوّغ الابتداء به أنه في معنى الدعاء، أي العذاب والهلاك لك، فهو بمعنى (ويل).

وقد أطال المفسرون والمعربون بذكر الأقوال في أصل ﴿أَوْلَىٰ﴾ اللغوي وإعرابها، ولكنهم مطبقون على أنها تهديد ووعيد، وهو المأثور عن السلف.

قوله: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ تأكيد، والفاء للعطف، ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تأكيد للوعيد بعد تأكيد، أي دعاء عليه بعد دعاء لأنه جدير به، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر]، قال قتادة: «﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وعيد على وعيد كما تسمعون»[1].

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر السبب بعد المسبَّب.

٢ ـ الدلالة على سوء المنقلب بذكر سوء العمل.

٣ ـ أن عدم الإيمان بالقيامة وترك الصلوات من أعظم أسباب الشقاء.

٤ ـ أن هذا الكافر لم يقف أمره عند عدم التصديق وترك الصلاة، بل كذب وأعرض عن طاعة الله.

(١) رواه ابن جرير (٢٣/ ٥٢٥)، وإسناده صحيح.

٥ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

٦ ـ عظم شأن الصلاة حيث قُرن تركها بترك التصديق، وقُرن الإعراضُ عنها بالتكذيب.

٧ ـ أن الدين اعتقاد وعمل.

٨ ـ أن الكفر يعظم بالتكبر والعجب بالنفس.

٩ ـ ذم مشية التبختر لأن الله ذم الكافر بذلك في قوله: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾.

١٠ ـ أن الفاجر الكفور يتبجَّح بكفره عند أهله وهذا غاية في الغرور.

١١ ـ تسبب الكافر في ضلال أهله حين يقص عليهم خبر تكذيبه وتوليه.

١٢ ـ التهديد والوعيد للكافر العنيد وتأكيد هذا الوعيد، لقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

* * *

ثم عاد السياق إلى الإنكار على الكافر بالبعث وتوبيخه، كما بدئت به السورة في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾، **فقال** ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

التفسير:

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي أيظن ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي هَمَلًا لا

يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب ولا يُجزى على عمله، وأصل الإسداء الإهمال، يقال: أسدى الشيءَ إذا أهمله، وإبل سُدَى، أي مهملة بلا راعٍ، والاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ كما هو في أول السورة، فوبّخه أولًا على إنكار البعث، ووبّخه ثانيًا على ما يستلزمه هذا الإنكار من نفي الحكمة في خلقه.

قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ أي الإنسان، والاستفهام للتقرير ﴿نُطْفَةً﴾ أي قطرة ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي يراق ويصب في الرحم، و﴿مِّن﴾ بيانية، ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ أي صار ﴿عَلَقَةً﴾: قطعة غليظة من الدم الجامد تَعْلق في الرحم، ﴿فَخَلَقَ﴾ أي خلق الله من العلقة مضغة، كما قال سبحانه: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]، قوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي سوّى أعضاءه وصورها وأتقنها وجعله بشرًا سويًا ﴿فَجَعَلَ﴾ أي الله جل وعلا ﴿مِنْهُ﴾ أي من الإنسان ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي النوعين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ بدل من الزوجين أو عطف بيان، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ أي الذي قدر على خلق النطفة والعلقة وصور الإنسان، وهو الله تبارك وتعالى ـ وعبّر باسم الإشارة الدال على البعيد لكمال عظمته وعلوه سبحانه ـ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أن يعيد هذه الأجساد بعد أن كانت عظامًا ورفاتًا وترابًا ويبعثها نشأة أخرى، والاستفهام للتقرير، وجوابه: بلى إنه سبحانه لقادر، وكان النبي ﷺ إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: **(سبحانك! فبلى)**(١).

(١) رواه أبو داود (١/ ٥٤٩) (٨٨٤)، ولم يُذكر صحابيه، قال ابن كثير في التفسير (٤/ ٧٠٨): «ولا يضر ذلك»، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ١٨٦) (٧٨٦).

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ العود بالإنكار والتوبيخ على الإنسان المكذب بالبعث.

٢ ـ توبيخ هذا الإنسان على سوء ظنه بالله.

٣ ـ أن إنكار البعث يستلزم وصف الرب بما يتنزه عنه من العبث في خلق الإنسان وخلقِ السماوات والأرض، وكذلك ما ينزه عنه من التسوية بين المصلحين والمفسدين والمتقين والفجار، وهذا حكم سيء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

٤ ـ أنه يمتنع في حكمة الله أن يُترك الإنسان سُدى لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُجزى على عمله الحسن أو السيء، وهذا يستلزم وقوع البعث والجزاء، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وامتناع ذلك في حكمته تعالى دليل على وقوع البعث.

٥ ـ الاستدلال على إمكان البعث بالنشأة الأولى، وهي خلق الإنسان من المني، ثم مروره بالأطوار حتى يكون من ذلك الصنفان الذكر والأنثى، وشواهد هذا المعنى في القرآن كثيرة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا

يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج]، ووجه هذا الدليل من جهة العقل أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

٦ ـ أن خلق الإنسان على أطوار، ذكر هنا بعضها، وفصّلها في مواضع أخرى، كما في سورة الحج والمؤمنون.

٧ ـ أن الطور الثاني هو العلقة، والعلقة هي الدم الجامد، كما تقدم.

٨ ـ أن العلقة تخلق خلقًا آخر، وهو المضغة كما بُين ذلك في مواضع أخرى من القرآن.

٩ ـ أن تصوير الإنسان وإحكام خلقه يكون بعد الطور الثالث وهو المضغة.

١٠ ـ أن تصويره وإحكامه هو التسوية، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار]، وقال هنا ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

١١ ـ إثبات كمال قدرة الرب بخلق الإنسان أطوارًا، وجعله زوجين ذكرًا وأنثى.

١٢ ـ إثبات كمال علمه وحكمته في هذا الخلق والتنويع.

١٣ ـ فضل الذَّكر على الأنثى لتقديمه في الذِّكر، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

١٤ ـ تقرير كل عاقل بأن القادر على هذه النشأة قادر على إحياء الموتى.

١٥ ـ الرد على منكري البعث استبعادًا له واعتقادًا لامتناعه.

١٦ ـ ذكره تعالى باسم الإشارة الدال على العلو والرفعة.

١٧ ـ التناسب بين البدء والختام في السورة، وهو من وجوه إعجاز القرآن.

١٨ ـ إثبات القياس في الكونيات؛ وهو قياس إحياء الموتى على النشأة الأولى.

١٩ ـ اعتبار الدليل العقلي وأن أدلة الشرع شرعية وعقلية شرعية، فدليل البعث هنا عقلي شرعي، وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن] دليل شرعي؛ لأنه محض إخبار مؤكد بالقسم.

❁ ❁ ❁

سورة الإنسان

ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[1]، وذلك ـ والله أعلم ـ لاشتمالهما على ما كان وما يكون في هذا اليوم من خلق آدم وذكر المبدأ والمعاد ودخول الجنة والنار، فكان عليه الصلاة والسلام يذكر الأمة في هذا اليوم بما كان فيه وما يكون. قاله ابن القيم[2].

۞ قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ أي أليس قد أتى ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ وهو الأول، وهو آدم عليه السلام ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الحين: اسم للطائفة

---

(١) البخاري (٨٥١)، ومسلم (٨٨٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) زاد المعاد (١/ ٣٧٥).

المحدودة من الزمان قليلًا كان أو كثيرًا، و﴿مِّنَ﴾ بيانية، و﴿ٱلدَّهۡرِ﴾ اسم للزمان الممتد غير المحدود، ﴿لَمۡ يَكُن﴾ أي الإنسان ﴿شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ الشيء: اسم للموجود، والاستفهام في الآية للتقرير ويتضمن التحقيق والتذكير، والمعنى: أليس قد مضى على الإنسان الأول مدة من الزمان قبل أن يوجد لم يكن شيئًا يُذكر ولا يُعرف؟ الجواب: بلى.

ولما وصف حال الإنسان الأول قبل خلقه ذكر خلق ذريته والحكمة منه، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي أوجدناه، والمراد به الجنس، فليس هو من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر. قوله: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ أي ماءٍ قليل، ﴿أَمۡشَاجٖ﴾ أي خليط من ماء الرجل وماء المرأة، فأمشاج على هذا مفرد بوزن (أفعال)، كقولهم: بُرْمَةٌ أعشار، أي متكسرة، وثوب أخلاق، أي خلق، ويحتمل أن الأمشاج هي الأخلاط، فهي جَمْع مَشَج؛ كسَبَب وأسباب، أو جمع مِشْج؛ كحِمْل وأحمال، أو جمع مَشِيج؛ كشريف وأشراف، يقال: مَشَج الشيئين أو مَشَج بينهما إذا خلطهما ومزج أحدهما بالآخر، وعلى هذا التفسير لأمشاج يكون هذا اللفظ جمعًا وُصِف به المفرد، وهو ﴿نُّطۡفَةٍ﴾، وذلك باعتبار ما تشتمل عليه من أجزاء وعناصر مختلفة، فكأنها نطف شتى.

قوله تعالى: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ أي نختبره بالتكاليف الشرعية، والجملة حال من فاعل ﴿خَلَقۡنَا﴾ وهي حال مقدرة، أي مريدين ابتلاءه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ أي صيَّرناه ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أي ذا سمع يسمع به وذا بصر يبصر به، قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ﴾ أي بينا له ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: إنه جنس الطريق، أي بيَّنا له طريق الخير وطريق الشر،

كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، وقيل: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بيّنا له طريق الجنة، قاله ابن جرير[1] والواحدي، ونسبه إلى عطاء[2]، وقاله أيضًا الطوفي[3]، ورجحه الرازي[4].

ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان]، ويلزم من بيان طريق الحق والرشد بيانُ سبيل الغي والباطل، فكل ما خالف الحق فهو باطل، فظهر بذلك أن القولين متلازمان.

والفعل (هَدَى) يتعدى بنفسه كما هنا، ويتعدى بـ(إلى) كما في قوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ويتعدى باللام كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]، وهذا من تنويع الأساليب في القرآن، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿إِمَّا﴾ للتقسيم، والشاكر هو المؤمن، وقدمه لشرفه، وأخّر الكافر ليليه ذكر الوعيد، وذَكَره بصيغة الكفور مراعاة لتناسب رؤوس الآي، وأخَّر وعد الشاكرين ـ وهم الأبرار ـ لذكره مفصَّلًا مطوَّلًا.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تذكير الإنسان وتقريره بماضيه.

٢ ـ أن المعدوم ليس شيئًا في الخارج.

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٣٧).
(٢) الوسيط (٤/ ٣٩٨).
(٣) الإشارات الإلهية (٣/ ٣٩١).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٣٨).

٣ ـ أن الإنسان الأول ـ الذي هو آدم ـ لم يكن شيئًا مذكورًا ثم صار شيئًا مذكورًا ثم صار موجودًا، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [صٓ]، ونظائرها.

٤ ـ ذِكْر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة.

٥ ـ الانتقال من الشخص إلى الجنس، فالإنسان الأول آدم، والثاني جنس ذريته.

٦ ـ أن مبدأ خلق كل إنسان من ذرية آدم عليه السلام من نطفة، سوى عيسى عليه السلام.

٧ ـ أن خلق الإنسان من خليط ماء الرجل والمرأة.

٨ ـ أن من حكمة خلق الإنسان الابتلاء.

٩ ـ الامتنان من الله على الإنسان بأن خلقه سميعًا بصيرًا.

١٠ ـ عظم شأن نعمتي السمع والبصر؛ حيث خصهما بالذكر.

١١ ـ فضل السمع على البصر؛ لتقديمه عليه في هذه الآية وفي أكثر الآيات.

١٢ ـ دخول السمع والبصر في أصل تكوين الإنسان.

١٣ ـ أن هداية الله للإنسان تتضمن بيان طريق الخير وطريق الشر.

١٤ ـ الامتنان بهداية الإنسان إلى طريق السعادة والجنة، وذلك ببيانه والإرشاد إليه على ألسن الرسل عليهم السلام، وكل ما سوى هذا

السبيل فسبيل الغي، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

١٥ ـ أن للإنسان مشيئة واختيارًا، لقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، ولقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ لأن الابتلاء والبيان لا يكونان إلا مع الاختيار، ولهذا قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ففيها:

ـ الرد على الجبرية.

ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى.

١٦ ـ تسمية الإنسان سميعًا بصيرًا، والله سميع بصير، وليس السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير.

١٧ ـ انقسام الناس بعد البيان ودعوة الرسل إلى مؤمن وكافر.

١٨ ـ أن الإيمان والطاعة شكر لنعمة الهداية.

١٩ ـ أن التكذيب والتولي كفر بنعمة الهداية، فالعبد المؤمن بالله شاكر لنعمه، والعبد الكافر كافر بنعمه، فدعوة الرسل رحمة للمؤمنين بشكرهم لها، وحسرة على الكافرين بكفرهم بها.

❁ ❁ ❁

❁ ولما ذكر تعالى فريقي الشاكرين والكافرين شرع فيما أعده لكل منهما من الجزاء، وبدأ بذكر الوعيد ليتصل بالكفور، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي هَيَّأنا وأعددنا، والإعتاد: جعل الشيء عتيدًا، أي حاضرًا متى احتيج إليه ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ اللام

للاختصاص ﴿سَلَسِلَاْ﴾ جمع سلسلة، وهو غير منصرف لصيغة منتهى الجموع، وقرأ نافع والكسائي وهشام وشعبة (سلاسلًا) بالتنوين ليناسب ما بعده، والعدول عن الظاهر تحصيلًا لتشاكل المتجاورين كثير، كما يقول ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]، ومنه ما جاء في الحديث في قول الملكين: «لا دَرَيت ولا تَليت»[(٢)]، والأصل: ولا تلوت، وقوله ﷺ: (**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا...**)[(٣)]، والأصل: ولا تؤمنون، وفي العرب من يصرف ما لا ينصرف؛ لأن الأصل في الأسماء الصرف.

قوله ﴿وَأَغْلَلًا﴾ جمع غُلّ، وهو حلقة من حديد توضع في العنق، والسلاسلُ متصلة بها تسحبهم الملائكة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ [غافر].

قوله: ﴿وَسَعِيرًا﴾ أي نارًا مُسْعَرة، وهي الموقدة، والسعير في الأصل وصف بمعنى اسم المفعول ثم صار علمًا على جهنم، وهو مع ذلك وصف لها، يقال: سَعَر النار ـ كمَنَع ـ وأَسْعرها إذا ألهبها وأجَّجها، كسَعَّرها، فهي مَسعُورة ومُسْعَرة ومسعَّرة وسعير.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن ما يعذب به الكفار معد لهم مُهيّأ الآن، فيدل على وجود النار، نعوذ بالله منها.

---

(١) شواهد التوضيح والتصحيح (٧٥).
(٢) رواه البخاري (١٢٧٣)، عن أنس رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم (٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ ـ أن النار معدة للكافرين لا لعصاة المؤمنين، وإن عُذِّب فيها من عُذِّب منهم.

٣ ـ أن عذاب الكفار يكون بهذه الأنواع؛ بالسلاسل والأغلال في أعناقهم، وبالنار المحرقة لأبدانهم دون عصاة المؤمنين.

٤ ـ أن الموجب لهذا العذاب هو الكفر بالله ورسله.

٥ ـ ترتيب الجزاء على العمل.

٦ ـ إثبات الأسباب، لقوله: ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

٧ ـ وجوب الإيمان بهذا الوعيد؛ لأن الله أخبر به.

* * *

۞ ولما ذكر الله وعيد الكافرين ثنّى بوعد الشاكرين، وأخّره لاقتضاء الإطناب فيه لذلك، والنفوس تتوق إلى الوعد بعد الوعيد، وهذه سنَّة القرآن أن يقرن بين الوعد والوعيد ليتحقق الخوف والرجاء في نفوس العبيد، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾.

التفسير:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ صدَّر الآية بـ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا لمضمونها وإعلامًا بأهميته، و﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بَرٍّ ـ كرَبٍّ وأرباب، أو جمع بارٍّ كصاحب وأصحاب ـ وهو المؤمن الذي أدى الطاعات وترك المحرمات، فإن البر إذا أُطلق شمل هذا كله كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢﴾ [المطففين]، بخلاف ما

إذا قُرن بالتقوى، فإن البر حينئذ يختص بفعل الطاعات، والتقوى باجتناب المحرمات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

قوله: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي في الجنة، و﴿مِن﴾ للتبعيض، و(الكأس) يطلق على الإناء وعلى ما فيه وهو الخمر هنا، من إطلاق المحل على الحالّ، وجاء عن غير واحد من السلف كالضحاك وقتادة أن كل كأس في القرآن هي الخمر[1].

وقد وُصفت الكأس التي في الجنة بعدة صفات، كما في سورة الصافات في قوله سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾، وسورة الطور في قوله سبحانه: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، وفي سورة النبأ في قوله ﷻ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ ووصفت في هذه السورة (الإنسان) بالمزج بالكافور والزنجبيل.

قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي ما تُمزج به، والضمير يعود على الخمر ﴿كَافُورًا﴾ طيب معروف، وهو من أنفس الطيوب عند العرب، وفائدة مزج الخمر بالكافور ما فيه من التبريد وطيب الرائحة وهذا مما يزيد الشراب لذة، و(كان) في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ لإفادة التحقيق والدوام، وقيل: زائدة، وهو ضعيف.

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ بدل من محل (من كأس) بتقدير مضاف،

---

(١) انظر تخريج أقوالهم في: «كليات الألفاظ في التفسير» (٢/ ٥٠٧).

أي يشربون خمرًا خمر عين، فما يشربه الأبرار هو من هذه العين ممزوجًا بالكافور.

وقيل ـ وهو قول مرجوح كما سيأتي ـ: إن ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافور، وعلى هذا الإعراب يكون ما يشربه الأبرار ممزوجًا من هذه العين التي هي من الكافور الخالص، فعلى الإعراب الأول تكون العين هي مادة شرابهم، وعلى الثاني تكون العين مادة مزاج شرابهم.

قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قيل: الباء بمعنى (مِن)، أي يشرب منها، وقيل ـ وهو الصحيح ـ: ضُمِّن (يشرب) معنى (يَرْوَى) ولذا عدّاه بالباء، وفائدة التضمين أن تؤدي الكلمة مؤدى كلمتين، فالفعل أعطى معنى (يشرب) ومعنى (يروى)، قوله: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ هم الأبرار، وهو من وضع الظاهر موضع المضمر للتنويه بهم وتشريفهم، وهذا قول جمهور المفسرين.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية(١) ومشى عليه ابن كثير ـ رحم الله الجميع ـ أن عباد الله هم المقربون وأن الأبرار هم أصحاب اليمين، وقالا: إن المقربين يشربون الكافور صرفًا كما أخلصوا أعمالهم، ويمزج للأبرار أصحاب اليمين، كما مزجوا أعمالهم.

وإعراب ﴿عَيْنًا﴾ المتقدم متفرع عن هذا الخلاف، وقول الجمهور أظهر؛ وهو أن عباد الله هم الأبرار؛ لأن ما ذكر بعد ذلك من أعمالهم وثوابهم يناسب الأبرار أصحاب اليمين، وعلى هذا

---

(١) جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية (١/ ٧٠)، تحقيق محمد رشاد سالم، وفي دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٥/ ٢٢)، تحقيق محمد السيد الجليند.

يكون المذكورون في الآيات صنفًا واحدًا، وعلى القول الآخر يكون المذكورون صنفين؛ أبرارًا ومقربين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يَعْدِلونها حيث شاءوا، صح ذلك عن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

والتعبير بالتفجير لإفادة الكثرة، والمراد أنهم يتصرفون فيها كيف شاءوا، والمصدر للتأكيد.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الشاكرين هم الأبرار.

٢ ـ أن الشكر لا يكون بمجرد الحمد والثناء، بل بالإيمان والتقوى والعمل الصالح.

٣ ـ أن من ثواب الأبرار على شكرهم وبرهم شرابَ الخمر ممزوجة بالكافور.

٤ ـ أن هذا الشراب كثير لديهم لأنه من عين فياضة بل جارية، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

٥ ـ أن الأبرار يشربون من هذه العين ويرْوَوْن بها.

٦ ـ تشريف الأبرار بوصفهم بالعبودية، وهي العبودية الخاصة.

٧ ـ تصرف عباد الله بهذه العين تصرفًا تامًا.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٥٤٠).

۞ **ثم شرع ﷻ في بيان الأعمال التي نال بها الأبرار ثوابهم، وهي هنا ثلاثة، فقال** ﷻ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

التفسير:

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي يؤدونه وافيًا، والنذر في الشرع هو كل ما أوجبه المكلَّف على نفسه مما لم يكن واجبًا بأصل الشرع، إما بالالتزام كالنذر المعروف معلقًا أو مطلقًا، وإما بالشروع فيه كالحج، أو بالتعيين كالهدي والأضحية.

وإذا كان هؤلاء الأبرار يوفون بالنذر الذي أوجبوه على أنفسهم فإنهم فيما أوجب الله عليهم ابتداءً أعظم وفاءً.

ثم ذكر الثاني بقوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة وهو منصوب على المفعول به ليخافون(١)، ونكّره للتعظيم، أي يومًا لا كالأيام، فإن في ذلك اليوم من الأهوال والأخطار والفزع ما لم يكن بحسبان، وكثيرًا ما ذكّر الله عباده بذلك اليوم وحذَّرهم إياه، كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، وهذا الخوف من عباد الله الأبرار يبعثهم على فعل المأمورات وترك المنهيات.

(١) ظروف المكان والزمان لا تُنصب على الظرفية إلا إذا كانت على تقدير (في) كما في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، وإلا فهي على حسب العوامل كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

قوله: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾ أي شدائده وأهواله ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي فاشيًا منتشرًا في كل جهة، يقال: استطار الحريق إذا انتشر، واستطار الصبح إذا انتشر ضوءه، وهو أبلغ من طار، مثل نفر واستنفر.

و﴿كَانَ﴾ للدلالة على تحقق خبرها ولزومه لاسمها، فهي كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء].

واعلم أن ذلك اليوم شديد على الكافرين بخلاف المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر]، وقال ﷻ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

ثم ذكر سبحانه ثالث أعمال الأبرار، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ وفي التصريح بالطعام تأكيد لقوله: (يطعمون) وبيان لأهميته؛ لأن به قوام البدن، والتعبير بالمضارع في: (يوفون) و(يخافون) و(يطعمون) للإشعار بتجدد ذلك منهم.

قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي مع حبه، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله، أي مع حب الطعام وحاجتهم إليه، والجار والمجرور حال من الواو في (يطعمون)، أي يطعمون الطعام حال كونهم محبين له، أو حال من الطعام، أي حال كونه محبوبًا لهم، وقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تتميم كما يسميه البلاغيون[1]، وفائدته أنه أبلغ

(١) التتميم من أقسام الإطناب، وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة، لفائدة (الفضلة؛ كالمفعول، والحال، والتمييز، والجار، والمجرور)، =

في مدحهم، فإن إطعامهم للطعام على حبه أبلغ في مدحهم بالكرم مما لو كان عن غنى.

وقيل: إن الضمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ يعود إلى الله ﷻ، وهذا قول ضعيف؛ لأنه لا مدح بإطعام الطعام إلا أن يكون لله ﷻ، ويؤيد قول الجمهور قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قال أبو حيان: «والأول أمدح ـ يريد قول الجمهور ـ لأن فيه الإيثار على النفس، وأما الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر»(١).

وقوله: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ بيان لموضع صدقتهم، والمسكين هو الذي لا يجد كفايته، وسُمِي بذلك لأن الفقر أسكنه، أي جعله ذليلًا، وإذا أُفرد المسكين شمل الفقير، وإذا اجتمعا فُسِّر الفقير بالمُعْدِم أو الذي لا يجد إلا قليلًا من كفايته، وفسّر المسكين بالذي يجد أقل من كفايته، أي كالنصف فأكثر.

واليتيم هو الذي مات أبوه ولم يبلغ، وأصل اليتم في اللغة الانفراد، ومنه قولهم: درة يتيمة، أي لا نظير لها.

والأسير: هو الذي يُؤسر فيُحبس من الكفار، وخُص هؤلاء

= ومنه في الشعر قول زهير بن أبي سُلمى:

من يلق يومًا ـ على علاته ـ هَرِمًا ... يلق السماحة منه والندى خُلُقا

فقوله: (على علاته) تتميم، أي على أيّ حال يكون عليها من فقر أو غنى، وفيه المبالغة في مدح هرم بن سِنان. ينظر: «التلخيص وشروحه» (٣/ ٢٣٥) ط. بولاق.

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٩٥).

الثلاثة بالذكر؛ لأن كل واحد منهم عاجز عن الاكتساب، ولأنه لا يُتوقع منهم مكافأة.

قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ هذا من كلام الأبرار إما بلسان الحال وإما بلسان المقال عند الاقتضاء، ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي لأجل ثوابه واتقاء عقابه، ثم أكّدوا ذلك بقولهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً﴾ أي بالأفعال كالمكافأة بالمال ونحوه ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ أي بالأقوال كالثناء ونحوه.

والشُّكور مصدر كالقعود والخروج، وتكرار (لا) يفيد أنهم لا يريدون ولا واحدًا منهما[1].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾ هو يوم القيامة، و﴿يَوْمًا﴾ مفعول به للفعل ﴿نَخَافُ﴾ وهذا نظير ما في الآية السابقة: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ حال من ﴿يَوْمًا﴾ قدم عليه، أي نخاف يومًا كائنًا من ربنا، وقوله: ﴿عَبُوسًا﴾ نعت ليوم، وهو صفة مشبهة من العبوس، وهو تغير الوجه وكلوحه، ووصف اليوم بذلك تشبيه له بذي الوجه العابس، لما في ذلك اليوم من الأهوال وكريه الأحوال، فيكون في الكلام استعارة مكنية.

وقوله: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ أي شديد الأهوال طويلًا، وهو نعت ثانٍ ليوم.

---

(١) قال ابن الشجري في أماليه (٢/ ٥٤١ ط. الطناحي): «ومن مواضع زيادة (لا) المطردة مجيئها بعد النفي مؤكدة له، في نحو قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]».

❁ **الفوائد والأحكام:**

١ ـ أن الوفاء بالنذر من البر.

٢ ـ فضل الوفاء بالنذر، والمراد نذر الطاعة.

٣ ـ أن الخوف من يوم القيامة من خصال الأبرار.

٤ ـ فضل الخوف من شرور يوم القيامة وأخطاره.

٥ ـ شدة أهوال يوم القيامة، كما يدل له قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

٦ ـ علمه سبحانه بأعمال القلوب، لقوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾.

٧ ـ إثبات البعث واليوم الآخر.

٨ ـ أن من خصال الأبرار الإيمان باليوم الآخر، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٩ ـ أن الكرم وإطعام الطعام من خصال الأبرار.

١٠ ـ أن البر بالإطعام لا يُنال إلا ببذل ما هو محبوب، ويشهد له قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

١١ ـ أن الكرم والإيثار من حميد الخصال.

١٢ ـ فضل هذه الخصال حيث أثنى الله بها عليهم.

١٣ ـ أن من مصارف الصدقة المسكين واليتيم والأسير ونحوهم.

١٤ ـ فضل إطعام الأسير وإن كان كافرًا.

١٥ ـ جواز الإحسان إلى الكافر.

١٦ ـ فضل وضع الصدقة في مواضعها.

١٧ ـ اعتبار الإخلاص في جميع أعمال الخير، لقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

١٨ ـ إثبات الوجه لله تعالى، ومعناه: إنما نطعمكم لله.

١٩ ـ أن من كمال الإخلاص أن المتصدِّق لا يريد من المتصدَّق عليه عوضًا لا دعاءً ولا غيره، لكن يُستحب منه الدعاء لمن تصدَّق عليه.

٢٠ ـ الدلالة على كمال الإخلاص لترك التطلع للعوض والشكور.

٢١ ـ ذكر الحامل لهم على الإطعام والإخلاص، وهو خوف ذلك اليوم وما فيه من الأهوال.

٢٢ ـ أن خوف عذاب الله سبب للوقاية منه، ولحصول الأمن يوم القيامة، وهذا يشبه أن الجزاء من جنس العمل، فمن خاف أمن، قال تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل]، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

❀ ❀ ❀

۞ وحين أخبر عن الأبرار وأعمالهم الباطنة والظاهرة وإخلاصهم وأشار إلى حسن ثوابهم، ذكر جزاءهم على ذلك مفصلًا، فقال: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفاء للتفريع فهي لتفريع الجزاء على سببه، (وَقَاهُم) دفع عنهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ الذي يخافونه وهو يوم القيامة، و(شره): شدته وعذابه، ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أي أعطاهم الله ﷻ وألقى عليهم ﴿نَضْرَةً﴾ أي حسنًا وبشاشة وبريقًا في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ أي فرحًا في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ [عبس].

وقد جرت العادة أن القلب إذا سُر استنار الوجه، وفي صحيح البخاري عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا استبشر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة من القمر»(١).

﴿وَجَزَىٰهُم﴾ أي أثابهم ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (ما) مصدرية، أي بسبب صبرهم على الطاعة وبذل المال بسخاء وإخلاص، وصبرهم عن معصية الله ﴿جَنَّةً﴾ عظيمة يدخلونها، وهي التي أعدها الله للمتقين عرضها السماوات والأرض، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَحَرِيرًا﴾ أي يلبسونه، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، والسندس والإستبرق نوعان منه، كما قال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الدخان: ٥٣]، وعطف الحرير على الجنة من عطف الخاص على العام تنويهًا بشأن لباسهم.

ثم وصف مجالسهم وحالهم فيها، فقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي جلوسهم فيها على الأرائك على هيئة الاتكاء، وقوله:

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٠٠).

﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المنصوب في (جزاهم)، وهذا قول الجمهور، وجوّز الزمخشري أن يكون ـ أي: متكئين ـ صفة لجنة، وكذا ما بعده[1]، وله وجه.

والاتكاء جلسة الناعم الوادع الآمن، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ الضمير يعود إلى الجنة، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، وهي سرير تُرخى عليه حَجَلتُه المتصلة به، وهي سترة تسدل على السرير من فاخر الثياب، وفيها أبهة المجلس وجماله، فالأريكة اسم لمجموع السرير والحَجَلة، فإذا لم يكن ثمة حجلة فهو سرير، وجاء أن أهل الجنة يجلسون مع أزواجهم على الأرائك، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يسٓ].

قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا يجدون في الجنة حرًا ولا بردًا بل هي في غاية الاعتدال، والجملة حال ثانية من ضمير النصب في (جزاهم)، أي متكئين فيها غيرَ رائين ﴿شَمْسًا﴾ أي حرًا شديدًا ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي بردًا شديدًا، وعبّر بالشمس عن الحر لأنها سببه في عُرف أكثر الناس.

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ (دانية) عطف على متكئين، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنو الظلال عليهم.

---

(١) الكشاف (٤/ ١٩٧).

قوله: (دانية)، أي قريبة ﴿عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ أي ظلال شجرها فهم في ظل دائم، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥] وعبر بـ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقل: قريبة منهم؛ لأن دنوها من فوق، ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا﴾ أي سُخّرت منقادة لهم سهلة التناول لهم، ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطف، وهو اسم للعنقود والثمرة سُمي بذلك لأنه يقصد للقطف.

وقوله: ﴿تَذۡلِيلٗا﴾ مصدر مؤكد، والمعنى أن ثمار الجنة سهلة لهم لا يلحقهم عناء بتناولها.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ ترتب الجزاء على العمل ترتب العمل على السبب، أو المعلول على علته.

٢ ـ تحقق وعد الله لأوليائه، لقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ بصيغة الماضي.

٣ ـ أن الجزاء على الأعمال الصالحة نوعان:

ـ السلامة من المكروه.

ـ والفوز بالمطلوب المحبوب.

٤ ـ أن النضرة والسرور من الثواب المعجل للمؤمنين يوم القيامة.

٥ ـ فضل الصبر وأنه الذي يقوم عليه فعل الحسنات وترك السيئات.

٦ ـ أن الجنة وما فيها جزاء على الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد].

٧ ـ الترغيب في الجنة وما فيها من أصناف النعيم.

٨ ـ أن في الجنة ملابس ومجالس.

٩ ـ أن لباس أهل الجنة الحرير ولا كالحرير، وقد حرم الله على المؤمنين في الدنيا لبس الحرير، ومن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، كما صح به الحديث.

١٠ ـ أن المؤمنين يلتقون في الجنة ويتكئون على الأرائك، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

١١ ـ أمن أهل الجنة فيها من الحر والقر.

١٢ ـ أن الجنة ليس فيها ليل ولا نهار، بل هي نور يتلألأ على الدوام لكن قد يعرفون الوقت بما شاء الله من علامات، وقد ذُكر أنهم يعرفون أوقات الصباح والمساء بأنوار تظهر.

١٣ ـ أن مجالس أهل الجنة تحت الأشجار.

١٤ ـ قرب أغصان الجنة وقطوفها منهم في مجالسهم، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة]، وقال: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤].

١٥ ـ تسخير عناقيد الجنة لتكون في متناولهم يأخذون منها ما شاءوا متى شاءوا.

١٦ ـ أن لشجر الجنة ظلًا، الله أعلم بكيفيته وسببه، كما يدل لذلك حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **(إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها)**[1]، وإن كانت الجنة كلها ظلًا؛

(١) رواه البخاري (٣٠٩٧).

إذ لا شمس فيها، كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة]، وقال سبحانه: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء].

❁ ❁ ❁

❁ **ولما وصف الله سبحانه طعامهم ولباسهم ومجالسهم وصف آنيتهم وشرابهم، فقال ﷻ:** ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾.

❁ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي يدور عليهم ويتردد بينهم الولدان، ويظهر أن الطواف ليس خاصًا بالدوران حول شيء كالطواف بالبيت مثلًا بل يشمل التردد حول الشيء وبين الشيئين، ومنه قوله تعالى في الصفا والمروة: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

والطائفون هم الولدان المخلدون كما سيأتي في هذه السورة، وكما جاء في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾.

قوله: ﴿بِآنِيَةٍ﴾ جمع إناء مثل كساء وأكسية وهو ما يقدم فيه الطعام والشراب، وقوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ بيان لمادة هذه الآنية ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ هذا من عطف الخاص على العام إظهارًا لمزية الخاص.

والأكواب: جمع كوب وهي الكيزان التي يُشرب بها، ولا عُرى لها ولا خراطيم، ثم وصف الأكواب فقال: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ أي

تشبه القوارير الزجاجية في رقتها وشفوفها، و﴿كَانَتْ﴾ لتحقيق التشبيه وتأكيده.

والألف في ﴿قَوَارِيرَا﴾ هي ألف الإطلاق المتولدة من إشباع الفتحة، جيء بها لرعاية الفواصل التي بنيت عليها السورة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ولو وصل القارئ الآية بما بعدها لأسقط الألف.

قوله: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ بدل، لبيان أن القوارير من فضة لا من زجاج، والمعنى أن هذه الأكواب جامعة بين صفاء الزجاج وشفوفه وبياض الفضة وحسنه.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ ضمير الرفع في ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يعود إلى الطائفين السقاة، أي قدَّر السقاةُ الأكوابَ على مقدار أكف الشاربين، أو قدَّروا الشراب على قدر حاجة الشاربين من غير زيادة ولا نقصان، وهو ألذ وأشهى، والمعنيان صحيحان ولا تعارض بينهما، فتحمل الآية عليهما، وقوله: ﴿تَقْدِيرًا﴾ مصدر مؤكد.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي الأبرار في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ أي خمرًا، والذي يسقيهم هو الله ﷻ بأن خلقها لهم ونعّمهم بها، كما قال بعد ذلك: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] والولدان يسقونهم إياها بطوافهم بها وتقديمها لهم في مجالسهم.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي الخمر ﴿زَنجَبِيلًا﴾ أي ممزوجة بالزنجبيل، والعرب تستلذ الشراب الممزوج بالزنجبيل لطيب رائحته، ولأنه يحدث نوعًا من اللذع في اللسان، قال ابن كثير: «فتارة يمزج لهم

الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة يمزج لهم بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر»[١]، مع ما في ذلك من التنويع المستطاب عند الشاربين.

قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي في الجنة، وانتصاب عينًا على البدل من كأس بتقدير مضاف، أي خمر عين في الجنة، ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي سلسة تنقاد ماؤها حيث شاءوا، وسلسة في الحلق لعذوبتها، وقوله: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ أي تعرف أو توصف بهذا الاسم.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من نعيم أهل الجنة أن لهم خدمًا يطوفون عليهم بالشراب وهم في مجالسهم على الأرائك، كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصافات].

٢ ـ أن آنية أهل الجنة من فضة في صفاء القوارير، ومِن أهل الجنة مَن آنيتهم من ذهب، كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١] وقال ﷺ: **(جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما)**[٢].

٣ ـ أن من آنية الجنة الأكواب، وهي التي لا عرى لها ولا خراطيم، وذُكرت الأباريق والصحاف، كما في الصافات والزخرف.

٤ ـ أن هذه الأكواب من فضة في صفاء القوارير.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧١٥).

(٢) البخاري (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠)، عن عبد الله بن قيس ﷺ.

٥ ـ أن الآنية والأكواب التي يطوف بها الولدان مقدرة الحجم لأكف الشاربين، ومقدر ما فيها من الشراب بقدر مطلوبهم لا تزيد ولا تنقص، والذين قدروها هم السقاة الولدان الطائفون بها.

٦ ـ أن خمر الجنة أنواع؛ فمنها الممزوج بالكافور ومنها الممزوج بالزنجبيل.

٧ ـ أن الخمر في الجنة عيون فياضة وأنهار جارية، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

٨ ـ أن الأبرار في الجنة يُسقون الخمر الممزوجة بالزنجبيل، وأن اسم هذه الخمر السلسبيل.

٩ ـ أن مما يستطاب مزجَ الشراب بالزنجبيل.

١٠ ـ مدح الزنجبيل، وقد ذكر الأطباء أنه كثير الفوائد.

❁ ❁ ❁

۞ ولما أخبر تعالى أنه يطاف على الأبرار بأنواع الشراب بآنية الفضة وأكوابها، ذكر الطائفين عليهم، ووصفهم بالحسن والكمال، فقال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الأبرار في الجنة لخدمتهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ جمع وليد، وهم الغلمان، كما قال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور] قوله: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي باقون

على ما هم عليه من البهاء والحسن ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ الخطاب لغير معين، ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ وذلك لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانتشارهم في الخدمة، واللؤلؤ المنثور أحسن في العين من المنظوم لوقوع شعاع بعضه على بعض، وإذا كان الولدان كذلك فكيف بالسادة؟!

ولما بيَّن تعالى تفاصيل أحوال الأبرار في الجنة وأنواع نعيمهم ذكر أن ما هنالك أعظم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي إذا وقعت منك الرؤية ﴿ثَمَّ﴾ أي هناك يعني في الجنة، والفعل (رأى) وإن كان في أصله متعديًا إلا أنه هنا نزل منزلة اللازم، فليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر، بل معناه أن بصرك أينما وقع في الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

قوله: ﴿رَأَيْتَ﴾ جواب (إذا) الشرطية ﴿نَعِيمًا﴾ هو كل ما يُتنعم به ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي عظيمًا لا غاية بعده في السعة والجمال والدوام، وهذا إجمال بعد تفصيل، وفي الآية إيجاز بليغ تذهب فيه النفس كل مذهب(١)، وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا إليها: **(إن لك مثل الدنيا وعَشَرة أمثالها)**(٢)، وإذا كان هذا عطاؤه لأدنى أهل الجنة فما يكون حال أهل المنازل العالية؟

---

(١) وهذا قول المحققين، قاله ابن هشام في المسائل السفرية في النحو (٣٢).
(٢) صحيح مسلم (١٨٦/٣٠٨)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ بالنصب إما حال من الضمير المجرور في (يطوف عليهم) الراجع إلى الأبرار، و﴿ثِيَابُ﴾ فاعل، أي يطوف عليهم حال كونهم تعلوهم ثياب سندس، وإما ظرف بمعنى (فوقهم) على أنه خبر مقدم و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخر.

وقرأ نافع وحمزة وأبو جعفر (عاليْهِم) ـ بسكون الياء وكسر الهاء ـ، فهو مرفوع على أنه مبتدأ و﴿ثِيَابُ﴾ خبره، أو أنه مبتدأ و﴿ثِيَابُ﴾ فاعل سد مسد الخبر، وإن لم يعتمد المبتدأ على نفي أو استفهام أو وصف، كما اختاره الكوفيون والأخفش وابن مالك رحمهم الله، أي ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس، و﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ الإضافة لبيان النوع، كقولهم: خاتم ذهب، والسندس ما رقَّ من الحرير، و﴿خُضۡرٌ﴾ بالرفع صفة لثياب، جمع أخضر، وهو من أحسن الألوان وأهدئها في العين، وقرئ (خضرٍ) بالجر صفة لسندس، ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٌۖ﴾ وهو ما غلظ من الحرير، وهو مرفوع عطفًا على الثياب، على تقدير مضاف، أي وثياب استبرق.

﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ أي أُلبسوا الحلي، وهي الـ﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار وهو ما يُلبس في المعصم ﴿مِن فِضَّةٖ﴾. قيل: ويُحلون من ذهب أيضًا للآيات الأخرى، كقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [الكهف: ٣١]، وليس ذلك بظاهر، فإن الحديث هنا عن صنف من أهل الجنة، كما تقدم، ويؤيده قول النبي ﷺ: **(جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما)**(١) ويؤيده

---

(١) البخاري (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠)، عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه.

أيضًا ما سبق في السورة من ذكر الفضة في الآنية والأكواب، والأساور كذلك.

قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي بالغ الطهارة نقيًا من الأذى والقذى، ثم يقال لهم على سبيل الحفاوة والإكرام: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما ذُكر من أنواع الكرامات ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي بعملكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي في الدنيا، وهو مفرد مضاف فيعم كل عمل ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي مقبولًا مثابًا عليه من الله الثواب الجزيل، والخطاب لأهل الجنة وليس كما قيل لأهل الدنيا تعجيلًا بالبشارة لهم، وله نظائر في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ بيان المبهم في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ بأن الطائفين هم الولدان.

٢ ـ أن لأهل الجنة خدمًا يقومون عليهم بتقديم الطعام والشراب.

٣ ـ أنهم شببة، فلذا سُموا غلمانًا وولدانًا.

٤ ـ أنهم مخلدون لا يهرمون ولا تتغير حالهم.

٥ ـ أنهم ذكور، وليس معنى ذلك أن لهم آلة الذكورية، لكنهم ذكور في خلقتهم وفي تسميتهم والإخبار عنهم.

٦ ـ حسن صورهم وانتشارهم في الخدمة، فلذا شبهوا باللؤلؤ المنثور على البساط.

٧ ـ أن الناظر إلى أهل الجنة وما هم فيه يرى كلّ ما حوله نعيمًا ويرى ملكًا عظيمًا واسعًا.

٨ ـ أن أهل الجنة في نعيم لا يحيط به وصف الواصفين، كما يفيده التنكير في قوله: ﴿نَعِيمًا﴾، ويؤيده قوله تعالى في الحديث القدسي: **(أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)**[1].

٩ ـ أن لباس أهل الجنة من السندس والإستبرق؛ وهما نوعان من الحرير، وفي هذا بيان لما أجمل في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

١٠ ـ أن ثياب أهل الجنة خضر الألوان.

١١ ـ أن من ثواب الأبرار شرابًا طهورًا يطهر بطونهم، ويصير ما أكلوا وشربوا رشح مسك، لا كحال أغذية أهل الدنيا.

١٢ ـ فضل هذا الشراب فإن الله أضاف سقيهم إياه إلى نفسه سبحانه، وأنه من آثار ربوبيته الربوبيةَ الخاصة.

١٣ ـ أن كل ما أكرم الله به أولياءه من أنواع النعيم ـ مما تقدم ذكره ـ جزاء على أعمالهم الصالحة، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف].

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٣٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٤ ـ أن عمل أولياء الله في الدنيا لا يضيع عند الله بل يشكره لهم بمضاعفة ثوابهم عليه، ومن أسمائه تعالى الشكور وهو الذي يجزي على القليل الأجر الكبير.

١٥ ـ أن الأعمال الصالحة سبب للفوز بكرامة الله ومغفرته ورحمته ورضاه، ففيها:

١٦ ـ إثبات الأسباب والرد على منكريها من الجهمية والأشاعرة.

١٧ ـ الترغيب في الأعمال الصالحة.

١٨ ـ تذكير أهل الجنة بما يستنطقهم بالحمد على توفيقه لهم وإنعامه عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الآية [الأعراف: ٤٣]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر].

❁ ❁ ❁

۞ ولما ذكر أصناف الوعد والوعيد وفصّل فيما أعده للطائعين ذكر ما شرف به نبيَّه من النبوة والرسالة بإنزال القرآن عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

التفسير:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والفعل (نزّل)

يفيد أن هذا القرآن نزل بالتدرُّج متفرقًا، كما قال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء] وأما الفعل (أنزل)(١) فهو أخص بنزول الشيء جملة، هذا هو الأكثر في تعبير القرآن.

وقد بيّن الله ﷻ في سورة الشعراء أن القرآن نزل به الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على قلب الرسول ﷺ ليكون أدل على وعيه لهذا القرآن، فقال ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر مؤكد لمعنى التدرج. قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الفاء للتفريع، أي كما أكرمك ربك بما أنزل عليك فاصبر، واللام في قوله: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى (على)، أي فاصبر على حكم ربك، وهو الحكم الكوني، وهو ما

---

(١) قال شيخنا عبد الرحمٰن بن ناصر البراك حفظه الله: «من المشهور عند جماعة من المفسرين وأهل اللغة الفرق بين (أنزل) و(نزّل) بأن الإنزال لما يأتي دفعة و(نزّل) لما يأتي متفرقًا متدرجًا، وخالفهم آخرون فقالوا: لا فرق بينهما وإن كلًا من الفعلين يأتي في مكان الآخر، ولكل منهم استدلالات ببعض الشواهد من القرآن. والظاهر عندي أن (نزّل) أخص بالتدريج و(أنزل) أخص بالجملة، والدفعة ولا يلزم من هذا الاطرادُ، بل ذلك يوجب أغلبية في الاستعمال، ولا يمنع ذلك من تعاقبهما، وهذا فيما إذا ورد أحدهما غير مقترن بالآخر، فإذا اقترنا في الذكر اختص كل منهما بما هو أخص به، كما في مطلع سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، والله أعلم». ا.هـ. إملاءً من سماحته وفقه الله.

ينال النبي ﷺ من مشاق الدعوة وأذى الكافرين، ويشمل الحكم الشرعي، وهو ما فرضه الله على نبيه من الواجبات، فإن ذلك كله يحتاج فيه إلى الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠] وقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

ويحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي فاصبر من أجل حكم ربك، وهو شرعه الذي أنزل به الكتاب والحكمة، فإن القيام به لا يتحقق إلا بالصبر، وفي إضافة الحكم إلى ربوبيته سبحانه الخاصة بنبيه ﷺ أعظم البواعث على الصبر وثبات القلب.

والأمر في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ للدوام والاستمرار ولتجديد الصبر على ما يجد من أسبابه، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي من المشركين ﴿ءَاثِمًا﴾ أي ذا إثم ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي شديد الكفر، والتقسيم باعتبار ما يدعون إليه، أي لا تطع منهم داعيًا إلى الإثم ولا داعيًا إلى الكفر، و(أو) بمعنى (لا)، أي ولا كفورًا، كما تقول لا تكذب أو تسرق، تريد ولا تسرق.

ولما نهاه ﷺ عن طاعتهم وحثه على الصبر على أذاهم وتحمل تكاليف الدعوة، عقَّب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته في ذكره وعبادته، فقال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي دم على ذكره باسمه ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار، ويدخل في ذلك صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ أي آخر النهار، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر، وفي ذكر هذين الوقتين إشارة إلى دوام الذكر، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ دخلت (من) على الظرف للتبعيض، أي وبعض الليل، وتقديم الظرف للاعتناء به والدلالة على عظم شأن

صلاة الليل ﴿فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ أي فصلِّ لله، وكثيرًا ما يُعبر في القرآن عن الصلاة ببعض أفعالها أو أقوالها من الركوع والسجود والتسبيح، وهو من التعبير بالجزء عن الكل، والفاء في قوله: ﴿فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ فيها معنى الشرطية، أي مهما يكن من شيء فصلِّ من الليل، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ منصوب على الظرفية ﴿طَوِيلًا﴾ صفة، أي اجعل وقتًا طويلًا من الليل للصلاة لا يقل عن الثلث، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل] وباقي الليل للراحة والنوم، وهو الهجوع، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات].

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع دلالة على عظمته لما له من الأسماء الحسنى والصفات وكثرة العبيد والجنود، وقد يكون في الصيغة إشارة إلى نزول الملائكة بالقرآن.

٢ ـ أن القرآن منزل من عند الله.

٣ ـ إثبات علو الله كما يدل عليه لفظ التنزيل.

٤ ـ أن إنزال القرآن كان منجّمًا لا جملة، كما يدل عليه الفعل المضعّف مؤكدًا بالمصدر ﴿تَنزِيلًا﴾.

٥ ـ أن إنزال القرآن نعمة عظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

٦ ـ وجوب الصبر لحكم الله.

٧ ـ أن من شكر نعمة الله بتنزيل القرآن الصبر على مشاق الدعوة وعلى التكاليف الشرعية.

٨ ـ أن القيام بالدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة لا بد له من الصبر.

٩ ـ تقوية قلب النبي ﷺ بذكر ربوبيته تعالى الخاصة به ﷺ، وإضافة الحكم إليه تعالى.

١٠ ـ إثبات صفة الحكم لله تعالى، وحكمه سبحانه نوعان: كوني وشرعي، والحكم في هذه الآية المراد به الحكم الشرعي، ويحتمل أن يكون شاملًا لهما.

١١ ـ ترك الاستعجال في حصول النصر لقوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾.

١٢ ـ المضي في الدعوة وعدم الالتفات إلى ما يدعو إليه أهل الإثم والكفور، ومن ذلك ترك الدعوة إلى الله.

١٣ ـ تحريم طاعة الآثم والكفور.

١٤ ـ أن الكفار وأصحاب الآثام يدعون إلى موافقتهم ومشاركتهم في الكفر والمعاصي، ومن شواهد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

١٥ ـ الأمر بذكر الله بأسمائه في الصباح والمساء، ويدخل في ذلك الذكر الواجب؛ وهو صلاة الفجر وصلاة العشي وهي الظهر والعصر، ويشمل الذكر المستحب؛ وهو الأذكار المسنونة في الصباح والمساء.

١٦ ـ أن ذكر الله وتسبيحه وتحميده وتكبيره في الصلاة وغيرها يعين على الصبر على الأذى في سبيل الدعوة ويزيل ما يجده الداعي من غم وضيق بسبب ما يقول المكذبون والجاهلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

١٧ ـ مشروعية الصلاة في الليل، والمراد قيام الليل والتهجد.

١٨ ـ الندب إلى أخذ قدر طويل من الليل للصلاة والذكر والتسبيح.

١٩ ـ أن من أعظم واجبات الصلاة السجود والتسبيح لتخصيصهما بالذكر.

* * *

ولما ذكر جزاء الفريقين في الآخرة، وما امتن به على نبيه بتنزيل القرآن، وأمره له بما يوجبه ذلك من الصبر لحكمه ولزوم طاعته ومداومة ذكره آناء الليل والنهار = أتبع ذلك ببيان حال الكفار في الدنيا، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

التفسير:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الكفرة، وذكرهم باسم إشارة القريب للتحقير، ﴿يُحِبُّونَ﴾ أي محبةً تتجدد في كل وقت، ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي الدنيا، ووصفها بذلك تزهيدًا فيها لأنها سريعة المضي والزوال،

وجاء إطلاق العاجلة على الدنيا في مواضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة].

قوله: ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي يتركون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي خلف ظهورهم فلا يعبأون به، ﴿يَوْمًا﴾ مفعول (يذرون) لا ظرف، ﴿ثَقِيلًا﴾ أي يومًا عظيمًا شديد الأهوال، وأصل الثقل في الأجسام ثم يقال في المعاني، قاله الراغب(١)، فيوم القيامة بأهواله ثقيل عسير على الكافرين هين يسير على المؤمنين، وهذه الآية كالتعليل لنهي الله نبيه عن طاعة الآثم والكفور.

ثم ذكر ما يدل على قدرته على البعث الذي يكذب به هؤلاء، وهو ابتداء خلقهم، فقال سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي أوجدناهم بعد العدم ﴿وَشَدَدْنَا﴾ أي قوينا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ أي خلقهم فصاروا أقوياء وأشداء في أكمل خلق الإنسان، وهذا في خلق البدن، وأما قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] فالمراد ضعف الإرادة ومقاومة الشهوة ولا سيما في أمر النساء، فلا تعارض بين الآيتين.

قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ أي ومع ذلك فنحن قادرون، ﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ أي بعثناهم بعد الموت، والمعنى: وأعدناهم بأعيانهم خلقًا جديدًا، فتكون كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، وجاءت (إذا) لتحقق الوقوع.

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ أي وإذا شئنا أهلكناهم وأتينا بقوم آخرين فجعلناهم بدلًا منهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال

---

(١) المفردات (١٧٥).

تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، وقوله: ﴿تَبْدِيلًا﴾ مصدر مؤكد لعامله للدلالة على أنه تبديل حقيقي.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تسفيه عقول الكفار بإيثارهم الدار الفانية العاجلة على الآخرة الباقية.

٢ ـ إعراضهم عن اليوم الآخر وأمنهم من أهواله وشروره.

٣ ـ أن إيثار الدنيا على الآخرة سبب للكفر واقتراف الآثام.

٤ ـ تعليل النهي عن طاعة الكافرين بما ذُكر من أوصافهم القبيحة.

٥ ـ ثقل يوم القيامة على الكافرين وخفته على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

٦ ـ تهديد الكفار بما سيلقونه يوم القيامة.

٧ ـ إثبات أفعال العباد والرد على الجبرية، لقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿وَيَذَرُونَ﴾.

٨ ـ التزهيد في الدنيا وذم من يؤثرها على الآخرة.

٩ ـ سفه من يؤثر الفانية على الباقية والأدنى على الأعلى ونهي المؤمن عن ذلك.

١٠ ـ أن إعراض الكافرين عن العمل للآخرة سببه التكذيب بها، وقد ذكر الله في مواضع كثيرة شبهة المكذبين بالبعث، وهي استبعاد إعادتهم بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا وترابًا.

١١ ـ أن حب العاجلة والإعراض عن الآخرة من التشبه بالكفار.

١٢ ـ الرد على المكذبين بالبعث بالنشأة الأولى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة] وقال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال هنا: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾.

١٣ ـ أن من طرق إثبات البعث الاستدلال بالنشأة الأولى على الآخرة، وقد ثُني هذا الدليل في آيات كثيرة بأساليب مختلفة.

١٤ ـ اشتمال القرآن على الأدلة العقلية، وهو كثير في تقرير التوحيد والنبوة والمعاد.

١٥ ـ إثبات صفة الخلق لله.

١٦ ـ ذكر الله سبحانه نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة.

١٧ ـ إمداد الله الإنسان بقوة الخلق بما يجعل له قدرة على القيام بشؤونه.

١٨ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

١٩ ـ كمال قدرة الرب تعالى على بعث الأموات وإعادتهم كما بدأهم، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢٠ ـ كمال قدرة الرب تعالى على خلق الأجيال، فيذهب بجيل ويأتي بآخرين.

٢١ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله ﷻ والرد على من أنكر ذلك من الجهمية والأشاعرة وغيرهم.

۞ **ولما بيّن سبحانه في هذه السورة أحوال السعداء والأشقياء وأعمالهم قال:** ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي السورة بنظمها البديع ومعانيها الجليلة المنبئة عن أحوال الخلق وذكر المبدأ والمعاد ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يتذكر بها العاقل وموعظة ينزجر بها الجاهل ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الفاء للتفريع، أي إذا كانت السورة كذلك ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أي أراد نجاة نفسه وسعادتها ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي اختار لنفسه سبيلًا، أي طريقًا إلى الله بطاعته وطلب مرضاته، وليس هذا للتخيير ولكنه حض وترغيب في سلوك سبيل الإيمان والاستقامة.

قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ المفعول محذوف للتعميم، أي وما تشاءون شيئًا، أي شيء، ومن ذلك الإيمان والطاعة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إلا بعد أن يكون الله قد شاءه، فإذا شئنا الشيء علمنا أن الله قد شاء منا المشيئة، فإذا حصل الشيء الذي شئناه علمنا أن الله قد شاءه.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي ذا علم واسع بأحوال خلقه، ﴿حَكِيمًا﴾ أي ذا حكمة عظيمة في تدبيره وصنعه، وفعل (كان) يدل على أن وصفه سبحانه بالعلم والحكمة وصف ذاتي، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي أزلًا وأبدًا.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ أي من عباده، وهم المؤمنون ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي جنته، و(في) للظرفية، وأطلق على الجنة اسم الرحمة؛ لأنها كانت برحمته سبحانه يرحم بها من شاء من عباده.

و﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي هيأ لهم ﴿عَذَابًا﴾ التنكير للتفخيم، ﴿أَلِيمًا﴾ أي مؤلمًا موجعًا، وانتصاب ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الاشتغال بفعل مضمر تقديره أوعد الظالمين.

وقد رجع آخر السورة على أولها من وجوه:

أولها: أنها بدئت وختمت بذكر خلق الإنسان ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ...﴾، ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ...﴾.

الثاني: أنها بدئت وختمت بذكر انقسام الخلق إلى مؤمن مرحوم وكافر معذب: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ...﴾.

الثالث: أنها بدئت وختمت بوعيد الكافرين: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا...﴾ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الرابع: أنها بدئت وختمت بالتذكير والبيان لسبيل الله ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ...﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل هذه السورة، لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾، وكان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة الفجر من يوم الجمعة في الركعة الثانية[1].

---

(١) رواه البخاري (٨٥١)، ومسلم (٨٨٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ ـ أن ما ذكر في هذه السورة من أمور المبدأ والمعاد والوعد والوعيد فيه تذكير لطالب النجاة والفوز.

٣ ـ أن معرفة الحق معينة لمن أراد سلوك الطريق إلى الله.

٤ ـ إثبات مشيئة العبد والرد على الجبرية.

٥ ـ أن مشيئة العبد متوقفة على مشيئة الله، ففيه الرد على القدرية في قولهم باستقلال مشيئة العبد، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

٦ ـ الرد على المعتزلة في قولهم بوجوب الأصلح على الله باللطف والهداية مما يهيء العبد لقبول الحق والعمل به لا في الجزاء، فإنه يجب على الله عندهم أن يدخل المتقين الجنة ويدخل الكافرين النار، فيجب على الله تحقيق وعده ووعيده بموجَب العقل، والحق أن ذلك راجع إلى مشيئته وحكمته وأنه لا يخلف الميعاد.

٧ ـ أن من ضل أو اهتدى فبمشيئة الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

٨ ـ إثبات الاسمين العليم والحكيم لله تعالى وما تضمناه من صفتي العلم والحكمة.

٩ ـ أن مرد التوفيق والخذلان للعبد إلى علم الله وحكمته، وذلك للتذييل بهذين الاسمين، ونظائر ذلك كثير كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات].

١٠ ـ إثبات المشيئة لله تعالى وأنه يفعل بإرادة.

١١ ـ انقسام الخلق إلى مرحوم ومعذب.

١٢ ـ أن الظلم سبب العذاب، وأظلم الظلم الشرك، وأن العدل سبب الرحمة، وأعدل العدل التوحيد.

١٣ ـ إثبات الأسباب والرد على من أنكرها من الجهمية والأشاعرة وغيرهم.

١٤ ـ إطلاق اسم الرحمة على الجنة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٧] أي جنته.

١٥ ـ أن الرحمة المضافة إلى الله نوعان:

أ ـ رحمة مخلوقة، فإضافتها إليه سبحانه من إضافة المخلوق إلى خالقه، كما في هذه الآية ونظائرها، وكما في قوله ﷺ: **(قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي)**(١).

ب ـ رحمة هي صفة، فإضافتها إليه تعالى من إضافة الصفة إلى الموصوف، كقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

١٦ ـ أن عذاب الظالمين موجود معد لهم، وهو عذاب النار، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

١٧ ـ شدة عذاب الله، نعوذ بالله من عذاب الله.

---

(١) البخاري (٤٥٦٩)، مسلم (٢٨٤٦).

١٨ ـ التناسب بين أول السورة وآخرها للوجوه المذكورة، وذلك من إعجاز القرآن.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ أن سورة المرسلات نزلت على رسول الله ﷺ وهو في غار بمنى، قال ابن مسعود: فإنه ﷺ ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية فذهبت، فقال النبي ﷺ: **(وقيت شركم كما وقيتم شرها)**(١)، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بها في المغرب(٢).

۞ قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾.

التفسير:

أقسم الله تعالى في صدر هذه السورة بخمسة أشياء عظيمة من خلقه على وقوع البعث والجزاء، ولما كان المقسم به موصوفات قد

(١) البخاري (١٧٣٣)، ومواضع أخرى.
(٢) البخاري (٧٢٩، ٤١٦٦)، ومسلم (٤٦٢)، عن أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها.

حذفت وأقيمت صفاتها مقامها، وقع الخلاف بين المفسرين، فقيل: إن المقسم به في أربع الآيات الأولى الرياح، وقيل: الملائكة، وقال بعضهم: المرسلات والعاصفات: الرياح، والناشرات والفارقات: الملائكة.

والراجح من هذه الأقوال أن المرسلات والعاصفات والناشرات هي الرياح، والفارقات والملقيات هي الملائكة.

وإذا استعمل المفسر قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضًا انجلى له الحق في كثير مما اختلف فيه، وبناءً على هذه القاعدة جرى هذا الترجيح في الآيات.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ أي الرياح جمع مرسلة، وهذا قول الأكثرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، ونظائر ذلك كثير.

﴿عُرْفًا﴾ أي متتابعة؛ يتلو بعضها بعضًا كعُرف الفرس، وهو الشعر النابت فوق العنق، والعرب تشبه به الشيء المتتابع، يقولون: جاءوا عُرفًا واحدًا، أي بعضهم خلف بعض، ونصب ﴿عُرْفًا﴾ على الحال من (المرسلات)، فالله تعالى يقسم بالرياح حال كونها متتابعة ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ أي الرياح الشديدة، والعصف شدة الهبوب، وهذا تفسير الجمهور، ويدل له قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]، قوله: ﴿عَصْفًا﴾ أي شديدًا، وهو مصدر مؤكد لاسم الفاعل، والفاء في (العاصفات) تفريع على المرسلات، أي ترسل فتعصف.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ أي الرياح يرسلها الله بين يدي رحمته فتلقح السحاب وتنشره في آفاق السماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ـ على قراءة ضم النون والشين من (نشرا)، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو.

وقول من فسّر (الناشرات) بالملائكة ضعيف؛ لأنه لا يوجد في القرآن وصف الملائكة بالنشر.

﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ أي الملائكة الفارقات بين الحق والباطل والإيمان والكفر بما تجيء به من الفرقان الشرعي والكوني، ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أي الملائكة ـ بإجماع المفسرين ـ تلقي الذكر إلى الرسل، والمراد بالذكر الوحي من كتب وغيرها، وسماه ذكرًا لأنه يذكّر الناس بربهم ويعظهم، وقوله: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ اسما مصدر لأعذر وأنذر، وهما مفعولان لأجله، أي لأجل الإعذار، وهو إزالة أعذار الخلق، وقطع حجتهم على الله و(أو) بمعنى الواو، أي و﴿نُذۡرًا﴾ يعني للإنذار والتخويف بالعقاب، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا جواب القسم، وهو المقسم عليه، أي إن الذي توعدونه من البعث والجزاء لواقع وآت لا محالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، والخطاب للكفار والسورة مكية، وكان حق (إنّ) أن تفصل عن (ما) الموصولة في الرسم لكنها كتبت في المصحف الإمام هكذا، واتباع رسمه سنّة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه، وأما المخلوق فلا يقسم إلا بالله أو صفاته.

٢ ـ عظم شأن ما أقسم الله به.

٣ ـ أن المقسم به في هذه السورة نوعان: الرياح والملائكة.

٤ ـ أن الرياح المقسم بها هي المرسلة بالرحمة بدليل الجمع، فإن الغالب في القرآن في ذكر الريح المرسلة بالعذاب أن تذكر بالإفراد، والمرسلة بالرحمة أن تذكر بالجمع، وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح: **(اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا)**(١).

٥ ـ التناسب بين الأمور المقسم بها، ففي الرياح المرسلة بالرحمة حياة البلاد والأبدان، وفيما جاءت به الملائكة من الذكر والفرقان حياة القلوب والأرواح.

٦ ـ مناسبة المقسم بها للمقسم عليها، وهو المعاد وبعث الأجساد من القبور ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

٧ ـ الحكمة من إنزال الملائكة بالوحي على الرسل وهي الإعذار، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

٨ ـ رحمة الله بعباده.

---

(١) رواه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في الكبير (١١٥٣٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): «فيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك، وقد وثّقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح».

٩ ـ كمال قدرته سبحانه.

١٠ ـ إثبات الملائكة الموكلين بالوحي.

١١ ـ أن الرياح لا تهب من نفسها بل يرسلها الله، ففيه:

١٢ ـ الرد على الطبعيين (الملاحدة).

١٣ ـ تأكيد الخبر عن المعاد بأنواع المؤكدات لأن الخطاب مع المكذبين.

❁ ❁ ❁

۞ ثم فصَّل ﷻ ما يكون في ذلك اليوم الذي يوعدون، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ أي الكواكب، واحدها نجم لا نجمة كما تقول العامة، ﴿طُمِسَتْ﴾ أي مُحي ضوءُها وذهب نورها، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي انشقت وانفطرت، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي قُلعت وفُتتت حتى صارت هباء، كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ وقرأ أبو عمرو (وُقتت) على الأصل،

أي بُيّن للرسل الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، أو بُلغت الرسل وقتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة، والقولان متلازمان، وجواب (إذا) محذوف تقديره: فإذا وقع كل ما ذكر وقع ما توعدون، لدلالة قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ يعني: أُخرت، أي الرسل، واللام في ﴿لِأَيِّ﴾ بمعنى (في) أو (إلى)، والمعنى: إلى أي يوم أخرت الرسل؟ أي في جمعهم واستشهادهم، والاستفهام للتهويل والتعجيب، وتنكير يوم للتفخيم، أي ليوم عظيم لا كالأيام، ثم بيّنه فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي ليوم القضاء والحكم بين الخلائق فيما اختلفوا فيه من أمور الدين، وفي الحقوق التي بينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ الاستفهام للتهويل والتعظيم، أي وما أعلمك أيها الإنسان ما يوم الفصل وشدته وهوله؟! إنه يوم عظيم، ووضع الظاهر موضع المضمر (ما هو) لزيادة التهويل.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة وعيد وتهديد، وأصل الويل الشر والهلاك، أي عذاب عظيم في ذلك اليوم للمكذبين، والتنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنوين عوض عن محذوف، أي يومئذ تحدث هذه

الحوادث العظام ويل للمكذبين، واللام في ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ هي لام الاستحقاق.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من حسن البيان التفصيل بعد الإجمال، وهو كثير في القرآن.

٢ ـ أن تغير العالم يوم القيامة يبدأ بتغير الأجرام العلوية والأفلاك والنجوم والسماوات.

٣ ـ طمس النجوم يوم القيامة بذهاب ضوئها، وعبَّر عن ذلك في آية أخرى بالكدر ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير] أي تكدر لونها بعد تلألئها في ظلام الليل.

٤ ـ تغير حال السماء يوم القيامة بجعل الفروج فيها بعد أن لم يكن لها من فروج، وقد عبر عن ذلك بالانشقاق والانفطار، كما تقدم.

٥ ـ الرد على الفلاسفة في زعمهم أن الأفلاك العلوية لا تنخرق ولا تتغير.

٦ ـ نسف الجبال يوم القيامة، وهو قلعها وتفتيتها وتسوية أماكنها مع سائر الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه].

٧ ـ كمال قدرة الرب تعالى وأنه المتصرف في هذا الكون، فإنه سبحانه الفاعل لهذه الأفعال من طمس النجوم وفرج السماء ونسف الجبال: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

٨ ـ توقيت الرسل يوم القيامة، وهو جمعهم في الميقات الذي وقته الله تعالى لجمعهم واستشهادهم على أممهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء].

٩ ـ التنويه بعظمة ذلك اليوم، لقوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾.

١٠ ـ أن من أسماء يوم القيامة يوم الفصل.

١١ ـ أن الله يفصل بين العباد يوم القيامة، أي يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من أمور الدين وفي الحقوق التي بينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل].

١٢ ـ وجوب الإيمان باليوم الآخر.

١٣ ـ تهديد المكذبين به بالعذاب في ذلك اليوم.

١٤ ـ انكشاف الحقائق يوم القيامة.

١٥ ـ تميّز الكافرين والمؤمنين بعضهم عن بعض، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم].

١٦ ـ إظهار صدق الرسل وإظهار حجتهم على من كذبهم.

❁ ❁ ❁

۞ ولما أخبر بوقوع يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والشدائد والعذاب للمكذبين، أتبعه بوعيد الكافرين المكذبين بالبعث، وذكّرهم ـ مهدّدًا ـ بمصارع الغابرين، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي المتقدمين المكذبين لرسلهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم، والمراد بالإهلاك العذاب لا مجرد الإماتة، والاستفهام إنكاري وهو داخل على نفي، ونفي النفي إثبات، ويعبر عنه بالاستفهام التقريري، وهو حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الجملة، أي أهلكناهم، فإن قريشًا كانوا يعلمون بأخبار أولئك الهلكى المعذبين، ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي المتأخرين؛ وهم المكذبون لمحمد ﷺ من أهل مكة وغيرهم ممن شابههم في التكذيب والعصيان، وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ﴾ بالرفع على الاستئناف على معنى سنفعل ذلك فنتبع الأول الآخر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثلما فعلنا بالمكذبين الأولين من الإهلاك ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي جميعهم، والآية كالتذييل لما قبلها، أي إن ذلك الإهلاك سنّة في كل مجرم، والمجرم في عرف القرآن كل كافر من مشرك ومكذب وجاحد.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهديد ووعيد بما يلقاه المكذبون يوم القيامة من العذاب والنكال، وكرره في السورة عشر مرات تأكيدًا

للتهديد، والتكرير في مقام التهديد شائع في كلام العرب، ومنه قول الحارث بن عُبَاد في لاميته المشهورة التي يتوعد فيها مهلهلًا حين قتل ابنه بُجيرًا: (قربا مربط النعامة مني) فإنه كرره أكثر من عشرين مرة[(١)].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تنويع التهديد للكفار بعذاب الله؛ فتارة بما كان وتارة بما يكون.

٢ ـ أن مصير المكذبين من الأمم الماضية هو الهلاك.

٣ ـ تهديد كفار قريش ومن بعدهم بالإهلاك.

٤ ـ أن سنَّة الله في المجرمين وهم المكذبون للرسل من الأولين والآخرين هو إهلاكهم.

٥ ـ إثبات القياس وأن حكم الشيء حكم نظيره، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

٦ ـ تأكيد تهديد المكذبين باليوم الآخر بالويل الحاصل في ذلك اليوم.

٧ ـ أن علة الإهلاك الإجرامُ، وهي علة مطردة فتقتضي عموم الحكم، وهو الإهلاك لكل مجرم.

٨ ـ أن تكذيب الرسل هو الإجرام حقًا.

۞ ۞ ۞

---

(١) كما في الصناعتين لأبي هلال (٢٠٠).

۞ ولما هدد المكذبين بالإهلاك كما فعل بأمثالهم ذكر الحجة عليهم في أمر البعث وأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ الخطاب للمكذبين، وهو صالح لجميع المكلفين، والاستفهام للتقرير، أي خلقناكم ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي حقير ضعيف قليل، وهو المني، و(من) للابتداء كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة]، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الماء المهين، والفاء للعطف، ﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي مقر، وهذا من التعبير بالمصدر عن اسم المكان ﴿مَّكِينٍ﴾ أي متمكن، وهو صفة لقرار، والقرار المكين هو رحم المرأة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، ووصف الله الرحم بأنه مكين؛ لأنه محاط من جوف المرأة بما يحفظ ما فيه ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلى وقت محدود وهو وقت الولادة على اختلاف مدد الحمل.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال، وقرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بتشديدها، وهما لغتان بمعنى واحد، أي قدّرنا خلق أطوار الجنين في رحم أمه تقديرًا محكمًا، كما قال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس].

ثم أثنى الله على نفسه بهذا التقدير الحكيم والتدبير البديع، فقال سبحانه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ الفاء للتفريع، فما بعدها مفرّع على ما

قبلها، و(نِعْم) فعل ماض جامد لإنشاء المدح، و﴿ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ فاعل، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: (نحن)، أي نعم القادرون نحن ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهديد ووعيد بما سيلقاه المكذبون يوم القيامة، وهو تأكيد لما سلف.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الكفار مقرون بأن الله خلقهم.

٢ ـ ابتداء خلق الإنسان من ماء مهين وهو المني.

٣ ـ أن ذلك يدل على كمال القدرة.

٤ ـ أن العلم بذلك يمنع من التكبر.

٥ ـ أن القادر على ابتداء الإنسان من ذلك الماء قادر على إعادته، وهذا المعنى كثير في القرآن.

٦ ـ اعتبار الدليل العقلي.

٧ ـ الرد على منكري البعث.

٨ ـ تهيئة الرحم لاستقرار الماء فيه ونحوه.

٩ ـ تقدير أجل الجنين في بطن أمه.

١٠ ـ تقدير خلق الجنين في أطواره وتقدير ما يصير إليه من أحواله وأعماله وأجله.

١١ ـ إثبات العلم لله تعالى.

١٢ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على عظمته مضمرًا ومظهرًا، وأن ذلك لا ينافي أنه الواحد الأحد.

١٣ ـ مدح الرب لنفسه ﷻ بكمال القدرة وكمال التقدير، لقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾.

١٤ ـ تهديد المكذبين بالبعث بما يلقونه من العذاب في ذلك اليوم الموعود.

* * *

ولما ذكَّر سبحانه بابتداء الخلق وأنه دليل على تمام قدرته على البعث أتبعه بذكر إنعامه على العباد بهذه الأرض التي خلقها وسخرها لهم، وما أمدهم به من الماء الزلال، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الاستفهام للتقرير كسابقه، أي جعلنا، والجعل بمعنى التصيير، و﴿كِفَاتًا﴾ مصدر كالقتال، وفعله كَفَت ـ من باب ضرب ـ إذا جمع الشيء إليه وضمّه، والكفات مصدر أريد به اسم الفاعل، وُصفت به الأرض مبالغة، نحو: رجل عَدْلٌ ورِضًى، فقوله: ﴿كِفَاتًا﴾ أي كافتة، أي ضامةً لكم ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ منصوبان على المفعولية ﴿أَحْيَآءً﴾ أي على ظهرها في الدور ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ أي في بطنها في القبور وغيرها، وتنكير أحياء وأمواتًا للدلالة على كثرتهم، أي أحياءً لا يُعدون وأمواتًا لا يُحصون.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ صفة، أي جبالًا ثابتة، من (رَسَى) إذا ثبت، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن

تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي مرتفعات جدًا، وجُمع راسٍ على رواسٍ (فواعل) لوقوعه صفة لمذكر غير عاقل (جبال).

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ جمع شامخ، وهو جمع مؤنث سالم وصف به غير عاقل، وهذا مطرد، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والمغايرة بين الوصفين في نوع الجمع لتحسين اللفظ، وتنكير رواسي للتفخيم، ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي عذبًا صافيًا تشربون منه وتسقون منه زروعكم ودوابكم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان]، يقال: سقاه وأسقاه، الفعل ثلاثي ورباعي ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تكرير للتهديد السابق.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ الامتنان من الله على عباده بنعم ثلاث:

أ ـ كون الأرض كفاتًا، أي ضامة جامعة للناس الأحياء والأموات.

ب ـ وجود الجبال الرواسي، أي الثابتات الضاربات في عمق الأرض، الشامخات، أي العاليات وهي للأرض كالأوتاد تثبت الأرض كي لا تميد بالعباد.

جـ ـ الماء العذب الطهور، وهو المطر الذي ينزله الله ويسكنه في الأرض، ويسلكه فيها ينابيع.

٢ ـ أن الله هو خالق الأرض والجبال ومنزل الغيث.

٣ ـ أن الله هو جاعل هذه المخلوقات مشتملة على مصالح العباد.

٤ ـ أن القبور نعمة؛ لأنها تستر أجساد الأموات وتحفظها.

٥ ـ إثبات كمال قدرته تعالى.

٦ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل.

٧ ـ دلالة خلقه سبحانه لهذه المخلوقات على قدرته على البعث.

٨ ـ الرد على المنكرين للبعث.

٩ ـ في الآيات الإشارة إلى دليلين من أدلة البعث في القرآن:

أ ـ خلق السماوات والأرض.

ب ـ إحياء الأرض بعد موتها.

* * *

ولما عدد أنواع نعمه عليهم من خلقه لهم ورزقه إياهم ثم هددهم بالويل على التكذيب، أخذ في تخويفهم بيوم القيامة وما يكون فيه للكفار من العذاب والنكال، فانتقل السياق من عرض مشاهد الدنيا إلى عرض مشاهد يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي يقال للمشركين يومئذ تقريعًا

وتوبيخًا ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا فقد رأيتموه عيانًا، ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ تكرير للتأكيد وتفصيل لما أمروا به من الانطلاق إلى ما كانوا يكذبون به، ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي إلى ظل من دخان جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة].

﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي يتشعب لعظمته شعبًا ثلاثًا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع، وسماه ظلًا تهكمًا بهم واستهزاءً، ولهذا قال في وصفه: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي لا مظلل من حر النار ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي ولا يدفع عنهم شيئًا من حر اللهب، أي لهب النار، وعُدي ﴿يُغْنِى﴾ بـ﴿مِنَ﴾ لتضمنه معنى يُبْعِد.

﴿إِنَّهَا﴾ أي النار المدلول عليها باللهب ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ وهو ما يتطاير من النار في كل جهة، وهو اسم جمع شَررة، مثل خشب وخشبة، ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ أي كل شررة في عظمها كالقصر، وهو البناء العالي، ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ أي الشرر ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ جمع جمل مثل حجارة وحجر.

شبه الشرر أولًا بالقصر لعظمه، وشبَّهه ثانيًا بالجمالة الصفر بيانًا لجرمه ولونه وسرعة حركته وتتابعه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تكرير للتهديد السابق.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ توجيه الكفار بالقسر من مكان الحشر إلى النار.

٢ ـ توبيخهم على التكذيب بجهنم ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الرحمٰن].

٣ ـ جمع العذابين المعنوي والحسي للمكذبين؛ عذاب الروح وعذاب البدن.

٤ ـ أن النار ذات ظل لا ظليل ولا يقي من لهب، بل من يحموم لا بارد ولا كريم.

٥ ـ أن جهنم ذات شرر كالقصر في عظمه، وكالجمالة في لونها.

٦ ـ وعيد الكفار بالنار وذكر هولها ترهيبًا.

٧ ـ تخويف الله المؤمنين بذكر جهنم ليتقوه ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

❁ ❁ ❁

۞ ثم أخبر عن حال من أحوال الكفار في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

التفسير:

﴿هَٰذَا﴾ أي يوم القيامة العظيم المدلول عليه بـ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ وما ذكر من صفة النار، ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي لا يتكلمون بشيء ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عن شركهم وأفعالهم القبيحة، وقوله: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ الفاء حرف عطف، وهو عطف على ﴿يُؤْذَنُ﴾ فهو داخل في حيز النفي، أي لا يكون لهم إذن ولا اعتذار، وهذا في بعض المواقف فإن يوم القيامة طويل، وللخلائق فيه مواطن ومواقيت،

ينطقون في وقت ولا ينطقون في آخر، ويعتذرون في وقت ولا يعتذرون في آخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تكرير للتهديد السابق.

ثم عاد الخطاب للكفار، فقال سبحانه: ﴿هَٰذَا﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي يوم القضاء والحكم بين الخلائق فيما اختلفوا فيه من أمور الدين، وفيما بينهم من الحقوق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل].

﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ للحساب أيها الكفار ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي ومن قبلكم من كفار الأمم السابقة ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة في الخلاص من عذاب ذلك اليوم ﴿فَكِيدُونِ﴾ أي فاحتالوا لأنفسكم، وهم يعلمون يومئذ أن الحيل قد انقطعت، فالأمر للتعجيز، وفيه تعريض بكيدهم للرسل وأتباعهم في الدنيا، وتقريع عليه، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تكرير للتهديد السابق.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن القيامة أيام في يوم؛ للناس فيه أحوال مختلفة، وبمراعاة ذلك يزول كثير مما يُظن فيه التعارض.

٢ ـ أن الكفار يوم ينطلقون إلى جهنم لا يتكلمون ولا يؤذن لهم بالاعتذار عن كفرهم وشركهم.

٣ ـ تهديد الكافرين بكل موقف من مواقف القيامة.

٤ ـ توبيخ الكافرين على التكذيب بيوم الفصل.

٥ ـ أن يوم القيامة يفصل الله بين عباده فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويفصل في الحقوق التي بينهم.

٦ ـ جمع الأولين والآخرين في يوم القيامة، لذلك سمي يوم الجمع.

٧ ـ إظهار عجز الكافرين عن الانتصار وبطلان حيلهم التي كانوا يظنون في الدنيا أنها تنفعهم.

❁ ❁ ❁

۞ وبعد أن بيّن ما أعده من العذاب والنكال للكافرين ذكر سبحانه ما أعد في الجنة للمؤمنين من أنواع النعيم، وتلك سنّة القرآن في عرض الوعد والوعيد، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

التفسير:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ أي في ظل ظليل لا يرون شمسًا ولا زمهريرا، والظلال جمع ظل وهو الموضع الذي لا تصل إليه شمس، وهو أعم من الفيء لأن الفيء ما زالت عنه الشمس.

﴿وَعُيُونٍ﴾ أي أنهار جارية من ماء ولبن وخمر وعسل وزنجبيل وكافور وغيرها، ﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ جمع فاكهة وهي كل ما يُستلذ وما يتفكه به من الثمار ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي من كل فاكهة يشتهونها، وهي دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي يقال لهم على سبيل الإكرام: ﴿كُلُوا۟﴾ من ثمارها ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ من أنهارها ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلًا هنيئًا وشربًا هنيئًا فهو صفة لمصدر محذوف، والهنيئ ما لا تنغيص فيه ولا كدر ولا أذى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب الذي كنتم تعملونه في الدنيا، وهو العمل الصالح الذي يدل عليه وصفهم بالمتقين.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمحسنون هم المتقون السابق ذكرهم، إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير مدحًا لهم بصفة الإحسان، وفيه إشعار بمقتضى هذا الجزاء، وهو الإحسان ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تكرير للتهديد السابق.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الوعد بعد الوعيد للترغيب بعد الترهيب.

٢ ـ المقابلة بين ظل المتقين وظل المجرمين؛ فظل المتقين ظليل تجري من تحتهم العيون منها يشربون، ومن الفواكه يأكلون، كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء].

٣ ـ أن الفاكهة في الجنة والأنهار أنواع: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ [الرحمن]، وقال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

٤ ـ أن فواكه الجنة لذيذة مشتهاة.

٥ ـ سلامة نعيم الجنة من كل منغص.

٦ ـ أن ثواب أهل الجنة بسبب أعمالهم الصالحة، وجماعها التقوى والإحسان، والتقوى: اجتناب السيئات، والإحسان: فعل الحسنات.

٧ ـ إثبات سببية الأعمال في الخير والشر.

٨ ـ أن الجزاء من جنس العمل، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن].

٩ ـ الحث على التقوى والإحسان.

١٠ ـ أن تعقيب وعد المتقين بوعيد المكذبين بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يدل ـ والله أعلم ـ على عظيم حسرتهم إذا صار المؤمنون إلى ما أعد الله لهم من النعيم المقيم.

١١ ـ إثبات الحكمة لله تعالى في الجزاء بوضع الثواب في موضعه، والعقاب في موقعه.

* * *

ثم عاد إلى خطاب المكذبين الذين خاطبهم في أول السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [المرسلات: ٧] **فقال عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

التفسير:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي في هذه الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ أي متاعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا، فغايته الموت، وما أقربه!

والأمر في الآية للتهديد والتوبيخ فهو كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان].

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ هذا تعليل لما قبله، والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تكرير للتهديد السابق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي وإذا قال لهم الرسول ﷺ أو غيره من المؤمنين ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ أي صلوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي امتنعوا عن الصلاة استكبارًا، وهو كناية عن عدم إيمانهم، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وبعد تهديد المكذبين في عشر آيات ووصفهم بالإجرام وذمهم بالعصيان ختم السورة بالتعجب والتعجيب من حالهم، وبيّن أنهم في أقصى درجات العتو والعناد حيث لم يؤمنوا بهذا القرآن، وهو الحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة، فقال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أي القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن فلا يؤمنون بشيء بعده، والله أعلم.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ التنويع الباهر في أساليب القرآن، فبعد تهديد المكذبين وعرض مشاهد القيامة يلتفت السياق إلى خطاب المكذبين في هذه الدنيا بالتهديد والتوبيخ على إيثار الدنيا على الآخرة.

٢ ـ تحقير أمر الدنيا بقلة المتاع فيها.

٣ ـ أنه ليس للمجرمين متاع إلا ما كان في هذه الدنيا على قلته، ثم يصيرون إلى ما أُعد لهم من العذاب،

كما قال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

٤ ـ أنه ليس بين المجرمين وبين مصيرهم إلا ما يقضونه في هذه الدنيا من عمرهم القصير.

٥ ـ أن الموجب لهذا التهديد والوعيد هو الإجرام، وهو الشرك والتكذيب.

٦ ـ تهديد المكذبين بما يلقونه في يوم القيامة من النكال والعذاب الأليم.

٧ ـ عتو المجرمين عن أوامر الله فلا يستجيبون لأمره، ولا يرعوون عن معصيته، كما قال تعالى ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]، كما أقروا بذلك في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر].

٨ ـ عظم شأن الصلاة حيث خصها بالذكر، وخص تركها في ذم المجرمين، كما خص إقامتها والمحافظة عليها في صفات المؤمنين.

٩ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾.

١٠ ـ أن الأمر للوجوب؛ لأنه ذمهم على ترك المأمور به في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾.

١١ ـ أن القرآن أحسنُ حديثٍ في بيانه وحججه ومواعظه ووعده ووعيده وشرائعه وأخباره، فمن لم يهتد بالقرآن لم ينفعه، أي حديث بعده، فلا هُدى بعد هدى القرآن ولا بيان بعد بيانه.

❁ ❁ ❁

* **قال عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر**: وإلى هنا ينتهي القول في هذا التفسير المبارك لجزء تبارك، وأسأل الله لي ولشيخي المبرور الشيخ العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر البراك أن يضاعف لنا به الحسنات ويكفِّر به السيئات، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وسببًا للفوز بجنات النعيم، اللهم اختم أعمالنا بالخاتمة الحسنى، ووفقنا لإحراز رضوانك الأسنى، وجميع المسلمين، يا أرحم الراحمين، اللهم صل وسلم على نبينا محمد.

❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

المقدمة ٧
سورة الملك ١٣
سورة القلم ٦٦
سورة الحاقة ١١٢
سورة المعارج ١٤٥
سورة نوح ١٧٠
سورة الجن ١٩١
سورة المزمل ٢٣٠
سورة المدثر ٢٦٣
سورة القيامة ٢٩٨
سورة الإنسان ٣٢٦
سورة المرسلات ٣٦٨
فهرس الموضوعات ٣٩٢